مقالات تنويرية

يوتوبيا

الدولة الإسلامية

سعادة أبو عراق

اسم الكتاب : يوتوبيا الدولة الإسلامية

اسم الكاتب : سعادة أبو عراق

رقم الإيداع : 7199 / 2018

الترقيم الدولي : 9789778350425

الطبعة الأولى : 2018

مراجعة لغوية، وإخراج داخلي : هيام فهيم

صادر عن : مؤسسة زَحمَة كُتَّاب للثقافة والنشر

15 ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة

www.za7ma-kotab.com

دار زحمة كتاب للنشر

za7ma-kotab@hotmail.com

01205100596

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة زَحمَة كُتَّاب للثقافة والنشر

المقدمة

لِيعذرَني كلُ من فاجَأهُ هذا العنوانُ الصَّادمُ، وليَغفرَ لي كلُ من أيقَظتُهُ مِن حُلمٍ طَالَما راودَه غَافيًا، وليَسامحَني كلُ من أفسَدتُ عليه مشروعًا يُؤمِلُهُ مُنقذًا للأمةِ من هذهِ الأنظمةِ العربيةِ السادِرَة، ليُرجعَ له كرامتَهُ وعُنفوانَهُ وعِزَّتَهُ في الحياة، فرياحُ الخَيبةِ هذه التي هبَّتْ علينا مُؤلمةٌ، بعد انقشاع هذا الحلم، كأنما نحنُ أمٌ عانتْ ما عانتْ من جهدِ الحَملِ وألمِ المَخاضْ، لِتضعَ في النهايةِ مولودًا مَسخًا، بلْ تَوائمَ شؤمٍ من مَخلوقاتٍ شوهاء، لا تَنتَمي إلى الإنس أو الجانْ، فغدونا مذهولين، لا ندري ما نفعلُ مع هذه النَّقمةِ، فلا نملك قبولهم في مِلَّتِنا ولا نملكُ فَكاكًا من أظافرها النَّاشبةِ في لَحمِنا.

أنا لستُ أقلَ ألمًا ومأساويةً من أحدْ، ولا أكثرَ فهمًا من الذينَ اكتَوَوا بنار الحُروبِ القَذرةِ، ولكنّي حاولتُ أن أجلسَ مع نفسي مُلملِمًا مَشاعري وأفكاري، مُراجعًا كلَّ ما مرَّ بنا، مدركًا أن الضيقَ الذي عانيناه من أنظمةٍ سلطويةٍ، قَذفَ بنا مكانًا أبعدَ من أن تطولَهُ طاقتُنا أو تَتَحققَ منهُ بصيرتُنا، لقد صَعدنا الشجرةَ بهمةٍ وحماسْ، لكنَّنا سَقطنا عن الأفرع العاليةِ، وإني لستُ مُلامًا إذْ مارستُ آدميتي وحَقي بالصَّحو، مُلملمًا حُلمنا السرياليّ المُضطربْ، لأرسمَ تفاصيلَهُ على صَفحاتِ هذا الكتابْ، كَي أرى الفَرقَ ما بين الحلمِ والواقعْ.

وهذا الكتابُ الذي أرتَجيهِ حمَّامًا ساخِنًا يَغسلُنا من غَفلتِنا وغَبائِنا، ويَردُ إلينا تَفكيرَنا الواقِعيّ، فها أنا أفرك عيوني علّي أرى الماضِي على حقيقتِهِ، والحاضِرَ على بُؤسهِ، والمُستقبلَ كَما اشتَهيهِ، أصلحُ ما غبشَ في رُؤيتِي وما اختلَّ من تَفكيري، فلِماذا استغلَّ المُغرضونَ هذا الأملَ المرجوَّ، فاستَولَدُوا داعشَ والنُصرةَ والقَاعدَةَ وغَيرها، أظن ذلك أن مَطلبَ الدولةِ الإسلامِيةِ كانَ غير واضحٍ وغيرَ مدروسٍ تمامًا، فلبستْ الشياطينُ زيَّ الإسلامْ، واختلطَ الأمرَ على العالمينَ، وأصبحنا نضربُ كفًا بكفْ.

في هذا الكتابْ، أذهبُ إلى أدقِّ التفاصيلِ التي غَابتْ عن العامةِ، أو غَيبها عنهُمْ مُنظرو مشروع الدولةِ الإسلاميةِ، علَّ الذينَ ما زالوا يَعيشونَ في هذا الحُلمْ، أن يعرفوا ما يجبُ عليهم أن يفعلُوهُ إن أرادوا مُتابعةَ المشروع، مُعتمدًا على القَواعدِ الفكريةِ التاليةِ، والتي أخالُها صحيحةً ويُمكنُ البناءُ عليها.

1- التمييزُ بينَ الدين والفِكر الدِينيّ، إذْ لا مَساسَ بالدين وبالقرآن الكريم، فالكلام في الدولة الإسلامية ليس كلاما في الإسلام، فما الفكر الدِيني سوى فهمٍ بشري للدينْ، وما دامَ الفكرُ بَشريًا، فهو مُباحٌ لي ولغيري أن نمارسَ فيه بَشريتنا، فمُناقشةُ الفكر الدِيني لا يعنِي إطلاقًا مناقشةَ الثّوابتَ الدّينية.

2- وبما أنّ مشروعَ الدولة الإسلامية، لم يُبنَ على أياتٍ صريحةٍ واضحةٍ ومقصودةٍ في القرآن الكريم، بل نابعة من آراءٍ وتخريجات أشخاصْ، أكانوا أئمةً وفُقهاءَ أو مفكرين أو سياسيين، فهم غَيرُ مَعصومِينَ مِنَ الخطأ، فها قد وجدناهم قد بَنوا مَشروعًا على أرضيةٍ هشةٌ، فانهارَ البناءُ؛ لأنهم لم يقُوموا بفحص الأساساتِ، وكما يقولُ المنطِقُ: المُقدمةُ الخاطئةُ تؤدّي بالضَرورَةِ إلى نَتيجَةٍ خاطئةٍ. وهذا الكتابُ مُحاولةٌ أوليةٌ لمراجعةٍ شامِلةٍ للأفكار التي بُنيتْ عليها فكرةُ الدولة الإسلامِية.

3- التركيزُ عَلى مَفهومِ التَغيير، الذِي هُوَ سُنةٌ من سُنَن الطَبيعة، وأن فكرنا الموروث القائم على مَفهومَ الثَباتِ، كانَ وليدَ المَاضِي، عَلينا أنْ نتركَهُ إلى غَير رَجعَةٍ، ونشكُرُ أسلافَنا عَلى جُهدِهِم، ففكرهم اليوم لا يمكننا من إدراكِ المتغيراتِ لكيْ نتفاداها أو نؤثّرُ فيها، أو نتجاوزها، فالتغييرُ يقودنا إلى التفكيرُ، بقدر ما يقودنا التفكير إلى التغيير، وما دمنا بصدد التغير، فعلينا أن تكون أفكارنا جديدة، وإلا فإنّنا سنلجأ إلى النُّكوص نَحوَ المَاضِي، الذي نَتخيلُهُ قَويمًا، لِذلكَ نَحنُ بحاجةٍ إلى إبداع، لا تقليدَ أو اتّباعْ.

4- التفريقُ بينَ القِيَمِ الإنسانيةِ العُليا النابعةِ من الضَمير، والثابتةُ في كلّ زمان ومكانْ، وبينَ الأفكار العَقليةِ التِي يستقيها العقلُ من ضَروراتِ العَيش والبيئةِ، وبقدر ما هي القيمُ ثابتةٌ، فإنَّ الأفكارَ يجبُ أنْ تكونَ متغيرةً حسبَ الزمان والمَكان، لِذلكَ عَلينا أن لا نتكِئَ على أفكارٍ قديمةٌ، فهي كالدواءِ والغذاءِ، لها عُمرُها الافتِراضِيّ، فلا تَصلحُ الآنَ لما صَلُحتْ لهُ سابقًا، إذنْ عَلينا أن نُعمِلَ عُقولَنا لإنتاج أفكارٍ جديدةٍ تَتَناسَبُ مع عَصرنا وبيئتِنا وقَضايانا وتوجهاتِنا، المُشكلةُ أنّ الداعينَ إلى الدولةِ الإسلاميةِ يُطالبونَ بالقيمِ كالعدل والمُساواةِ والفَضيلةِ، وهذهِ القيمُ لا تَتحققُ بذاتِها، بلْ بعملياتٍ فكريةٍ وتحولاتٍ اجتماعيةٍ لم تؤسِّسْ لَها هذه الجماعاتُ ولم تَسعَ إليها.

5- إنَّ الدولةَ الإسلاميةَ التي نَحنُ بصدَدها يجبُ أنْ تَمتلكَ العناصرَ الأساسِيةَ التِي تَمتلِكُها كُلُّ دولةٍ حَديثةٍ أكافرةٌ أو ملحدةٌ أو بلا دينْ، كَما هِي بحاجَةٍ

إلى مُبرّرٍ لِوُجودِها، وتنشأ في مكانٍ لهُ سِماتُهُ المَوصوفة، وشَعبٍ يَرتَضِي هذهِ الدولة، وإلا سَتَكونُ دولةً استعمَاريةً، كما يجبُ أنْ تَتَمتعَ بمَا تتمتعُ به الدولةُ الحديثةُ من عَناصرْ، إذ لا يَكفِي أنْ تَقومَ عَلى الدِّينْ، فلا يوجدُ دولةٌ في التّاريخ قامَتْ عَلى الدِّينْ، بلْ هيَ تَحتاجُ إلى بُنيةٍ تَحتيةٍ، وبعضُ هذهِ البُنيةِ الدِّين، بلْ أهمُّ ما تحتاجُ إليهِ هي التكنولوجيا وثقافةُ التفكير العلِميّ والفلسَفيّ واستخدامُ المنطِق، لِخلق نهج فِكريٍّ مُتجانِسٍ لِمعظَمِ النّاس لِكيْ لا نُأسسَ للصراعاتْ، بلْ ننظمُ قُوى الشّعبِ ونَجعلُها باتجاهٍ واحدٍ.

فأهم ما في الدولة هو الإنسان، والإنسان متغير بطبعه، فكيف تريدوننا أن ندخل في عباءة غيرنا، تستطيع أن تبني بيتًا كبيت جدك الذي تحبه، ولكن هل سيكون صالحًا لعيشك وعيش أولادك، فاستِنساخُ دولةٍ إسلاميةٍ بناها غيرنا، جائز. ولكن هل ستكون ملبيةً لمطالبنا الحضارية؟

6- بما أننا في قُدراتِنا البَشريةِ قادرينَ عَلى بناءِ دولَة، فإنَّ اللّه لَن يأمُرنا أو يَهدِينا أو يَدُلنا كيفَ نَبنِي دَولةً، فالتجمعاتُ البَشريةُ، عَلى مَدَى التاريخ، أوجدَت مُؤسساتٍ تَقودُها وتُسيِّرُ أمورَها، أكانَ ذلكَ عَلى مُستوَى عَشيرةٍ أو قريةٍ أو إمبراطوريةٍ لا تَغيبُ عنها الشمس، أو مجتمعات بدائيةٍ لا دينيةٍ، لذلكَ لا يُوجدُ دولةٌ أنشئتْ بأمرٍ منَ اللّهِ وهدايتِهِ، فاللّهُ لم يَدلنا كيفَ نصنعُ أدواتِنا أو نُمارسُ حياتَنا، مادامَ قَد خَلَقَ لَنا عُقولًا تَدلُنا عَلى ذلكْ.

7- لِذلكَ يجبُ أن لا نَبحثَ القضايا الدينيةِ بالعَقل، كما لا يَجبُ أن نَبحثَ القضايا العقليةِ بالدين، ذلكَ أنَّ الدينَ يَبحثُ فيما هُو ثابتٌ كالقِيمِ والغَيبياتِ، بَينَما العقلُ يبحثُ في الواقعِ الملموس والمُتغيِّر بطبعِهِ، ومِنْ هُنا تَكونُ السِّياسةُ من المُتغيّراتِ الواجِبِ بَحثُها بالعَقل والتّفكيرْ.

8- لم أستَخدمْ في هذا الكِتابِ الأسلوبَ الخَطابيّ العَاطِفِيّ، إنّما الأسلوبُ التّحليلِيّ الذي يَكشفُ ما وراءَ كلِّ فكرة، ولم أستَخدِمْ مَعلوماتٍ أو أخبارٍ غَيرَ ما هُو مَألوفٌ ومَعروفٌ، لذلكَ لمْ أحتَجْ إلى الهَوامِش والمَراجِع، وأرجو أنْ لا أكونَ قَدْ استثَرتُ المُنتسِبينَ لِجماعَةِ الإخوان المُسلمين والمُؤيدينَ لَهم، وكذلكَ حِزبَ التّحرير الإسلامِيّ، ذلكَ أنهُم الذينَ يَدعُونَ لِدولةٍ إسلامِيّةٍ، عَلاوةً عَلى أنّهما الجَماعَتان المُتصَدِرتَان في مَشهدِ الإسلامِ السِّياسِيّ، فكانَ لا بُدَّ مِن تَناولِ أفكارَهم دُونَ غَيرِهِمْ بالتّحليل المَنهَجيّ الذي يَجبُ أنْ يُمارسوهُ مع أنفُسِهِمْ.

9- لنْ أطيلَ في هذِه المُقدمَةِ التِي لا بُدَّ مِنهَا، خِشيَةَ أنْ أصادرَ علَى ذكاءِ القَارئِ وقُدرتَهُ على الفهمْ، وأخيرًا أرجو أنْ أكونَ قَد أخلصتُ القَولَ، وأدَّيتُ الأمانَةَ التي ألهَمَنِيها اللهُ، وعَسَى أنْ يَكونَ في هذا الكتابِ مغفرةٌ لي بقدر مَا فيهِ مِن نَفع لِلناس.

(1) مقدمات نظرية لابد منها

1- بين الدين والفكر الديني

2- مصداقية التوثيق الشفاهي

3- جدلية الفكرة ونقيضها

4- الإسلام حضارة وليس دولة

5- متلازمة التفكير والتغيير

6- الحلم المشروع بدولة إسلامية

7- هل لدينا وقت للحلم

8- أثر الإسلام السياسي في الثقافة المجتمعية

9- نحن محكومون بالتغيير

1- بين الدين والفكر الديني

بين الدين والفكر الديني مقدار شعرة أو أقل، فهما متلاصقات حد التلاحم، وأن التفريق بينهما هو من الدقة بمكان أن تعرف ما هو عقلي بشري، وما هو ديني إلهي، ذلك أن الخلط بينهما هو ما أدى إلى صراعات دينية وتجاوزات على الدين وعلى العقل البشري والحياة الإنسانية، وإن هذا الموضوع لمن الأهمية بمكان أن يتولى توضيحه كل من له حرص على الدين وعلى الحياة الإنسانية.

1- فالدين هو ما أنزله الله على الناس ليعرّفهم على نفسه وعلى متعلقات الحياة الأخرى من بعث وحساب وعذاب وجنة ونار، فالله - جل جلاله - مفارق عن الطبيعة، بمعنى أنه ليس هو من هذا الكون الذي خلقه، وبما أن عقولنا البشرية هي مخلوقة، وقدرتها على الفهم والمعرفة لا تتعدى حدود الطبيعة، ما ظهر منها وما خفي، لذلك فإنها غير قادرة على تجاوز قدرتها لمعرفة الله، والبعث والجنة والنار وغيرها من تلقاء ذاتها.

2- بما أن قدرتنا البشرية غير قادرة أن تعرف ماهية الله، كما تعرف مكونات الطبيعة الأخرى، لذلك فإن الله أرسل أنبياءه بقدرات خاصة استطاع بهم أن يعرف نفسه إلى البشر، وكان على الناس أن يصدقوا الأنبياء بما يقولون، ولكن ما حصل أن الناس لم تكن لهم في عصور البداوة والتخلف الذي يقرب من الحيوانية، القدرة على فهم ما يقوله الأنبياء فكذبوهم بل قتلوا بعضا منهم.

3- ولكن بقي لكل نبي مجموعة من الأتباع أو الحواريين أو الصحابة حملوا الفكرة بما أوتوا من قدرة على تصور الله في وجدانهم، وكان عليهم أن ينشروا هذه الدعوة بين الناس، ليخلقوا في المجتمع وحدة تصور ووحدة تفكير وتوجه.

4- من هنا ابتدأ الفكر الديني حيث انتهى التنزيل بموت الأنبياء، فالأتباع أو الحواريون أو الصحابة أخذوا الفكرة الدينية، وهي كما سمعوها من الأنبياء، وحينما نقلوها إلى الآخرين، نقلوا فهمهم للدين الذي سمعوه، إذن هم نقلوا فهمهم الذي عبروا عنه بفكرهم، أي أنهم قالوا فكرًا دينيًا، وهو فهمهم للدين، وليس هو الدين، ولو كان ما قالوه دينًا، لكانوا ورثة للنبي، وكان قولهم مكملًا للدين.

5- وعلى مدى العصور والأزمان التي تلت موت النبي - أي نبي- هناك دراسات ووجهات نظر واختلافات في الفهم والتأويل، وكل من تكلم أكان هذا مشهورًا ومعروفًا وعبقريًا، أو كان بسيطًا يحاول التفكير، يكون قد مارس الفكر الديني.

6- بالنسبة إلينا نحن المسلمين فإن النص القرآني هو الدين، لأنه كلام الله الذي تم تدوينه بما لا يدع مجالًا للشك في صحة النصوص التي أنزلت، وأنها يقينًا هي كلام الله، وبالتالي هي الدين، لذلك نقد القرآن هو نقد للدين، وإن إنكار آية واحدة أو سورة واحدة هو إنكار لبعض الدين، إنها النصوص المقدسة التي لا يصح المساس بها.

7- وإذا ما بدأ المفكرون بمراجعة المبادئ والنظريات والأيديولوجيات والتدقيق في أسسها وقوانينها إنما يبدؤون في حفر الأساسات والقواعد التي تمهد لتقويض هذه الأيدولوجية، وهذا أمر لا نقبل أن يطول القرآن الكريم.

8- أما ما تلا ذلك من فكر ديني فإنه لا يأخذ صفة التقديس من أقوال الصحابة والأئمة والفقهاء والدعاة والشيوخ، لذلك فهي مشرّعة للمراجعات والدراسات وبالتالي تصويبها أو نبذها والإتيان بآراء ومفاهيم جديدة غيرها، وإزالة الضار والسقيم والميت منها، إن هذا ليس افتآتا على الفكر الديني إنما هو واجب بل ضرورة لازمة، لاستمرار نمو الفكر الإسلامي، كما هو واجب وضروري تقليم الشجرة بقص بعض أغصانها التالفة منها وغير الضروري، لأجل نمو سليم ومتناسق.

إن هذا الكلام النظري في الفكر الديني، قانون ينطبق على كل المبادئ والأديان، ذلك أنه قانون طبيعي، تسير وفقه الأمور إلى الصواب بل هو الذي يسيرها، وإن مخالفة هذا القانون الطبيعي، سوف تؤدي حتمًا إلى الفشل، ولم نكن نحن في تاريخنا الحضاري بخارجين عن هذا القانون، ونظرة سريعة توضح لنا ذلك :

1- حينما انتهى التنزيل القرآني، وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، هنا انتهى نزول الدين، وبدأ الفكر الديني، فالصحابة شرعوا باستعمال عقولهم حسب فهمهم للنصوص، فاختلفوا واتفقوا وفق فهمهم حول حروب الردة، وانتخاب خليفة، وكتابة القرآن الكريم، وتسيير الفتوحات وغيرها، ولم يكن اختلافهم إلا نابعًا عن فهم كل واحد للآيات القرآنية، لذلك ما قاله الصحابة وما فعلوه لا يجب أن يكون موضع تقديس غير قابل للمناقشة، ولا

مكملًا للقرآن كي لا يضاف إلى الدين، بحيث لا يحسب على الدين سوء فهم بعضهم أو خطأه.

2- أما المرحلة الثانية فقد كانت مرحلة الفقه، نتيجة لتوسع الدولة وتطور المجتمع، وما كان الفقه إلا رؤية للحياة الجديدة بهدف تنظيمها، وحل مشاكلها المستجدة التي ولدتها الظروف المحيطة، من خلال فهم القرآن والسنة، في أواخر القرن الثاني للهجرة، حيث بدأها الإمام مالك في المدينة وأبي حنيفة في بغداد، فالإمام مالك رأى في أهل المدينة نموذجًا يجب أن يحتذى بهم، وبنى فهمه على هذا الاعتقاد لأن أهل المدينة تتلمذوا على يد الرسول، ودليله الذي استرشد به هي الأحاديث النبوية، أما الإمام أبو حنيفة النعمان فقد كان يواجه رجال الكلام أي المتفلسفين في بغداد والكوفة، فأراد أن يظهر عقلانية الإسلام، ويصادر عليهم قولهم، وكان مبدأه أن ما يقبله العقل يقبله الدين، وأصبح للإمام مالك أتباع والإمام أبي حنيفة أتباع، ولكن لم يحدث بين الفريقين مخاصمة فكرية، لأن أحدهما لم يستطع أن يقول عن فكر الآخر أنه خاطئ، إنما هناك وجهة نظر أخرى مباينة.

3- حينما جاء الإمام الشافعي فتى صغيرًا إلى المدينة، جلس يستمع للإمام مالك وقد ناف عن السبعين من عمره، وتعلم على يديه، لكن مذهب شيخه لم يرق له، لذلك وضع مذهبًا جديدًا، لا يعتمد في صحة فتاواه على سلوك أهل المدينة، إنما على القرآن أولا ثم السنة ثم مسترشدًا بأقوال الصحابة وآرائهم ثم التابعين، وإنه لم يقل عن شيخه أنه أخطأ، كما أن المالكية لم يتهموه بالخروج عن فقه مالك، ذلك أن كليهما يرى أنه يقدم وجهة نظر، لا يقولون عنها أنها خاطئة ولا يقولون إنها صائبة صوابًا مطلقًا.

4- في بغداد أيضًا وجدنا الإمام أحمد بن حنبل يتخذ مذهبًا متشددًا شعاره (اتبع النص) و(لا اجتهاد مع النص) بعكس مذهب أبي حنيفة العقلاني المنفتح، ذلك أنه كان يواجه الباطنية الذين يفسّرون القرآن والأحاديث على هواهم، وأيضًا المعتزلة، إنه يقدم وجهة نظر لمعالجة مشكلة مستفحلة، لم يقل له الأحناف أخطأت ولم يقل للأحناف أنتم مخطئون.

5- إن فتاوى الإمام الشافعي في بغداد اختلفت عنها في مصر ذلك أن الظروف والمشكلات في مصر تختلف عنها في بغداد، وهذا يدلنا أنه لا فكر يكون صائبًا في كل زمان ومكان، لأن الفكر أصلًا نابع من البيئة ويصب بها، فإذا ما

اختلفت البيئة ستختلف القضايا والمشكلات، وبالتالي ستختلف الأفكار في أسلوب المعالجة.

6- توالى بعد ذلك ظهور الأئمة والتيارات الفكرية في مختلف بقاع الديار الإسلامية، ومعظمهم - كما نتصور - لم يكونوا على صلة مباشرة مع الآخرين، فكل منهم يفتي بما يناسب مجتمعه من قضايا، من هنا نفترض هذا الكم الهائل من الفتاوى أو الفكر الديني، يحتوي على قدر من الاختلاف والتضارب، بمقدار اختلاف البيئات في هذا العالم، وبالطبع هذا دليل صحة وحيوية ونشاط، وليس دليل الفوضى والتخلف.

إن فقهاءنا ومفكرينا وفلاسفتنا الذين اقتنعوا بهذه الفكرة، فرقوا قديمًا بين القرآن كمصدر للدين، وبين الفكر الديني الذي نما منه أو عليه، من علوم القرآن والحديث والفقه والدراسات الدينية من تلاوة وتفسير وسيرة نبوية ومغازي وغيرها، ولم يقل أحد منهم بأن هذه العلوم هي الدين، وأنها علم مؤكد أو تام، لا يجوز مناقشة صحته أو تهذيبه، أو التوسع به، بل ظلوا يراجعون كتابات بعضهم، إما بالكتابة على الحواشي أو بالرد على بعضهم بعضًا، أو باتخاذ وجهات نظر أخرى. مما أثرى حضارتنا وسما بها.

كان مفهومهم للحضارة مفهومًا راقيًا ومتقدمًا، ولكننا اليوم وفي عصر الحضارات المتقدمة أصبحنا أكثر الأمم تخلفًا، بسبب أننا لم نفرق بيم الدين الثابت، والفكر الديني الذي يجب أن لا يكون ثابتًا، بل متحركًا وناميًا ومتغيرًا، لذلك أصبحنا بالدين نحارب الدين، وبالدين نحارب الحضارة، وبالدين نحارب بعضنا، ذلك أننا نحمل أفكارًا ومبادئ لا نملك مناقشتها، ولا نسمح لأحد بمناقشتها حفاظًا على الدين، كما ذلك المريض الذي يكابر في مرضه ويدّعي سلامته من كل داء، لذلك لا يسمح للطبيب أن يكشف عليه.

وأعتقد أن عدم تفريقنا بين الدين والفكر الديني أفضى بنا إلى القضايا والأزمات التالية:

1- هذا الكم الهائل من الفتاوى والكتب الدينية التي ورثناها ليست كلها على سوية واحدة، لذلك صار الانتقاء من التراث حسب حاجة الشخص وغرضه، أكان غرضًا مبرأ أو غرضًا خبيثًا، ولو قرأت فقه المذاهب الأربعة للجريري لوجدت مثل هذا الاختلاف في المسألة الواحدة، وحينما يتبنى أحد أو جماعة رأيًا ويتبنى أخر الرأي المخالف، فهنا يحدث الخلاف لأن كل واحد

سيرى رأيه مقدسًا لا يجوز الشك به، لأنه يرى في قول الإمام أو الشيخ الذي سمع منه دينًا، وبالتالي صار رأي الشيخ الذي يحمله دينًا مقدسًا.

2- وهذا راجع إلى أن تراثنا لم يتم غربلته وتنقيته من الشواذ، ونفي ما لا يتفق مع العصر لأنه يكون مؤذيًا ملطخًا لوجه الإسلام، لذلك من الواجب أن نقوم بمراجعة هذا التراث، لأنه فكر ديني وليس دينًا، ونقول بجرأة أن هذا خطأ يجب إزالته وهذا صواب يجب الأخذ به، إنه مشروع كان يجب أن يتم من قبل قرن أو يزيد.

3- إن عجزنا عن غربلة تراثنا راجع أننا لا نملك رؤية للمستقبل، متفقة مع الوضع الراهن، هذه الرؤية يكون الطريق إليها واضحًا بقدر ما تكون هي واضحة، ولكن للآسف فإن شعار (لا يصلح أمر هذا الدين إلا بما صلح به أوله) جعلنا نرتد إلى هدف نراه على بعد ألف وخمس مائة سنة، لأن تراثنا يتكلم عن تلك الفترة، ونحن بحاجة لفكر ديني يتكلم عن استشراف للمستقبل ولو لبعد عشر سنوات.

4- إن الحاملين لواء الدفاع عن الإسلام يحملون نزرًا يسيرًا من حضارتنا، ومن الواضح أنهم لا يدافعون عن الدين إنما يدافعون عن معلومات بسيطة يمتلكونها، ويخشون ضياعها، ويظنون أن الحرص عليها هو الحرص على الدين ذاته.

5- إن عدم تفريقنا بين الدين والفكر الديني جعلنا لا نفرق بين بناء الدولة والحضارة وبين الحفاظ على الدين، فالدين موكول حفظه لله، أما الفكر عامة والفكر الديني هو الذي يبني لنا مجتمعاتنا ودولنا وحضارتنا وإنسانيتنا، ولكننا بسبب عدم تفريقنا بين الدين والفكر الديني، لم نحافظ على نقاء الدين ولم نبن دولا ومجتمعات قوية.

6- إننا لم نتعلم أدب الحوار، نسمع بتأمل لرأي غيرنا، ونتفهم وجهة نظره، ونناقشه مناقشة هادئة، ولكن ما هو حاصل أن نرفع في وجهه من يخالفنا الرأي في موضوع ديني، تهمًا مسبقة الإعداد بأنه كافر أو شيوعي أو علماني أو زنديق أو جاهل أو سفيه، وهذا الدفاع الغوغائي هو سبب تحجر فكرنا، وتخلفنا الذي نعيشه، وناتج عن عدم تفريقنا بين الدين والفكر الديني.

7- إن قولنا (أجمع علماء الأمة...) قول غوغائي لأن ذلك لا يدل على صحة الرأي الذي نستشهد به وصوابه وكذلك (يقول فلان...) ففلان ليس معصوما عن الخطأ، أو (ورد في صحيح البخاري...) فصحيح البخاري ليس قرآنا مقدسًا،

فالبخاري إنسان وهو ابن عصره، ككل الأئمة والمجتهدين، وكتابه لا يمكن أن يكون مبرّأ، فإن قواعد الاستشهاد هذه تقود حتمًا إلى الخطأ، لأننا نستشهد بفكر ديني.

8- إننا الآن نعيش مرحلة اجترار للماضي، الذي تم اجتراره سابقًا مرات عديدة ولم يُغن شيئًا في عصور الانحطاط، فبناء فكر وحضارة جديدة لا يكون باستحضار الماضي أو الرجوع إليه، إنما باستيلاد الأفكار والمبادئ الحية الصالحة للإنبات، ويجب أن نعلم أننا لا نبني دينًا لأنه مبني أصلًا، إننا نبني دولة وحضارة، بحاجة لأفكار جديدة، وأن هذا ليس بالأمر السهل، بحيث يقوم به أصحاب المظهريات الدينية.

9- إن الحركات الدينية التي نبتت بين ظهرانينا لم تكن طبيعية، بل أنشأتها دول ومولت نشاطها، بمعنى أن القائمين عليها موظفون، وليسوا رجال نهضة وإصلاح يحملون فكرًا حضاريًا وأهدافًا واضحة عليا، بل يتسوّلون أفكارًا لم يتأكدوا من صحتها ولا ملاءمتها للعصر الحديث، فمزاحمة السعودية لمصر على زعامة العالم العربي والإسلامي، دفعت لنا بالتيارات السلفية، لتواجه التيارات القومية، بالأممية الإسلامية، فراحوا يغرقوننا بحواشي الدين، على أنه لبّ الدين وجوهره.

10- خلاصة القول أن الدين يجب أن يكون ثابتًا، أما الفكر الديني فيجب أن يكون ناميًا، وعلاقة الدين بالفكر الديني علاقة الأرومة بالفسائل التي تنمو عليها، وتكون قوة الفسائل وكثرتها دليلًا على حيوية الأرومة، وإن اجتثاث الضعيف واليابس من هذه الفسائل سيسمح بإنبات غيرها أكثر نضارة.

11- إن هذا الرأي هو الشرط الأول لكل بحث في الثقافة الإسلامية كما هو الشرط الأول في كل بحث يتناول العلوم الإنسانية، إن التسليم بأي علم إنساني بأنه تام، ما هو إلا قطع قمته النامية، والحكم بقتل هذا العلم وإماتته أو اعتباره ميتًا.

إن منهجية بحثنا في هذا الكتاب حول الدولة الإسلامية قائم على هذا المنهج الذي يرى كل شيء قابل للمراجعة والمناقشة، وبالتالي بناء أفكار جديدة وتوجه جديد.

2- مصداقية التوثيق الشفاهي

إن تاريخنا الفكري لم يولد على صفحات القرطاس، بحيث لا يمحى بسهولة، إنما ولد على رمال الذاكرة، التي تعيد دائمًا إنتاج الفكرة والمعلومة، فكل منا لا يمكنه أن يعيد الفكرة أو المعلومة أو الرواية ذاتها كأنه آلة تسجيل، بل يأخذ في اعتبار السامع ومستواه الذهني، والأسلوب الموائم للظرف المكاني والزماني، لذلك من الممتنع علينا أن نعيد فكرتنا دون زيادة أو نقصان لكي تناسب المتلقي، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نناقش مدى صحة تراثنا ومصداقيته.

إذن دعونا نتصور العرب في جزيرتهم يجوبون هذه الصحاري الجافة، باحثين عن الواحات ليرووا ظمأهم ويحصلوا على كلئهم منها، وأظنهم كانوا على مسافات بعيدة من بعضهم، ويحتاجون لأن يتبادلوا الأخبار، وكان أكثر ما يتداولونه شفاهيًا وهو الشعر، ولعله كان السلك الناظم الذي يجمع القبائل على اختلاف تناحرها، ذلك أن الشعر كان نظمه الغنائي عاملًا على حفظه، بحيث لا استزادة لأكثر مما يسمح به الوزن، ومع أن القالب الشعري حفظ النص من أن يبدل فيه إلا أن النقاد وجدوا في روايات حماد عجرد وخلف الأحمر، قصائد منحولة لشعراء لم يؤلفوها، كما أنهم أيضًا حشو في قصائدٍ أبياتًا ليست من صميم القصيدة، كما في قصيدة (بانت سعاد...) لكعب بن زهير ، وذهبوا أيضًا إلى تبديل كلمات بكلمات تناسب الوزن، ربما أن ذلك راجع إلى أن الراوي الذي نسي الكلمة الأصلية فجاء بأخرى توافق الوزن والمعنى، أو أراد أن يصلح في التعبير حسب ذوقه واستحسانه.

هذا هو الشعر الذي تلاعب به الرواة، كما أفاض في تبيانه الدكتور طه حسين (في الشعر الجاهلي) أما في مجال الروايات التاريخية أو الوقائع أو السير أو الأحاديث الشريفة فمجال الاختلاف واختلاق وتحوير وتزوير، فهو أكثر من أن تحصي مجالاته، ذلك إن الضوابط الموضوعية كانت أقل تواجدًا وأقل التزامًا بها، بحيث كان مباحًا لمن يريد الاستزادة أو التنقيص أن يفعل ما يريد، وبما يلبي رغبة الجمهور ويجذب الأسماع إلى ما يقول.

نعرف أن العرب في ذلك الوقت لم يكن لديهم ما يقرؤونه أو يكتبونه، فلا بديل عن السماع، لذلك قام الرواة يطوفون البوادي والحواضر وكل الأمكنة، يقدمون لمستمعين أشعارًا وأخبارًا وسيرًا وأساطير وحكايات، وكان عليهم أن يقدموا ما يقدموه على طبق من المتعة والدهشة والظرف، لذلك كانوا يعمدون إلى إعادة الصياغة مرات ومرات فيجنحون إلى المبالغة حد الإسراف والخروج عن المعقول، والإكثار من التهويل الذي يثير فرائص المستمعين الداخلية.

وفي جميع الأحوال فإن الإخباريين لم يكونوا توثيقيين، أي لم ينقلوا نقلًا صادقًا وحرفيًا، لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى المستوى الحضاري الذي يرون فيه هذه الموروثات الثقافية جزءًا من الهوية القومية، ويجب أن تكون صادقة، لذلك لم يكونوا مهتمين بصدقها وتوائمها مع بعضها وبالتالي تشكيل نظرة واحدة للمجتمع.

وبنظرة عامة نحو تراثنا العربي نجد أنه ليس أكثر من ركام من المعارف والأخبار والتفاسير الذي يختلط فيه الدين بالتاريخ بالخرافة بالإسرائيليات، لذلك فإن ما نحن فيه من تخلف وتخبط وحيرة وتناحر إنما هو راجع إلى أننا نستطيع أن ننتقي من هذا الركام الحضاري ما نشاء لنبرر أخطاءنا ونزواتنا ومشاريعنا الخاصة وسياساتنا وخياناتنا.

لذلك وجب علينا اليوم إعادة النظر فيما جاء على السنة المؤرخين والرواة والإخباريين والفقهاء، وما تواتر إلينا من معتقدات ومفاهيم وسلوك وفتاوى فقهية وغيرها وذلك اعتمادًا على المنطلقات التالية:

1- استعمال القاعدة التي تقول إن التاريخ يجب أن يعاد كتابته، أي إعادة النظر في ما ورد من معلومات ووقائع تاريخية، وما بني عليها من تفاسير وأحكام، بعين نقدية محايدة، لأن كاتب التاريخ لا يمكن أن يترك جانبًا ميوله العاطفية، وهذه الميول لا بد أن تزيغ استنتاجاته ورؤيته بعيدًا عن الحقيقة، وهذا يقودنا إلى خلق رؤية تاريخية جديدة.

2- علينا أن نفهم العصر الذي دونت به هذه الأخبار والمعلومات، وأن نفهم أساليب التفكير عند المؤرخين والكتاب والفقهاء، ومناهجهم في البحث ومرجعياتهم العقائدية، كي نعرف كيف كانوا يفكرون ويستنتجون، وسبب اهتمامهم بما يقولون وما يسمعون وأن نعرف المزاج الشعبي والاجتماعي الذي يجعل من هذا المجال مقبولًا ويجعل من آخر منبوذًا، لكي نعرف ما إذا كان

القياس جائزًا في ظرفنا الحالي أم لا، ونذهب بالأفكار التي خدمت فترة مرحلية إلى أرفف المتاحف ونعتذر لهم عن أخطائهم، ونأخذ الأفكار الحية القابلة للنمو في مجتمعنا الحديث، ونستنبتها ونستفيد منها.

3- الأخذ بالعلوم الحديثة في البحث والاستقصاء التي كانت قديمًا محدودة أو غير موجودة، ونستخدمها في هذا المشروع، فمثلا كانوا يعتمدون على شهرة الراوي وسمعته، وهو أمر غير جائز في زماننا، مما جعلهم يقومون بالتسليم بصحة ما يقول، أي يقومون بتقديس قوله، والتقديس في مجال العلم غير مقبول، لأن الإنسان مهما كان عظيمًا لا يخلو من زلل أو خطأ مقصود أو غير مقصود، لذلك يجب مراجعة أقواله.

4- فهم الأساليب البلاغية التي كان يعتمدها الرواة بأنها وسيلة لجذب المستمع إليه، وعدم فهمها على أنها حقيقة بل مجاز، مما يؤثر على مصداقية الرواية، ومن هذه التأثيرات صيغة المبالغة، والمبالغة هي تضخيم الحدث أو الشخصية بما يفوق الواقع أو التصور، فنخرجها من الواقع إلى الخيال والأسطورة، والمبالغة هي بديل للحوار المنطقي الذي يتعامل مع العقل، لأن المبالغة تخاطب العاطفة، ومن المعروف أن العاطفة تؤثر على العقل وليس العكس.

5- أن نميز بين منهجين في البحث وهما:

أ) البحث في المجال الديني أي البحث في قضايا أركان الإيمان وأركان الإسلام وما ورد في القرآن، فهي قضايا ليست في مجال العقل لكي يثبت صحتها أو عدم صحتها، وإنما نؤمن بها كما جاء بها القرآن والرسول الكريم، أو لا نؤمن بها، فمن الخطأ الفادح بحث الأمور الدينية بالمنطق العقلي، وبحث الأمور الدنيوية والموضوعات العلمية بالمعتقدات الدينية.

ب) البحث فيما عدا ذلك في صحة المعلومات أو الأخبار أو الأفكار أو الفتاوى التي جاء بها أو نقلها أفراد أو جماعات، ذلك أن المعلومة التي نقلها لا بد أن يكون عقله وتفكيره قد صاغها على غير ما سمعها، ولا بد أن يكون قد أجرى عليها تغييرًا ما، لذلك لا بد أن نقوم بفحصها، مهما كان هذا الشخص مرجعًا متفقًا على علمه ونزاهته وصواب رأيه، وكل الذين يتهيبون من فعل ذلك إنما يرتكبون عملًا آبقًا، فمثلا صحيح البخاري الذي يعتبره البعض في مقام القرآن قداسة وصوابًا، إنما يعبرون عن عدم قدرتهم على الفهم الواعي السليم.

6- الإيمان بأن كل فكرة أو مبدأ أو سلوك هو نابع من تفاعل العقل البشري مع بيئته ومع زمانه، لذلك علينا أن فهم ما جاءنا من موروث بما يتفق مع الزمن الذي نشأ به والبيئة الحاضنة المؤثرة إيجابا أو سلبا، وعليه يجب أن لا نحكم على ذاك الزمان بمفهومنا اليوم، وأن لا نستعمل الأفكار القديمة لمعالجة واقعنا، فالأفكار كما هو الدواء لا بد له من فترة صلاحية محددة، العاجزون عقليا هم الذين يستعيرون من غيرهم أفكارهم ولا ينظرون إلى صلاحيتها.

ولنضرب بمعركة مؤتة مثلًا عمليًا لما قلناه، وما يجب أن نقوم به ونحن إزاء أي موضوع ورد في تراثنا، وأعتقد أن تفاصيل معركة مؤتة معروفة لكل عربي وكل مسلم.

1- إنها معركة ليست مع الروم، إنما هي معركة مع الغساسنة الذين كان موطنهم منطقة الجولان وحوران، والغساسنة عرب تابعون في ذلك الوقت للدولة البيزنطية في القسطنطينية، وكان شاعر الرسول حسان بن ثابت يزورهم ويمدحهم بشعره، وكانت حاضرتهم جلق التي هي دمشق، وعليه فلا يمكن أن يكون الغساسنة قد حشدوا مائتي ألف جندي لمواجهة ثلاثة آلاف عربي، لأن الكثافة السكانية في سوريا لا تحتمل هذا التحشيد الهائل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن للقائد السياسي والعسكري تقديره المبدئي لقوة عدوه، فلا يقذف بكل قواته في كل معركة صغيرة تستوجبها سرية أو كتيبة واحدة.

2- لم يذهب أحد إلى قرية مؤتة بالقرب من مدينة الكرك، ويرى المنطقة والمساحة المفترضة للمعركة، فهل المكان يتسع لمئتي ألف مقاتل بخيولهم وجمالهم وغذائهم وخيامهم وأسلحتهم، كما يفعلون في الغرب من إعادة تصور معارك الرومان القديمة.

3- يمكن تفسير تلك المبالغة الزائدة بأنها جاءت لتبرير الهزيمة في تلك المعركة، ليقولوا إنهم واجهوا جيشًا يفوق طاقتهم، أو هي المبالغة التي يذكرها الجنود بعد كل معركة شاركوا بها للفخر أو مجرد إيراد قصص مثيرة، أو أن رؤيتهم لكتيبة عسكرية مدربة وموزعة بشكل لم يسبق أن رأوا مثل ذلك في غزواتهم التي مارسوها، جعلهم يرونهم عصيون على العد، وجائز أيضا أنهم لم يكونوا يتصورون قيمة الألف كما لا يستطيع الكثير منا اليوم تصور مقدار المليار أو الترليون.

4- لا يمكن من الناحية المنطقية أن يواجه ثلاثة آلاف من غير المدربين مائتي ألف جندي مدرب ومعد للقتال، ولم يذكر لنا المؤرخون قتلى غير ثلاثة هم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر ابن أبي طالب، ورواية أخرى ثلاثة عشر، فهل هذا يتفق مع العقل السليم؟

5- إن استشهاد جعفر ابن أبي طالب تم أسطرة مصرعه بشكل يتفق مع ما له من تعظيم عند رسول الله ﷺ، حينما علم أن يديه الاثنتين قد قطعت فقال رسول الله ﷺ لقد أعطاه الله جناحين يطير بهما في الجنة.

6- أن تقطع يد مقاتل أو رجله أو رأسه في معركة بالسيوف أمر وارد تماما، وان تقطع يداه فهو أمر محتمل أيضًا، أما كيف تم ذلك فقد تم روايته على شكل خرافي كما يلي:

أ- إن جعفر رضي الله عنه كان قائد المعركة ويرفع الراية عاليًا، فهل كانت مهمة القائد أن يدير المعركة ويتحرك في كل اتجاه؟ أم كان واجبه رفع الراية فقط؟ فهذه مهمة يمكن لأي شخص أن يفعلها.

ب- حينما قطعت يده، وهذا محتمل جدًا في المعركة، فهل كان قطع اليد بهذه السهولة، فقطع يد السارق حسب الأحكام الإسلامية لا تقطع بأن تمد في الفضاء بل تحتاج إلى وضعها على أرضية خشبية لا تهتز من تحتها، وساطور ثقيل مسنون جيدًا كي يقطع من أول ضربة، فكيف بزند رجل مشرعة في الهواء، وسيف ليس حادًا بما فيه الكفاية وزند قوي، أن يقطع هذا الزند وهو يتحرك في الهواء؟

ت- إن قطع أي جزء من الجسم ولو كان إصبعًا يجعل قوى الجسم تنهار جميعها، إن قطع الزند لا يمكن أن تبقي جعفرَ متماسكًا بما يكفي لكي يتناول الراية مرة أخرى، ثم تقطع يده الأخرى ثم يحتضن الراية بكلتا عضديه، فكيف أمسكها واحتضنها بيدين مقطوعتين؟

هذا مثال لرواية الوقائع بطريقة أسطورية.

أما أسلوب المبالغة فإننا نشير إلى إنفاق عثمان بن عفان إذ تبرع بحمولة قافلة من مائة بعير وفي رواية أخرى ألف بعير، تدل على هذه الروايات مبالغ بها حد الأسطورة، فلا يمكن أن يتاجر عثمان بن عفان أو عبدالرحمن بن عوف بمثل هذه القافلة لبيعها في مكة أو المدينة حيث السكان الفقراء، ثم يتبرع بها في سبيل الله، فكيف يتبرع برأس ماله الذي لا يستغني عنه.

وأيضًا هل كانت دولة عمر بن الخطاب بعاجزة عن تجهيز راحلتين: للخليفة راحلة وللخادم راحلة، بينما كانوا قد جهزوا جيشين: واحد للعراق وآخر لبلاد الشام.

هل أن حادثة صفع ابن الوالي للمصري يستحق ذهاب المصري من الفسطاط إلى المدينة المنورة ليشتكي للخليفة هناك، إن الذي أورد هذه الرواية لم يكن يدرك المسافة بين مصر والحجاز، ثم يرسل الخليفة من يستدعي عمرو بن العاص وابنه لكي يسدد المصري لطمته. نقبل هذه القصة لو حدثت في مدرسة بين طالبين، أما أن يأتي حاكم مصر لكي يأكل كفًا على صلعته، أما كان عند الخليفة غير هذا الخيار الذي كلف وقتًا وجهدًا، إن صاحب الرواية أراد أن يدلل على عدل عمر بقصة ممتعة، ولكنها غير حقيقية.

إن هذا المنهج الذي أدعو إليه ليس بحاجة إلى أن يتسلح بالمناهج البحثية اللازمة بل أيضًا بالشجاعة التي تؤهله تناول كثير من القضايا الأكثر رسوخًا وقناعة بصحتها.

وبهذا الأسلوب من التحليل سوف أقوم بمناقشة كل الأفكار والأخبار في موروثنا الثقافي.

3 - جدلية الفكرة ونقيضها

يغدو من الواجب اللازم البحث عن الخطأ دائمًا، والتأكد من ذلك، وبالتالي البحث عن الصواب، فنحن لا نذهب إلى الصواب إلا إذا استشعرنا الخطأ الذي وجدناه مسببًا لمشاكل نعاني منها.

في أمثالنا نقول: الضد يظهر حسنه الضد، وهو جلاء بصري أو سمعي جيد، بمعنى أن الأبيض يكون أكثر جلاءً مع الأسود الصوت يكون أكثر وضوحًا مع الصمت، ولو تابعنا كثيرًا من المتناقضات لوجدناها مترابطة منذ الأزل كالخير والشر، والجمال والقبح، والضعف والقوة، والحرب والسلم وغيرها.

نجد أن الترابط الدائم بين هذه المتناقضات هو لازم لوجودها ونمائها، وما كان لجانب أن يطغى على الآخر، كأنهما في كفتي ميزان، كلما ثقل جانب احتاج الجانب الآخر أن يستقوي لكي يميل الكفة لصالحه، ثم ما يلبث الجانب الآخر أن يعيد الكرة ويعدل الميل المرجح، وهكذا دواليك منذ الأزل وإلى ما شاء الله من الزمان.

إن هذه الصورة المقربة لجدلية المتناقضات هي إلى حد كبير تعبر عن تراكم خبراتنا في مجال المتناقضات، فلا يمكن أن تتعمق معرفتنا بالخير إلا إذا تعمقت معرفتنا بالشر، ولن تتعمق قدرتنا على النصر إلا إذا تعلمنا الدروس من الهزيمة، وهكذا نرى أن الأضداد ضرورية لبعضها البعض.

وقديمًا قال الأستاذ عباس العقاد في مقدمته لكتابه (إبليس) :

[حينما عرف الإنسان إبليس كانت فاتحة خير]، بما يعني أن إدراكنا أن هذا الفعل هو شر ينتقل بنا الذهن إلى نفي هذا الفعل، ونفي السالب هو موجب، كما تعلمنا في الرياضيات (سالب × سالب = موجب).

المشكلة في الذهن البشري، أننا إذا لم ندرك أن ما نحن بصدده هو شر أو هو خطأ أو يحمل أية صفة سلبية، في هذه الحالة، فإن الذهن لن يفتش عن النقيض، ما دام غير شاعر بالخطأ.

لذلك فإننا سنستمر في قبول هذا الخطأ، وهو موافق للمنطق الرياضي حسب المعادلة الجبرية التالية (سالب × موجب = سالب).

إذن فإن اكتشاف الخطأ من قبل الذهن هو القاعدة الأساسية لكي نكتشف الصواب، لأن ذلك نابع من الشعور بالضرر أو الشعور بعدم الرضا أو الشعور بعدم الكفاية أو الشعور بعدم تحقيق الهدف، إنها جميعها مشاعر سلبية تقودنا حتمًا إلى العمل على تجاوزها والتفتيش عن إزالة مثل هذه المشاعر السوداء الممضة.

ونكون بذلك قد ارتقينا إلى منهج الصواب الذي يجب أن نسلكه في حياتنا، وهكذا فالصواب لم يكن ميسرًا للذهن قبل أن نكتوي بنار الخطأ، ومن هنا نجد أن الخطأ هو سابق على الصواب.

بهذا نكون قد وضعنا قاعدة ذهنية ترى الخطأ سابقًا على الصواب، وإذا ما كانت هذه القاعدة صحيحة فيغدوا من الصواب أن نجعل همنا، هو البحث عن الخطأ، لكي نهتدي على ضوئه إلى الصواب، وأن نكون سيئي النية مسبقًا حيال كل الأفعال والأفكار، لكي نجد موضع الخلل والخطأ والخطل، ثم نقوم على إصلاحه أو تبديله أو نبذه، إذ لا يوجد خطأ دون فعل إنساني، ولا يوجد تصويب إلا بفعل إنساني.

وما دمنا قد استنتجنا أن الصواب لا يكون إلا ابنًا شرعيًا للخطأ، فإن جلسات الوعظ، والنصائح، وإيراد الأمثلة والحكم ليست إلا كلامًا لا يلصق بالذهن، ولا يكون له تأثير على النفس البشرية طالما هي لم تستشعر الخطأ استشعارًا حقيقيًا، فإن المواعظ ستفقد قطبها السالب، وبالتالي ستفقد تدفق التيار بين القطبين، وتفقد الطاقة اللازمة والأمل المرجو.

وعلى هذا الأساس من التصور عن العلاقة بين الخطأ والصواب، وأن لا صواب إلا بخطأ ملموس، فإننا نستطيع أن نقرأ بعض ما نعاني منه من تخلف وفكري ومعرفي وحضاري :

1- إن الحصانة التي نسبغها على كثير من المعتقدات والأفكار والتصرفات بحيث نرفعها فوق تناول النقد والتمحيص، هو شيء مضر، بل هو الشر بعينه، ذلك أن تعود الذهن على أفكار معينة ومعتقدات معينة، هي مرحلة الوقوف التي تمهد نحو التراجع والسقوط.

2- إن الأفكار المضادة لأفكارنا هي أكثر ضرورة لنا من الأفكار المؤيدة، ذلك أنها تجعلنا دائمي النظر إلى أنفسنا وإلى أفكارنا وتوجهاتنا، فهي كالمرآة التي نرى فيها صورتنا مقلوبة، ولكنها تمنحنا فرصة التحقق من ذاتنا.

3- إذن نحن بحاجة إلى من يوجه لنا النقد السلبي، وليس النقد السلبي شرًا مستطيرًا دائمًا، فلا بد أن يكون فيه إشارة إلى مكون سلبي في أفكارنا.

4- إذا استطعنا أن نكون بهذه الروح العالية فإننا نغدو بلا أعداء، وبلا منافسين لأننا نرى في منتقدينا أصدقاء يهدون لنا عيوبنا، وتصبح قدرتنا على المنافسة وتقبل النقاش والمحاججة أكثر، ونكون كالمحاربين الديناميكيين لا يرى ضيرًا من التراجع لكي يعيد الكرة مرة أخرى.

أن هذا التنظير الذي يراه الكثير بديهيًا فإن تطبيقه ليس ميسرًا كما في المجالات التالية:

1- كان تعاملنا مع إسرائيل تعامل عدو، بل تعاملنا مع وحش مفترس، المهم هو ضربه بأي شيء، وإقصاؤه إلى أبعد مدى، وعدم محاولة فهمه كعدو لديه أفكار عدوانية، توطئة لكيفية معالجة عدوانه وصده، ومع أن إسرائيل أكثر تكتمًا وحرصًا على خصوصيتها ومشاريعها في المنطقة، فنحن أيضًا عزفنا عن محاولة التجسس عليها ومعرفة أسرارها وما تخبئه ومقدار قوتها، وتعاملنا معها على أنها ليست بذات شأن إلى أن كانت الكارثة عام 67 فوجدنا أننا بواد وهي بواد آخر، وأن عنصر الشر والخطيئة التي جسدتها إسرائيل حيالنا، لم يجعلنا نتفقد أنفسنا ونستفيد من هذا البلاء الذي أصابنا.

2- وفي ذات المساق كان تعاملنا مع المد الشيوعي، والذي لم يكن عداؤنا معه عداء وجوديًا، ذلك أننا لم نكن رأسماليين كما هي أوروبا وأمريكا، ونحرص على بنيتنا الاقتصادية، إنما كان عداءً عقائديًا بان الشيوعية مبدأ كافر صنعه اليهود، ولم ندر أننا نحارب في معركة غيرنا، ذلك أن أحدًا من المناوئين للشيوعية لم يكلف نفسه عناء قراءة الفكرة الشيوعية قراءة استطلاعية، بل كان الجميع معتمدًا على الأفكار التي سربتها الدوائر المناوئة للشيوعية على أنها ضد الدين، بالإضافة أن مؤسسات الرقابة كانت تمنع أي كتاب يتكلم عن الشيوعية، أنا لا أقول هذا دفاعًا عن الشيوعية، إنما أقول إن أحدًا لم يكلف نفسه عناء دراسة الشيوعية كما يجب، ومناوأتها كما يجب، أن تفهم عدوك فهمًا صحيحًا، قبل أن تبدأ في عدوانك عليه أو صد عدوانه عنك.

3- في حياتنا الإسلامية استسهلنا فرز البشرية إلى كفار ومسلمين، وامتدت فكرة الفرز إلى عصرنا الحديث، إن شتم الآخرين بالكفر والإلحاد هو إيجاد سدود أو مسافات يصعب اجتيازها بيننا وبين الآخرين، وهذا جعل منا أناسًا

يرونهم خطرًا على ديننا دون التمعن في ما يحمد عندهم، وهنا كان مجال التأثر بهم بطيئًا، ذلك لاعتقاد الكثير منا في مطلع القرن الماضي بأن هناك حضارة كفار وحضارة مسلمين، لذلك لم يكن الاستفادة من عدائنا لحضارتهم، بأن استثرنا مَلَكاتِنا وقوانا لمقاومتهم ودفعهم وبالتالي طورنا أنفسنا وأفكارنا ومواقفنا وأثرينا حضارتنا، ولا نحن صادقناهم وتعلمنا منهم وبالتالي أثرينا حضارتنا بقبس من حضارتهم.

4- سوف أعمد في هذا الكتاب إلى أن أكون قاسيًا في نقدي لفكرة الدولة الإسلامية ومبدأ الدولة الإسلامية، ذلك أن هذا الحراك الفكري سوف يؤتي أوكله في تصحيح الفكرة، ولو بعد حين.

5- إن ما نراه اليوم من فوضى وتناحر يؤججها الإسلاميون لإقامة دولتهم المنشودة، أرجو أن لا تطول هذه المعارك المدمرة، لنكتشف (بعد دمار مالطة) أن أفكارنا في الدولة الإسلامية كانت قائمة على حلم، كنا نستمرئ العوم فيه.

4 - الإسلام حضارة أم دولة ؟

رغم أن البحث في الحضارات من أعقد البحوث وأوسعها وأصعبها، فإن هذا لا يمنعنا أن نتصور الحضارة من خلال الخطوط العريضة الأولية، والنظرة العامة على معظم الحضارات، نستطيع أن نقول أن الحضارة لا تبتعد عن قولنا إنها مشروع، يخطط له أناس تخطيطًا واعيًا يتبعهم منفذون يقومون على بناء تلك الحضارة وفق ما لديهم من قدرة ووعي مسبق بما سيقومون به، وهناك عمال مهرة يقومون بالعمل اليدوي، وعندما ينتهي المشروع، ويتوقف عندها العمل، فيتوقف تلقائيًا نموها وحركتها ريثما تبدأ بالتراجع، وتصبح هذا الحضارة في التاريخ معلمًا يشار إليه، وشاهدًا لا يزول عن صانعي هذه الحضارة، بالطبع كما في كل مدينة هناك من قصور وعمائر عملاقة وكذلك بيوت كبيرة وصغيرة وسقائف وعرش وكهوف وخيام لا تقي بردًا ولا حرًا، كذلك كانت مدينة الحضارات التي صنعتها البشرية، صورة متخيلة للحضارات التي بادت وتركت أثرًا كبيرًا أو صغيرًا، ليست حقيقية إنما لتقريب الأفكار، ومحاولة لفهم تكون الحضارة ونموها وسقوطها.

وارتباط الحضارة بالدولة أو بشعب من الشعوب أو بمفكر أو قائد سياسي محنك، هو ارتباط تلازمي، فلا بد من الحضارة من يخترعها ويحملها ويرعاها ويطورها ويطبقها، وهي عبارة عن مجموعة من القيم والمبادئ والعلوم الإنسانية والطبيعية التي اعتنقها شعب من الشعوب، ويمكن لهذا الشعب أن يفنى ولكن حضارته لا تفنى، ما دامت إنسانية، واستقاها أقوام آخرون، وأبقوا عليها، لذلك نقول إن الدولة شيء والحضارة شيء آخر، فيمكن أن تكون دولة بلا حضارة، أو حضارة بلا دولة.

فلو نظرنا إلى أية حضارة في التاريخ لاستطعنا أن نشير إلى السمة الرئيسية في هذه الحضارة، فمثلا لو نظرنا إلى الحضارة الفينيقية لقلنا إن سمتها هي التجارة البحرية، فقد تنبهوا إلى البحر الأبيض المتوسط كبحيرة كبيرة، وراحوا يتجولوا في أرجائها يأخذون من هذا الجانب ليضعوا في الجانب الآخر، إلى أن تنبه من كان في الجانب الشمالي من البحر الأبيض المتوسط، فهزموا هانيبال وبدأ مشروعهم الذي تمثل باستيلائهم على مستوطنات الفنيقيين في البحر الأبيض المتوسط وأوجدوا الأسلوب الإداري الذي به

يسيطرون على هذه الممتلكات بالتنظيم المحكم، من طرق وحواضر ومباني ومسارح وبالتالي رفاهية الرومان.

وفي جانب آخر كان اليونانيون قوم يهتمون بالبناء العقلي للإنسان، إنها حضارة التفلسف والعلم والبحث عن الحقائق وأساليب الفهم والتفكير، وعلى هدي أفكار أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم صنع الإسكندر الكبير إمبراطورية لمعت مثل البرق في معظم البلاد المعروفة آنذاك، لقد كان مشروعًا ناجحًا بامتياز، ولكن المنفذين من بعد الإسكندر الكبير لم يقوموا بعملهم خير قيام، وكذلك الشعب اليوناني لم يكن بالكثرة التي يمكنهم بها أن ينجزوا كثيرًا من الأعمال مما جعل الإمبراطورية الرومانية بإدارتهم الجيدة أن يحتووا الإمبراطورية اليونانية أيضًا.

أما الحضارة الإسلامية فقد كانت مشروعها أخلاقيًا، نابعًا من الدين الإسلامي، فالأخلاق هو خير للغالب والمغلوب على السواء، فكان المسلمون بمثابة الأب لكل الشعوب التي انتشروا بها، لقد كان مشروعًا عظيمًا ليس بفكرته فحسب، بل بالقائمين على تنفيذه، من خلفاء قادة ومفكرين وفقهاء وأئمة عظام، وامتد هذا المشروع في النماء إلى أن تم بعد أربعة قرون، كان ذلك واضحًا أن الفقه قد توقف لأنه لم يبق ما يمكن أن يقال فيه، وهنا أصبحت الحضارة الإسلامية تضمحل وتتراجع.

أما الحضارة المغولية فهي حضارة قوة، أسس لها جنكيز خان، أو هولاكو، إذ استطاع أن يجمع حوله قبائل المغول وينشئ أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، ولكن بعد أن مات جنكيز خان، لم يكن يحمل فكرة تجعل خلفاءه يتابعونها، فبدأ التراجع سريعًا كالجَزْر الذي يتبع المدّ، وكانت أولى الهزائم هي معركة عين جالوت بقيادة قطز، ومن الصعب متابعة تراجع هذه الإمبراطورية السريع في الصين وأوروبا وبلاد أخرى.

أما عن تراجع الحضارة الإسلامية، الذي بدأ إثر توقف الفقه عند أقوال الأئمة الأربع، الذين استطاعوا أن يبحثوا بكل قضية صغيرة ومجهرية في الحياة الإنسانية، وأصبح ما بعدهم يعيدون إنتاج أفكارهم، وكانوا في هذه المرحلة بحاجة لمفكرين يوقفون عوامل الانهيار، ولكن بما أن الفلاسفة والمفكرين كانوا من الذين لا يسمع لهم، لأنهم لا يسيرون مع الركب، فقد واصلت الحضارة الإسلامية طريق الانحدار.

وبجانب هذا الإرث الروحي الفقهي الكبير الذي توقف، فقد توقف أيضًا ما كان قد تم تأسيسه من حياة علمية مادية، من قبل العلماء والفلاسفة والمفكرين لتحسين الحياة المعيشية بجانب الحياة الروحية، وهي القائمة الأخرى التي يجب أن تقف عليها كل حضارة، ومن يطّلع على ما قدمه العلماء العرب والمسلمون في الجانب الفكري والعلمي، يجد أنهم بنوا مشروعًا رائدًا، ويملك الخصوبة التي تمده بالحياة والنمو والتقدم، ولقد تم وأده الانجاز بعد الحروب الصليبية بسبب ما تلاها من خراب، أنهك المجتمعات، بالإضافة للحكام الجهلة من الأيوبيين المماليك والأتراك، ونضيف إليهم الفقهاء الذين قللوا من شأن العلوم الطبيعية ولم يشجعوا عليها لأنهم لا علم لهم بها ولا خبرة.

إن ما نتغنى به اليوم ونقول إن الغرب قد أخذ هذه العلوم العربية من الحضارة الإسلامية وبنى عليها حضارته الحديثة، نقول هذا تقليل من شأن الحضارة الحديثة وتعظيمًا لتاريخنا، ولكن لماذا لم نتساءل عن جدوى قتلنا للعلوم الطبيعية من أجل العلوم الدينية؟ لماذا تعاملنا مع العلم العقلي كما يتعامل الفلاح مع الأعشاب الضارة في حقله؟ لماذا قام العلماء الأوروبيون بالبناء فوق المداميك التي بناها العرب والمسلمون؟ في وقت نحن عزفنا فيه عن الجانب المادي في الحياة لحساب الجانب الروحي؟ لماذا أطنبنا في تخيل ما في الجنة من نعيم، وما في جهنم من أهوال وما في القبر من عذاب؟ ولم نستطع أن نطور النار الرومية -كما سُميَتْ - حيث استعملوا البارود الذي تعلموا صناعته من الصين في الحروب الصليبية كقذائف نارية في المعارك البحرية، ليطورها الأوروبيون فيما بعد إلى مدافع وصواريخ، واستعملها بعد حين سليمان القانوني في هزيمة المماليك في مرج دابق.

نقول هذا لكي نعلي الصوت في وجه السلفيين والإسلاميين والشيوعيين والقوميين والطائفيين وكل من له طموح نحو بناء حضارة ننتمي إليها، إن الحضارة الحديثة هي حضارة علم، بغض النظر عمن يسميها حضارة مادية، وإن كل الأمم التي تقدمت لم تتقدم، لا بالدين المسيحي ولا اليهودي ولا بالبوذية أو الهندوسية أو الطاوية أو الشيوعية أو الاشتراكية، إنما تقدمت بالعلم وبالعلم فقط.

وننادي كل العاملين في مجال الإسلام السياسي بالرجوع عن المناداة بالبدء من حيث توقف الحكم الراشدي، أو المناداة بأن نبتدئ من النقطة التي توقف عندها ابن الهيثم وجابر بن حيان والبيروني والخوارزمي ابن سيناء وابن خلدون وابن رشد، ذلك أن الزمن قد تجاوز تلك النقطة.

أرجو أن لا يفهم أحد كلامي بحرفيته الظاهرية، فقد سبق أن بنى الغربيون على أفكار علمائنا العلمية ولا مجال لذلك الآن، فالعلم تراكمي، فإن أردت أن تبني فعليك أن تصعد القمة وتبني فوقها مدماكك الجديد، قبل أن تُسبَقَ لذلك، ولأن هذا مستحيل، فلا بد أولًا من بناء العقلية العلمية والتفكير العلمي، وترك الشعارات التي لا معنى لها، والتوقف عن وعظ الناس على أنهم بحاجة إلى الإسلام الصحيح، والتزلف إلى العامة من الناس، لكسب تأييدهم، فالعامة لا يفقهون إلا بقدر عقولهم البسيطة.

5 - متلازمة التفكير والتغيير

عطفًا على المقال السابق الذي تحدثنا به عن الحضارات كمشروع تقوم به الأمة، وبيَّنا أن الحضارة تنتهي حينما ينتهي هذا المشروع، أو حينما لا يكون هناك مزيد من التقدم، ولقد اعتمدنا فيه على الاستشهاد بما هو معروف للجميع عن الحضارات التي سادت ثم بادت، وأوضحنا أيضا أن عمر الحضارة يكون مرتبطًا بزخم المشروع وقدرته على الامتداد عبر الزمن، وأسهبنا بتفصيل موجز عن حضارتنا الإسلامية بأنها انتهت حينما توقف الفقهاء والمفكرون والعلماء والأدباء وكل المبدعين عن إثراء مواضيعهم بأي جديد ، بمعنى أخر لم يعودوا ذوو بصيرة يرون بها المستقبل، فتوقفنا عند القرن الرابع الهجري واعتبرنا أن هذا قانونًا يمكن تعميمه على كل الحضارات في الماضي والحاضر والمستقبل.

وفي هذا المقال سنحاول أن نفلسف هذه الظاهرة، فالزمن الذي اعتبره أينشتين بعدًا رابعًا للمادة، فإنه في الحقيقة هناك علاقة جدلية ما بين الزمن ومتغيرات المادة، فكما قال أحد الفلاسفة (إنك لا تستطيع أن تنظر إلى النهر مرتين) فما بين إغماضة عين وفتحها هناك تغيرات تطرأت على النهر، ولن يكون كما كان قبل ثانية واحدة، إن كل شيء يتغير باستمرار، وهذا ما يجعلنا نحس بالزمن، وقد عرّف أحد الفلاسفة الزمن بأنه عدد الحركة.

إذن وبكل بساطة نقول إننا محكومون بالتغيير على مدى الأزمان السابقة وعلى الأزمان اللاحقة، وإن عدم شعورنا بالتغيير لا يعني عدم وجوده، لكنه دليل على عدم وجود بصيرة، وبداية السير نحو الهاوية.

إن إدراكنا للتطور والتغير في عالمنا الذي يحيط بنا - ضاق هذا العالم أم اتسع - هو بدء البحث عن سبل التعايش مع المتغيرات، وهذا التعايش لا يكون فطريًا إنما نابع من الوعي الإنساني بالعالم، وبالتالي التفكير به، وفهمنا بوجود تغيير مستمر ومرتبط بالزمن، يجعلنا ملزمين بالتكيف مع هذا التغيير، فلو انتقل شخص يعيش في غابات الأمازون إلى الصحراء الكبرى فإنه لن يعيش حياته الأولى، إذ يصبح أمام احتمالين، إما أن يغير أساليب حياته أو الفناء، وكذلك لو حكم على بدوي في الصحراء بالنفي إلى سيبيريا سيكون محكومًا بتغيير كل مفاهيمه وسلوكه وتصرفاته أيضًا.

إذن فإن التغيير ضرورة لا محيص عنها إلا الفناء، والإنسان بما هو إنسان قادر على أن يتكيف مع المتغيرات، بما يبقي على حياته وديمومته، بعكس الحيوانات أو النباتات التي لا تملك القدرة عل التعايش في غير بيئتها الأصلية فينتهي بها الأمر إلى الانقراض.

الأفكار ليست موجودة في الطبيعة، ولا ينزّلها الله على أحد، إنما يكتشفها الإنسان بعقله وإدراكه الذي وهبه الله له، بالطبع ليس لكل إنسان القدرة الكافية لاكتشاف قوانين الطبيعة أو فهمها، وبالتالي التعامل معها، ولكن هناك فئة من المجتمع قادرة على ذلك، وهي المنوط بها التفكير، وعلى الباقي من الناس عملية التأقلم الجديد حسب ما يراه هؤلاء المفكرون.

والتغيرات ليست دائمًا من صنع الطبيعة، بل من صنع الإنسان أيضًا، فالاختراعات والاكتشافات والتعليم والحروب وكل نشاط إنساني يحدث تغيرات جديدة، فاختراع الورق والبارود والطباعة والاكتشافات الجغرافية واكتشاف البترول واختراع المحركات البخارية وتوليد الكهرباء، آخرها الهاتف الخليوي والإنترنت، إن هذه تغييرات أدت إلى تغييرات أخرى في حياة الإنسان، بالتالي أدت إلى أفكار لمخترعات جديدة أخرى، وهكذا دواليك، فأصبحنا في هذا العصر نعيش تسارعًا غير مسبوق، يوجب علينا تسارعًا غير مسبوق أيضًا، بالتوافق مع هذه التكنولوجيا المتسارعة.

إن التغيرات التي كانت تبدو ضئيلة في بلادنا من قبل قرن من الزمن خلقت مفهوم الثبات في أذهان كثير من الناس، ومفهوم الثبات هذا دفع بالفكر السلفي لدينا إلى الانتشار، وأصبح جائزًا بل ممكنًا أن نعيش الحياة الماضية بتفصيلاتها، ومن هنا نشأت التوجهات الأصولية والسلفية، كإفراز طبيعي للجهل والانغلاق على الذات وعدم القدرة على الوعي الصحيح بالواقع العالمي الجديد، لذلك انتشرت هذه التيارات عند العامة من الناس الذين لا ينظرون لا إلى الخلف ولا إلى الأمام.

ولنضرب مثلًا بالتغييرات التي اتسمت بها الحضارة الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إنها تغيرات كانت وليدة الاكتشافات التي بدأها كلومبس، إذ انبتت في أذهانهم فكرة أن كل المساحات الجغرافية الجديدة في العالم الجديد والقديم، يمكن السيطرة عليها وامتلاكها بما فيها من بشر، باسم التعمير والإصلاح، ولقد قامت الأفكار الاستعمارية على مفاهيم ومبادئ تم التنظير لها من قبل مفكرين وفلاسفة جعلوا البشر طبقات، أعلاها العنصر

الأوروبي، وخاصة الجرماني، ولكن حينما بَطُلَ ذاك الادعاء، ما عادت بريطانيا دولة لا تغيب عنها الشمس، لم تستطع أن تحتوي المتغيرات بعد الحرب العالمية الثانية، لذلك فقد انتهى المشروع الاستعماري وانتهت معه إمبراطورية بريطانيا العظمى، لترثها أمريكا، التي فكرت بأسلوب آخر غير القواعد العسكرية، إذ راحت تسيطر على الدول بعملاء لها ليسوا أكثر من موظفين في وزارة الخارجية الأمريكية، ولكن بأسماء فخامة وسيادة وجلالة وسمو.

وفي رأيي أو رؤيتي أن الربيع العربي هو إيذان بانتهاء عصر الإمبريالية الأمريكية، ولأن الزعماء العرب وغير العرب من الذين جثموا على دولهم بمباركة أمريكية، لم يستطيعوا أن يدركوا التحولات التي تحدث في مجتمعهم، لذلك مادت بهم الأرض وسقطوا، وأعتقد أنها ستكون ملهمة لكثير من بلدان العالم التي تعاني مثلما نعاني من مرحلة الإمبريالية.

أما ما وجدناه في المعسكر الشرقي في الصين ومجموعة الاتحاد السوفيتي وغيرها من دول المنظومة الاشتراكية، من توقف عن ترديد الأدبيات الشيوعية والاشتراكية، بل ذهبت إلى نبذ الكثير من المبادئ التي طالما تغنوا بها، وقاموا بالتحول إلى ما يسمى باقتصاديات السوق، لأنها وجدت أن الرأسمالية قد طورت نفسها وفوتت الفرصة على انتشار الفكر الشيوعي، ولم نجد من المنظرين والمفكرين الشيوعيين من يواجه بفكره هذا التغير في سلوك الرأسمالية، وهنا أصبحت الأيديولوجية الشيوعية غير قادرة على إيجاد أفكار جديدة، بمعنى أن الفكر الشيوعي قد أصبح عقيمًا وانهار الاتحاد السوفيتي، لذلك وجدنا أن الدول الشيوعية ما عادت شيوعية؛ لم يبق سوى كوبا وكوريا الشمالية التي ما زالت تكابر معتمدة على نظامها الدكتاتوري القاسي.

واعتمادًا على هذا العرض نستنتج ما يلي:

1- إن العلاقة بين التغيير والتفكير هي علاقة جدلية، فكل تغيير يجب أن يدفع إلى التفكير، وكل تفكير يجب أن يدفع إلى التغيير، كما هي حركة القدمين تمامًا، وإذا ما حدث تغيير ولم يثر التفكير فهي الكارثة، وإذا كان هناك تفكيرٌ لا يدفع للتغيير فهو الانحطاط.

2- بما أننا نحن العرب والمسلمين لا نملك تصورًا واضحًا ولا فكرًا معاصرًا فإن الدعوة إلى أي مشروع حضاري أو سياسي سيكون وهمًا بالضرورة، واعتذر

للمفكرين الكثر الذين يحاولون هنا وهناك لتقديم مفهوم حضاري جديد، وأظن جهدهم ما زال راقدًا في كتبهم.

3- سيغدو من العبث الدعوة لإحياء الدولة الإسلامية التي توقفت من عشرة قرون، ذلك أنها صدئت وما عاد لها قطع غيار، ودليلنا على ذلك أن موسيليني لم يستطع أن يعيد الإمبراطورية الرومانية إلى الوجود ثانية، وكانت محاولته كارثة تحملها الشعبان الإيطالي والليبي.

4- إن بناء مشروع حضاري جديد لا يمكن أن يكون من خلال جلسة هادئة تدفع إلى التركيز الفكري، إنما وفق أفكار نابعة من وعي موسع يشمل كل شيء في العالم، واكتشاف السبيل البكر الذي يمكن لنا أن نسلكه بتفرد نحو المستقبل.

5- عدم الاعتماد في أي مشروع على الطبقة العامة، فهي لا تمتلك التصور اللازم ولا القدرة على الفعل، إنما هي ذات تحرك غوغائي أو عشوائي غير فعال، بل يجب الاعتماد على النخبة القادرة على الفهم والتخطيط والتنفيذ ومعالجة المستجدات والظروف الطارئة.

6- إن الحكومات العربية التي تهمش المفكرين، وتتلف التعليم، وتتعامل مع الثقافة كعمل رفاهي، ومع المثقف كشخص مريب، إنما تقوم بسمل عينيها بنفسها، وترك القيادة للمهوسين التكفيريين والإسلام السياسي.

6 - الحلم المشروع بدولة الإسلام

لا بأس بالحلم الذي يخلق لنا أملًا لامعًا في البعد، يسدد وجهتنا إلى مقصده المنشود، ومن لا يحلم فإنه لا بد أعمى لا يملك بصيرة يراها بعين عقله، والحلم هو حالة فردية يمتلكها الفرد وتمتلكه، يكون فيها الفرد كإبرة المغناطيس ووجهته إلى قطب ما، وحينما تكون آلاف الإبر المغناطيسية في اتجاه واحد، فإننا نجزم أن هذا الاتجاه جاذب قوي، استطاع أن يستقطب هذا الكم الهائل.

ونحن نعيش منذ فترة حلمًا واحدًا يمارسه عشرات الملايين من العرب، هو إقامة الدولة الإسلامية، لكن هذا لا يدل أن الحلم المشترك للجميع الغفير بالضرورة حلم ممكن، وعلينا أن نقوم بفحص الحلم، هل سيجلب لنا في حال تحققه الأمن والعدل والعيش الكريم، إن هذا الحلم بقدر ما هو واسع الانتشار، هل هو قادر على تحقيق طموحات هؤلاء الحالمين؟ ذلك مهما كان هذا الحلم ضرورة واجبة الحدوث، فإنه يجب أن يمتلك شروط التحقق، كما هو أي مشروع حياتي.

لذلك فإننا لكي لا نمعن في الأمل، ويقتلنا الانتظار، وينهكنا الدوران في حلقة مفرغة، علينا أن نبحث بكل عقلانية وتبصر، في جميع ما نحمله من عواطف وأفكار وآمال وبكل تجرد وإخلاص، دون التعصب لمواقف تروق لنا، أو لمبادئ تعلمناها من أناس نجلهم ونحترمهم.

إن المشكلة الكبرى التي تواجهنا في هذا البحث هو التداخل المتشابك، بين ما هو ديني وبين ما هو عقلي وحياتي، لذلك كان علي أن أميز أولًا بين ما هو ديني أي ما ورد نصًا في القرآن الكريم والسنة النبوية، وبين ما هو فكر ديني قدمه الصحابة والتابعون والأئمة والفقهاء والعلماء والشيوخ والدعاة والوعاظ والدارسون وأساتذة الجامعات، فأقوال هؤلاء جميعًا هي أقوال قابلة للمناقشة.

وأعتقد أني في قولي هذا قد فتحت الباب واسعًا بأكثر مما هو ضيق، فنحن لم نتعود ثقافة الحوار، واحترام الرأي الآخر، وأننا نسمع ونقتنع من الذين نحبهم أكثر من أولئك المتخصصين، ومن ناحية أخرى مازال هناك من يقول لا تفكر، فالعقل يقود إلى الزلل، إنما اتبع تعليمات السلف الصالح، فلو كانت الأمور تؤخذ بالعقل لما تيممنا بالتراب.

7 - هل لدينا وقت للحلم ؟

الحلم كما هو أي عمل ذهني يمتد في وقت محدود ، يجب أن لا يقصر حتى يصبح حلمًا مسلوقًا غير مكتمل الأركان، أو يطول عن الحد المقرر له، فيغدوا هلوسات مخبول ليس لها إلا استمراء التمطي في الكسل الباذخ.

إن الوقت الذي أضعناه في حلم الدولة الإسلامية، استهلك منا وقتًا ثمينًا ، في انتظار مجيء اليوم الذي سيتحقق به هذا الحلم ، بمعنى أننا وقفنا وقوفًا غير مبرر ونحن نرى كل الدول والشعوب تتسابق للوصول إلى المراكز المتقدمة في الحضارة الحديثة، إن وقوفنا يعني أننا نتأخر باستمرار مع تقدم الشعوب الأخرى، من هنا نستطيع أن نقول أنه قد أصبح من العبث الجنوني المهلك، استمرار العزف على أفكار لم نضعها على طاولة التشريح لنستبين إن كانت صالحة أو مفيدة أو قابلة للتنفيذ ، إن الخلافة كما هي في أذهان العامة، ليست وصفة ترياق لجميع العلل، كما يظنون ويروجون، وإنها ليست ملاذ الخائفين والجائعين والمتعبين، فالذين سيقيمون هذه الدولة ليسوا أنبياء أطهارًا، وأنهم على نهج أبي بكر والعمرين، ونسخة أصلية عنهما ، فكيف نضمن نزاهتهم وعدلهم وإبداعاتهم في السياسة، فهم ككل البشر وإن ادعوا أنهم رجال مبدأ فلسوف تطغيهم السلطة والمال والبطانة المنافقة واستمراء الحكم ولذة التبجيل.

ولسوف نأخذ الأمور التالية كبديهيات أولية، وكعناوين لموضوعات نبحر فيها إلى تفصيلات واسعة وعميقة ومنها ما يلي:

1- لا يوجد نص قرآني صريح بإقامة الخلافة، فالله الذي قال (لا جناح عليكم أن تأكلوا في بيوت عماتكم وخالاتكم) بصريح العبارة ألا يكون من الأولى أن يكون واضحًا بأمر جلل مثل نظام الخلافة والسياسة؟

2- أن رسول الله لم يكن حاكمًا ، ولا ينبغي له أن يكون، فرسالته تسمو به فوق السلطة السياسية، فقد كان مواطنًا مرموقًا ، له رأيه النافذ ، جهده أن يبني جماعة متماسكة تحمل عقيدة الإسلام ، وكل أفعاله التي كانت تبدو سياسية كبعض التنظيمات وشن الحرب الدفاعية والهجومية ما كانت إلا من هذا المنطق ووفق هذا المفهوم.

3- إن نظام الخلافة مهما كانت شرعيته، لم يكن في يوم من الأيام سمنًا وعسلًا، بل هو حكم يقوم على الاستبداد وعدم الأخذ بالرأي الآخر، أدى إلى تفتت الدولة الإسلامية إلى عشرات بل مئات الدويلات الصغيرة.

4- الكتب النادرة التي تكلمت عن السياسة كانت اجتهادات مشكورة لأصحابها، ولكنها لم تصل إلى مسامع الخلفاء، ولم تصبح سياسة للخلافة، لأن الخلفاء هم أصحاب الرأي، ومن الغريب أن تصبح آراءهم الاجتهادية في أيامنا هذه هي قواعد الحكم الإسلامي.

5- يستطيع أي شخص أن يحلم بما يشاء، وهذا فعل مشروع، لكن تنفيذ هذا الحلم سيكون مشروطًا بالواقع الذي يعيش به زمنيًا ومكانيًا، وكذلك الحلم بدولة الخلافة حلم مشروع، ولكن هل الواقع الحالي من التوازنات الدولية وحكام الدول غنيها وفقيرها تسمح بذلك؟!

6- ومن هو موقن أن الأمر سيحصل بإذن الله أن يكف عن شرح حلمه لنا، بل يشرح لنا ما يمكن فعله لنصل إلى حلمه الذي يسعى إليه.

7- أرجو من كل الذين يحملون هذا الحلم أكانوا مخلصين أطهار، أو ذوي مآرب، أن يفكروا انطلاقا من الواقع لا انطلاقًا من واقع لن يتكرر، وان لا يزيغوا أفكار الأجيال الناشئة نحو الاتجاه المسدود، كفوا عن هذا فأنتم مسئولون أمام الله تعالى فسبحانه يقول (قل هل أخبركم بالأخسرين أعمالًا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا).

8- هذه الأفكار التي أبديتها هنا، وسوف أبسطها موسعة، كانت في ذهني قبل ظهور القاعدة وجبهة النصرة وداعش وغيرها من مسميات التنظيمات التي ترى أنها ستحقق للمسلمين دولتهم الإسلامية المأمولة، لكن هذه الفوضى والتصرفات الإجرامية والتناحر بين هذه التنظيمات، لا يدل على أن فكرة الدولة الإسلامية واضحة أو مدروسة بالشكل الصحيح، كيف نستطيع أن نقول أن دولة الإخوان المسلمين الإسلامية أفضل من دولة الخلافة عند حزب التحرير، أو عند داعش أو القاعدة أو أنصار الله، فلا يوجد مرجعية متفق عليها لنقول لهذا أصبت ولذاك أخطأت.

8- أثر الإسلام السياسي في الثقافة المجتمعية

إن أكثر الحوافز التي دفعتني إلى اقتحام هذه اللجة من الأفكار والمعتقدات التي أصبحت طامة كبرى، يعتنقها كل العامة لدرجة أنك لا تستطيع أن تبدي رأيًا، وإلا سترمى بسباب العلمانية والزندقة، فكيف لك أن تقوى على احتواء هذا الفيض المتدفق الخانق؟

الثقافة السائدة هي مجموع الخبرات المكتسبة والعادات والأعراف والمعارف وأنماط السلوك والمصطلحات وأساليب التعبير والعقائد والرؤية العامة للغالبية العظمى من الناس، وهذه الأشياء وغيرها التي يمارسها شعب ما، ليست وليدة ساعة ولا صنيعة شخص أو مؤثر واحد، ذلك أن هناك تفاعلًا دائمًا بين المستجدات وبين ما هو موروث وما يخرج ويفقد تأثيره، وبناءً عليه فلا نستطيع أن نتكلم عن ثبات ثقافة معينة، فهي دومًا في تحول مستمر، ولكن يمكننا أن نشير إلى أثر بعض العوامل.

وفي مجتمعنا العربي هناك عاملان طارئان، أثّرا على الثقافة هما: الدولة متمثلة بوسائل إعلامها، والتيار الديني النشط من تحت الطاولة.

الدولة ينحصر معظم جهدها في توجيه الناس لتقديس الحاكم ونظام الحكم، وترسيخ قيم اللهو وقشور الحضارة الغربية، وبالطبع فإن مدى تقديس الشعوب العربية للحاكم ونظام الحكم، ظهر جليًا في الربيع العربي، الذي لم يكتف بإبداء كره الحكام وأنظمتهم الفاسدة، بل ابتدرهم بالسلاح والتمرد، ولم يلق من أحد منهم نصيرًا شعبيًا يذكر.

أما الجانب الأكبر من التكوين الثقافي، فقد وجدناه قادمًا من التيارات الإسلامية، أكانت سلفية أو دعوية أو إسلام سياسي، وأظن هذا راجع إلى التمويل الذي يدفع لتلك الجماعات، تحت أسماء مشاريع دعوية مثل تحفيظ القرآن أو المحافظة على القرآن، ومجموعات الدعاة الذين يجوبون الحارات ويدقون الأبواب ليعلموا الناس الإسلام من جديد، ولقد أفرز هذا النشاط التأثيرات التالية:

1- لا يقومون بإثراء ذاكرة المسلمين إنما إعادة مذاكرة لما يعرفه المستمع، بل يوردون كل رواية غريبة وملفقة في الترغيب والترهيب كأنهم يوسعون بها دائرة فهم الإسلام، ونرى استحسان الناس واضحًا في قولهم (والله بيحكي

صحيح) ما يدل على أن له معرفة بما قال، بما يشبه طلب الأطفال من جداتهم أن يقصوا عليهم حكاية بعينها، إنهم يعرفون القصة ويريد سماعها من جديد، ولا جديد.

2- تقسيم البشر إلى مسلمين وكفار، بمعنى أن باب العداء أصبح مفتوحًا على كل شعوب الأرض، ومفتوحًا على تكفير المسلمين ومفتوحًا على الاقتتال لأي خلاف أو اختلاف ديني، وقتل الكفار أقل جهدًا من محاورتهم.

3- التركيز على المظهريات المجتمعية السعودية التي تبنت دعم الدعوة، وهذا ما نراه في لباس المرأة القائم على الاعتقاد أن كل شيء في المرأة هو عورة، ولباس الدشداشة القصيرة وإطلاق اللحية بلا تشذيب، ولبس الشماغ الأحمر بدون عقال كما أهل نجد، اعتقادًا أن كل تصرفات المجتمع السعودي نابعة من الإسلام، من مبدأ الإيمان أن الرسول ﷺ كان منهم وبينهم، ولعل أعظم إنجاز حققته هذه الظاهرة هو إعادة ارتداء النساء للحجاب والخمار.

4- ترسيخ مبدأ أن كل الرجال من المنحطين أخلاقيًا وكذلك النساء، وأن دوافع أفعالهم نابعة من الجنس كما تقول نظريات فرويد، لذلك يجب الفصل بينهما، فوجدنا أن الأخ لا يجب أن يرى زوجة أخيه وأن لا يعرف الرجل شقيقة زوجته.

5- انتشار ثقافة اسأل الشيخ، وكأن الناس قد فقدت القدرة على التفكير وعلى القراءة وتدبير أمورها، بدون الاعتماد على عبقرية الشيوخ الذين حازوا العلوم جميعها، ولكم أن تروا سخف القضايا في الفضائيات والإذاعات والدروس الدينية التي تبث كبرامج ثابتة ابتداء من فضائية الجزيرة وحتى أصغر قناة، أو القنوات الدينية المتخصصة.

6- انحسار الفئة المثقفة والمبدعة، وكساد الإنتاج الأدبي والفني والفكري مقابل انتشار الأشرطة والأقراص المدمجة التي يتكلم بها من شاء بما شاء، في أمور الدين والدعوة، وتوزع بسعر زهيد، بدون أية مراقبة أو تدقيق في المعلومات أو مدى تأثيراتها السيئة على عقول الناس وتوجهاتهم.

7- إن هذه الهجمة الدعوية المنطلقة على سنة الأولين وأدواتهم، جاؤوا وفي أذهانهم مجتمع بدوي جاهل، لأنهم انطلقوا من قرى صغيرة نائية ومتباعدة، تنعدم فيها الحضارة، لذلك يظنون أن العالم ما زال يقف مثلهم عند بداوته، إنها تراجيديا مضحكة، أن يعلم التلميذ أستاذه والطفل أباه، والجاهلُ المتعلمَ،

أليست هذه مفارقة كوميدية كقصة الملك الذي خرج للناس عاريًا، وهو يتيه ظنًا منه أنه يلبس ثوبًا فخمًا، والناس معجبة به.

8- أغرب ما في الأمر أن الوعي الحضاري الذي كان في الستينيات والسبعينيات، قد انكفأ تمامًا، حتى أولئك الذين كنت أعرفهم وهم من أترابي وكأنهم أصيبوا بحمى الدعاة، فقد نكصوا على أعقابهم كأنهم كانوا في سكرة وأفاقوا منها واستدركوا خطأهم وقاموا بتربية اللحى ولبس الطواقي والدشاديش القصيرة، وترنموا على قرع مسابح الدعاة كأنهم لم يسمعوا بالإسلام من قبل.

9 - نحن محكومون بالتغيير

نتكلم كثيرًا عن التغيير، خاصة حينما نكون حيال التفكير بالتخلف الحضاري والتخطيط للمستقبل، وتغيير الأوضاع السائدة السيئة للمجتمع، وربما هناك طبقة في المجتمع يقلقها التغيير، فترفع شعار الحفاظ على التقاليد والأعراف والهوية القومية أو الطائفية أو غير ذلك، وبعضهم يرى في التغيير مؤامرة استعمارية غربية تسعى لاقتلاعنا من جذورنا، ويرون الداعين إلى التغيير عملاء مأجورين للغرب.

في الحقيقة أننا محكومون بالتغيير، شئنا ذاك أم أبينا، ذلك أن كل ما في الطبيعة مخلوق، ومكون من مواد طبيعية قلقة، هي في ذاتها تتغير، لذلك فإنها في صيرورتها يتغير الجسم المكون منها، فالحديد لا يبقى حديدًا، بل يتحول مع الزمن إلى صدأ، أي هو ثاني أكسيد الحديد، وبالتالي سيغير الآلات المصنوعة من الحديد، والماء يتحول إلى بخار أو جليد، ولن نحصي التحولات الكيماوية وغيرها التي تجري فيما نلمسه في حياتنا والبيئة، وما لم نستطع الكشف عنه، وعلى الكائنات الحية وغير الحية، مما هو على الأرض وغيرها من الكواكب والأقمار والنجوم والمجرات.

والتغيير في الطبيعة لا دخل للإنسان فيه، لكنه بالتالي محكوم لهذا التغيير، وعلى مدى الحياة كانت التغيرات البيئية تؤثر على الكائنات الحية، فمن استطاع أن يتكيف مع هذا التغيير استمر بالحياة، ومن لم يستطع آل إلى الفناء، وهذا القانون عبر عنه دارون بالبقاء للأصلح.

أما التغيرات التي يجريها الإنسان بإرادة منه ووعي أو من غير إرادة أو وعي، أوجدت منظمات تحذر دومًا من الإخلال بالنظام البيئي في مجال درجة حرارة وطبقة الأوزون وثلوج القطبين، وانقراض بعض الحيوانات، والغابات المطيرة التي تنتج الأكسجين وانبعاث غازات ثاني أكسيد الكربون، كل هذه التغيرات نحن صنعناها، ونحن محكومون بها، وعلينا أن نفعل شيئًا نمنع تداعياتها السيئة.

أما التغيير الواعي الذي يمارسه الإنسان فهو نابع من رؤيته المستقبلية أو الرفاهية، فاختراع الآلات التي تساعد الإنسان في حياته وتجعله يبذل جهدًا أقل ليكسب عملًا أجود وراحة أكثر، كالمواصلات والاتصالات والأدوية

والعلاجات والتعليم وبناء المدن الكبيرة كلها تحمل الإنسان على التغيير عنوة.

وبما أننا مجبرون على التغيير، علينا أن نكون واعين بما يجب أن نفعله لكي نواكب التغيير كما يلي:

1- لا بد أن نؤمن أن التغيير هو قدرنا، وأنه لا يستأذننا، ولا يمهلنا، وليس لديه مشاعر كي يعطف علينا، وأن الزمن الذي قال عنه أينشتاين، أنه البُعد الرابع في المادة، فإنه يفعل بالمواد تغيرًا وتحويلًا بلا هوادة، وأنه يجرها منذ مليارات السنين إلى الفناء، ولا نعتقد أن الكون كما هو منذ أن خلقه الله.

2- أن نوقن أن لا ثبات موجود إلا في ذهن الأغبياء، وأن الجماعات التي تريد أن تعيد الناس لألف سنة مضت وتثبتنا هناك، هو أمر ضد سنن الطبيعة.

3- إن المجتمعات في صيرورتها بحاجة في كل مرحلة إلى أفكار جديدة تجعل من التكيف مع المتغيرات ممكنًا، وعدم وجود مثل هذه الأفكار يعني فناء الإنسانية، ولا ينفع معها استعمال الأفكار القديمة.

4- أن نعلم أن هناك تغييرًا يفرض نفسه علينا كالتغيرات البيئية، أو الأحداث القدرية، أو الصدفة المحضة، وعلينا أن نجعل منها حافزًا فكريًا لننجو من النتائج الكارثية أو المحتملة ونتابع مسير الحياة.

5- أما التغيير الإرادي الذي يقود إلى تغيير مستقبلي، فعلينا أن نقوم به بكل قوانا العقلية، ونحسب حسابًا للاحتمالات المفاجئة ونتوخاها، وبعكس ذلك نكون مع حثالة الأمم، ونزيح من الأذهان وجود شياطين بشرية أو أشرار يريدون تدمير الأخلاق والدين ويفككون المجتمعات وينشرون التحلل والفساد، الشرير ليس مفكرًا، الشرير يخطئ في تفكيره.

6- لا بد في حالة إيماننا بالتغيير أن نترك بعضًا مما تعودنا عليه، وبعضًا من أفكارنا ومعتقداتنا، ونمارس مرونة لا تقسو على أجسادنا، كما لو أننا نمارس التدليك والعلاج الطبيعي، ونهيئ أنفسنا لتقبل الجديد وتغيير القديم، وننبذ كل ما لا يتفق مع التغيير، كما لو أنك تنتقل من منزلك القديم إلى منزل حديث، يختلف مساحة وهندسة وموقعًا، لذلك تكون مضطرًا إلى تغيير كثير من قطع الأثاث وشراء أخرى، وتستغني عن قطع أثيرة على نفسك بثمن بخس، وسوف تترك جيرانك الذين تعودت عليهم، وتصبح لك عادات حياتية جديدة، إنها طبيعة التغيير التي لا بد منها، فلا يمكن لك أن تنعم

بالتغيير إلا إذا استغنيت عن كثير من عاداتك وممتلكاتك وأفكارك وسلوكك القديمة التي لا تصلح مع التجديد.

7- إن عواطفنا التي نسبغها على أشيائنا التي تعودنا عليها طويلًا يجب أن لا تمنعنا من قبول التغيير، ونعتبرها أفضل من الجديد، ونتمنى العودة إليها، وإن هذا تشويش على التفكير السليم، والسير في ركاب التغيير، لأنها لو كانت أفضل لظلت مستعملة، فما كان ضروريًا لحياتنا في الصحراء والقرى، من ملبس ومأكل ومشرب وعادات وسلوك وعلاقات اجتماعية، يجب أن تتغير، لتوافق التغيير الذي حصل في الانتقال من السكن في الخيام والبيوت الطينية وشظف العيش وقلة الموارد وافتقاد للحكومة التي من واجبها والتعليم والأمن والرعاية الصحية وتطبيق القانون وتقليل البطالة، ولا نتمسك بالقوانين العشائرية والمعيشة القبلية، لأنها ستحد من اندفاعنا نحو التغيير ومفهومنا للوطن والعيش الحضري.

8- قد تضطر إلى تغيير أفكارك ومعتقداتك تماشيًا لظروف تملي عليك تركها أو تغييرها، وهذا هو التغيير الأشد صعوبة على النفس في الأفراد والمجتمعات، ويعتبر المعيق الأكبر للتغيير، ولعل الصعوبة ليس متساوية في جميع مجالات التغيير ولا في كل المجتمعات وهي كما يلي:

أ- المعتقدات الدينية: وهي معتقدات وجدت لتبقى عبر العصور والأزمان، أو هكذا فهمنا بأن الدين صالح في كل زمان ومكان، لذلك فإن تغييرها سيكون مصحوبًا بمقاومة عنيفة، المشكلة أن التغيير لا يكون في المعتقدات الدينية الأساسية، بل بالأفكار التي وضعها فقهاء بناء على فهمهم لأركان الدين، وأن وجود كثير من المذاهب لهو دليل على تعدد وجهات النظر، بمعنى لا يوجد صدقًا مطلقًا، بل وجهات نظر مرحلية نابعة من الظروف الزمانية والمكانية.

ب- المعتقدات القائمة على التمايز العرقي أو الطائفي أو الديني أو القومي أو الطبقي، فهي مفاهيم ليس من السهل التبرؤ منها واستبدالها، لأنها وقرت في نفوس الأفراد قبل نمو العقل لديهم.

ت- العادات والتقاليد والأعراف والموروثات في أنماط السلوك التي تشكل خطوطًا مرسومة لحركة المجتمع، وأن محوها بسرعة يجعل من المجتمع لا ناظم له، لذا يكون التمسك بها مرتبطًا بتماسك المجتمع والحفاظ على استقلاله وهويته.

ث- التغيير نحو الأسوأ، أي الانحدار نحو بدائية الماضي، وهو أمر مؤلم جدًا، وتقبل ما لم يكن مقبولًا مسبقًا، وهو دليل على التراجع والخذلان وفقدان القدرة والقوة على التقدم والسيطرة على الظروف القاهرة، لذلك يكون التغيير إلى الخلف عنوة لا منفعة ولا متعة ترتجى منه.

[2] تفاصيل في بناء الدولة الإسلامية

1- الشيطان يكمن في التفاصيل
2- دولة إسلامية أم دولة للمسلمين؟
3- هل هي دولة إسلامية في مجتمع به مسلمون؟
4- هل قوة الدولة من قوة دينها؟
5- الدولة الإسلامية والتكنولوجيا
6- الهوية الإسلامية والهوية القومية
7- الدولة الإسلامية وبناء الحضارة
8- الحزب الشيوعي وحزب الإخوان المسلمين وما بينهما من اتفاق واختلاف

1 - الشيطان يكمن في التفاصيل

لو تجرأنا بالسؤال عن تعريف الدولة الإسلامية، لعينة عشوائية من المطالبين بقيام دولة إسلامية، سنجد استغربًا مدهشًا لبداهة هذا السؤال كأننا نقول لهم عرفوا لنا الماء، وذلك أن السواد الأعظم تلقى هذا المشروع كما يتلقى طفل وعدًا بشراء لعبة، لا يسأل عن التفاصيل، ذلك أن الشيطان يرقد في التفاصيل، وسنطرح بعض التعريفات الرائجة، ونحاول تحليلها لنصل إلى مكمن الشياطين.

2- هل هي دولة إسلامية أو دولة للمسلمين ؟

بناءً عليه فإننا نتساءل هل هي دولة واحدة لكل المسلمين في العالم؟ كما هي دولة الفاتيكان لكل المسيحيين، أم دول إسلامية متعددة حسب موقعها في خارطة العالم؟ ففي هذه الحالة نتساءل عن طبيعة العلاقة التي ستربط هذه الدول بعضها ببعض؟ هل هو اتحاد فيدرالي أم اتحاد روحي أم ماذا؟ هل لدينا مقياس نستطيع به أن نعرف أن هذه الدولة تأهلت بجدارة لتكون دولة إسلامية أم مازالت في جاهلية القرن العشرين؟ وما الفرق الذي سيكون بينها وبين الدول الحالية؟

3- هل هي دولة إسلامية في مجتمع به مسلمون؟

هنا نسأل عن نسبة المسلمين في هذه المجتمع، فهل يحق لـ10٪ أن يقيموا دولة إسلامية كما رأى سيد قطب؟ ونسأل أيضا كيف نقيس إسلامية هؤلاء المسلمين؟ فهل يحق لأي كان يدعي الإسلام أن يقيم دولة إسلامية كما أقام محمد جناح العلماني دولة باكستان؟ وكما أقام أبو بكر البغدادي خلافة داعش؟ وما رأي المواطنين من غير المسلمين في إقامة الدولة الإسلامية؟ هل سيتحولون من مواطنين إلى رعايا من أهل الذمة؟ وأي الحقوق سوف يعطونها أو سوف يحرمون منها؟ وما موقف الدول المسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية والطاوية وغيرها من هذه الإجراءات التي تنقص من قدر وحقوق من ينتمون لهذه الديانات؟ ما موقف المذاهب الإسلامية من شيعة ودروز وبهائيين وعلويين وخوارج وصابئة وغيرهم؟ هل سيعاملون ككفار أم كأهل ذمة؟ هل استقلال الشيشان عن روسيا والتركمان عن الصين ومانيمار عن بورما واجب ديني؟

وما وظيفة الدولة الإسلامية، هل هناك قيمة عليا تنشد تحقيقها، غير القيم التي تنشدها كل الدول والحضارات من قيم الحرية والعدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان، مع العلم أن الإسلاميين يرفضون الديمقراطية كمنتج غربي.

4 - هل قوة الدولة من قوة دينها؟

توارثنا في ثقافتنا الإسلامية بعض الآيات القرآنية التي نجد فيها الارتباط واضحا بين القوة المجتمعية والقوة السياسية وبين قوة الإيمان والتمسك بالإسلام، وهي (إن الله ينصر من ينصره) و(وما النصر إلا من عند الله)، وبالتالي استقر في نفوسنا أن العقيدة القوية الصادقة والصافية في النفوس هي البنية التحتية لبناء دولة إسلامية وبناء مجتمع متماسك وحضارة إنسانية راقية.

ولقد كانت هذا الفكرة هي الملهمة للإمام حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين الذين ذهبوا إلى رفع سوية الإيمان عند المسلمين، وشعارهم مقولة الإمام مالك بن أنس (لا يصلح آخر هذا الدين إلا بما صلح أوله) بمعنى أن بناء الدين في النفوس يجب أن يكون الأرضية الصالحة التي تبنى عليها كل تفاصيل الحضارة القويمة السعيدة.

ولقد شاعت هذه الفكرة بما جعل الناس يعتقدون أن الرفعة السياسية والرفاهية الاجتماعية ستتحقق بشكل حتمي لو كنّا مسلمين ومخلصين صادقين في نوايانا.

ولقد استهوى هذا المشروع قطاعًا كبيرًا من عامة الناس للمشاركة به، فوجدنا جماعات من المبشرين والداعين يجوبون الشوارع، ويخيمون في المساجد، ويدقون الأبواب، ويقومون خطباء في الحافلات العامة ومجالس العزاء والمنتديات.

إن فكرة الدعوة إلى الله التي انطلقت في أوائل الثمانينات من القرن الماضي، لم تجد معارضة شعبية إطلاقًا، وذلك بما يكنه الناس للدين ولرجالات الدين من احترام وتقدير، ولكن هؤلاء البسطاء المتحمسين لنشر الدين من الشباب والكهول الذين انطلقوا من قول رسول الله (بلغوا عني ولو آية) ذهبوا متقمصين شخصيات الصحابة رضوان الله عليهم، وفي أذهانهم أيضًا أن الناس سائرون في جهلهم كما البدو في الصحراء، وهذا العمل أشبه بالمسرحية الهزلية مما خلق ردة فعل منفرة، لأنهم لم يكونوا على مستوى علمي وثقافي وأفكار جديدة تتناسب والعصر الحديث.

وبغض النظر عن متابعة هذا المشروع، فإنها فكرة خيالية لا يمكن أن تتحقق، فلا يوجد مجتمع له نفس السوية من الاعتقاد والإيمان، فالصحابة الأبرار في عهد الرسول ﷺ لم يكونوا هم كل المسلمين، إنما كانوا فئة النخبة، أما باقي القبائل التي أسلمت لم تكن لها نفس السوية، لذلك فإن الإقرار بهذا التصور، يجعل من البدء بتمكين الدين من النفوس كشرط أولي لبناء دولة قوية ومجتمع حضاري حديث غير متفق مع العصر، ما هو إلا عمل عبثي محض.

أما وإن الذين يقومون بهذا التبليغ ليسوا من ذوي الكفاءة، فإن المسألة تصبح أكثر مأساوية، وتدل على انفصام الشخصية، إذ لا يجوز أن تفترض بنفسك القدرة والقدوة الصالحة والمعرفة الواسعة، لتهدي قومًا بلغوا من العلم والمعرفة والتدين أكثر منك، إنها تمثيلية هزلية لكنها غير مسلية.

ولنذهب إلى مناقش هذه الفكرة التي استهلكت منا جهدًا ووقتًا وفكرًا دون طائل:

1- على من يحمل هذه الفكرة محمل الجد، كمشروع لا بد منه، أن يعي تمامًا أن التاريخ لا يعيد نفسه، وأن الزمن الذي يؤثر في جسمك وتفكيرك وبيئتك، بحيث لا تستطيع أن تفعل كبيرًا ما كنت تفعله صغيرًا، وقياسًا على ذلك فإننا في هذا العصر لا يمكن أن نعيش أو نفكر أو نتصرف تصرف شعب أو أمة عاشت في زمن مضى، إن الزمن لا يسير بشكل دائري، بل بخط مستقيم لا يلوي إلى الوراء.

2- إذن فعلى الذين يعتقدون أن الدين هو عماد الدولة لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله، إنما يسيرون عكس السنن الطبيعية التي خلقها الله، ولا يمكن أن يعودوا بنا إلى المربع الأول، لأن ذلك مستحيل إلا في الخيال العلمي.

3- وأن يعلموا أن الله قد خلق المجتمعات البشرية وجعلها أفرادها طبقات بعضها فوق بعض، ابتداء من المتخلفين عقليًا إلى العباقرة، من المجرمين الأفاقين إلى المصلحين الصالحين الأطهار، من الضعفاء الذين هم عالة على المجتمع إلى الأقوياء الذين يرفعون من شأن مجتمعهم وأمتهم.

4- من هنا نجد أن التعامل مع كل الأفراد على أنهم عنصر واحد متشابه هو أمر لا يستقيم مع الواقع، لذلك فإن الذهاب إلى أن نجعل كل أفراد المجتمع

أسوياء في الفهم والتفكير وبالتالي على قدر واحد من الدين هو أمر لا يمكن أن يكون.

5- هنا يجب أن ندرك أن العودة إلى أسلمة المجتمع كافة بسوية عالية هو أمر ممتنع من الناحية الواقعية، ولا يمكن القبول به كنظرية لتفسير التاريخ، حيث اقتنعنا صغارًا بأن الدين هو الذي بنى لنا حضارة من الشرق إلى الغرب ما هو إلا قراءة ناقصة، فالدولة الأموية لم تنشأ لأن الدين عند الناس أصبح أقوى من الدين في عصر الخلفاء الراشدين، ولم تنشأ الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية لأن الديانة في الدولة العباسية كانت أقوى منها في الدولة الأموية، وهكذا لا نستطيع أن نقول أن رفع مستوى العقيدة هو السبب الرئيس في قيام الدولة أو سقوطها.

6- وعلى مدى تاريخنا لا نستطيع أن نجد شاهدًا واحدًا على أن العقيدة الصرفة كانت عملًا في رقي أمة أو انحطاطها، كما لم نستطع أن نجد في تاريخ الحضارات أن العقيدة الدينية مهما كانت، أو الأيديولوجيا التي تبنتها كانت العامل الحاسم، والذين يمكن لهم أن يستشهدوا بقيام الاتحاد السوفيتي أنه قام على العقيدة الشيوعية، نقول أن الشيوعية ليست تصورات ذهنية إنما هي مشروع اقتصادي لإدارة موارد البلاد بشكل جماعي، وتوزيع الثروة وتحقيق الكفاية لكل فرد، إنه مشروع يمكن أن يكون مصيبًا ويمكن أن تعتوره أخطاء قاتلة، ويمكن أن ينفذ بشكل صحيح ويمكن العكس أيضًا.

7- علينا أن ندرك أن جميع هذه الدول لا تقوم على عقائد مقدسة، بمعنى أنها لا تنظر إلى العالم بمنظار عقائدي جامد ومستمر، حتى الأيديولوجية الشيوعية سقطت لأنها لم تستجب لتطورات الزمن، ذلك أنها عجزت عن استيعاب التطور والتغير الذي حدث في النصف الأخير من القرن الماضي، لكن عقلية التشفي التي ناقشنا بها انهيار الاتحاد السوفيتي حجبت عنا النظرة الموضوعية واكتشاف الحقائق، وتعلم الدروس.

8- أما وقد قطعنا شوطًا خلف فكرة أغرتنا ذات زمن، لا بد لنا الآن من أن نتوقف عن السير خلفها، للخروج من هذه الوهدة التي غرقنا بها عن قصد وغير قصد، وننظر إلى حضارة عصرنا نظرة الفاحص المحايد، تاركين خلفنا كل أحكامنا المسبقة، التي استقيناها صغارًا من الكتب المدرسية وما كان يتلوه علينا الشيوخ والوعاظ بأننا كنا أسياد العالم، وندرس بتمعن وحيادية عما

جعل الأوروبيين أسياد العالم، وما تبعهم من صينيين ويابانيين وهنود وأمريكيين وغيرهم، وبقينا نحن نعالج الحلم كأنه حقيقة.

9- العمل الجاد في هذا الاتجاه يجب أن يكون قائمًا على دراسة الحاضر وليس الماضي، فالحاضر ينبئنا أنه لا يوجد في الوقت الحاضر دولة دينية أو دولة أيديولوجية وذلك للأسباب التالية:

أ- لم يعد الصراع بين الشعوب صراعًا عقائديًا، وما عاد العالم مكونًا من مؤمنين وكفار، وما الصراع الحالي إلا صراع نفوذ وهيمنة وسيطرة اقتصادية، فالرجل الاقتصادي لا يهمه دين من يشتري بضاعته ورجل الأعمال لا يهمه دين من يعمل في مصنعه أو مؤسسته.

ب- لم تعد وسائل الحروب التقليدية ذاتها كالسيف والرمح والحصان وغيرها، التي كان من الممكن توفرها والحصول عليها وخزنها في كل بيت.

ت- ومن ناحية أخرى فإن تهيئة الجنود للحرب - كما كانت قديمًا - تعتمد على مهارة اللعب بالسيف والرمح، وإن الحرب لا تحتاج إلى كثير من الإعداد، فكل المواطنين هم جنود احتياط مستعدون للحاق بالجيوش، ولكن ما نراه اليوم من معدات عسكرية هي غاية في التعقيد والتطور بحيث يكون تدريب الجنود على هذه المعدات طويلًا ومكلفًا.

ث- إن البندقية التي كانت هي العامل الأهم في حروب القرن التاسع عشر، لم تعد ذات جدوى فاعلة في خضم السباق المحموم بين الدول على اختراع أدوات وآلات حربية جديدة تحرص كل دولة على سريتها لكي تفاجئ العدو بها، ومن هنا ندرك أن الغلبة العسكرية تكون لمن يملك السلاح الحديث الذي يفاجئ الخصم ويربكه وبالتالي يلحق به الهزيمة، فسليمان القانوني انتصر باستعماله البارود على قنصوة الغوري في مرج دابق، حيث كان المماليك يحرمون استعمال البارود.

ج- إن اختراع آلات حربية جديدة أكانت حاملات طائرات أو غواصات أو أسلحة كيماوية ونووية، أو أساليب تجسس وأقمار صناعية أو تصنت على الأعداء أو بناء قواعد استراتيجية وغيرها، لا يتأتى بالتمني والدعاء إلى الله أن يرزق ملوكنا ورؤسائنا بطانة صالحة، ولكن بوجود بنية تحتية من التكنولوجيا المتطورة والتي تتزايد باستمرار.

ح- التكنولوجيا كلمة يندرج تحتها علوم من كل نوع، تتشابك وتنتج علومًا ومعرفة جديدة، يصعب على المتابع تقصيها وفهم جوهرها وأغراضها، هذه التكنولوجيا لا تنزل مع المطر إنما تنبع من مؤسسات البحث العلمي التي يصرف على ما تجريه من دراسات وأبحاث وتجارب - ليست مضمونة النتائج- مئات الملايين، وهناك مصانع تستطيع أن تنفذ عمليًا أية فكرة تريدها هذه المؤسسات، وهناك شعوب تشعر بمواطنتها وتقدر توجه حكوماتها وتساعدها في تحقيق أهداف حضارية يسعون جميعًا إلى تحقيقها.

خ- إذن فالدولة الحديثة القوية تقوم على التكنولوجيا، هذه التكنولوجيا تصنع الاقتصاد والسلاح معًا، وهذان المنتجان هما ما يجعلان الدولة قوية أو ضعيفة، وليس قوة إيمان الناس أو ضعفه، التكنولوجيا هي ثراء معرفي مفرط، يتضاعف تضاعفا هندسيًا، بمعنى الاثنان تغدوان أربعة والأربعة ثمانية والثمانية ستة عشر وهكذا، فأي دولة سنقيمها ونحن لم نبدأ بعد؟ وأي دولة هذه التي سنقيمها اعتمادًا على العقيدة الدينية فقط.

5 - الدولة الإسلامية والتكنولوجيا

كل الذين يتكلمون عن الدولة الإسلامية يركزون مبتغاهم في دولة لا ظلم فيها ولا استبداد، بل مساواة مطلقة بين كافة الناس، يؤخذ بالمسيء ويشد على يد المحسن، إنها أمنيات شعوبنا الذي ابتليت بأنظمة حكم أسوأ من حكم الاستعمار بل أسوأ من تصوراتهم المبالغ بها في الظلم، إذن إنهم كبشر يطلبون مطالب إنسانية مشروعة كي تسير الحياة كما اختطها الله لبني البشر.

إنها مطالب طبيعية لا غبار عليها كما هي مطلب الغذاء، حينما تدفعنا الحاجة الملحة في يوم حافل بالعمل لمائدة فاخرة تُشبع البطون، نتخيلها فخمة ونبدأ بالإعداد لها فنحصي عددنا وما معنا من فلوس، وما يمكن أن نحصل عليه من أوليات الغذاء المتوافرة، كما نتدبر أمر الطهو وأوعية الأكل والماء والملح وغيرها، نحن نفكر بكل هذا التفكر حينما نكون إزاء مائدة نأكلها، فما بالك ونحن أمام مشروع دولة؟

أنا موقن أن جميع المؤملين بدولة إسلامية يحلمون بنظام يفيض عليهم بركة وثراء وأمنا وقوة، لكنهم لا يفكرون في الطريق إلى هذه الدولة التي لم يخلق مثلها في البلاد، كما لو أنهم يفكرون فيما سيأكلونه على العشاء، إنهم يرجعون إلى حالة الطفولة التي ترى كل مطلب لهم سهل الحصول عليه، وأن آباءهم قادرون بلا شك على تلبية ذلك، ويمضون بتصور دولة لا تكون أكثر من بلدة صغيرة، أهلها مزارعون أو تجار أو حرفيون، يدفعون الزكاة لتسد أود الضعفاء والمحتاجين، الحاكم قريب منهم يتفقد نومهم ليلًا، يعرف الصواب من الخطأ بشكل بارع، فيردع المخطئ ويثيب المحسن، ينفذ شرع الله في الزواج والطلاق والإرث والحدود فيقطع الأيادي ويجلد ويرجم ويعزر ويقطع الرؤوس، يعمل وفق برنامج مسبق كأنه روبوت، إنها مهمة وما أسهلها من مهمة، يستطيع أن يقوم بها أي شخص، وعلينا أن ننتخب الأكثر تقوى، أما طالب الإمارة فإنه لا يؤمر، وليس من مهماته التنمية والصحة والتعليم وإيجاد فرص العمل، بل هو متكفل بإقامة الدين وتوزيع الزكاة ومحاربة الكفار ونشر الإسلام.

إنها الكوميديا السوداء المرة، التي يمارسها أصحاب العصاب النفسي حينما يخرجون من واقعهم التعيس الذي سقطوا به، ليعيشوا واقعًا يتمنونه، فيتصرفون بالشخصية التي يتمنونها، كأن يتقمصوا شخصية أصحاب شركات أو مايسترو في أوركسترا أو مفكرين عظماء أو أميرالات بوارج حربية، وغيرها مما شاءت لهم الأحلام، إنك حينما تراه سائرًا في الشارع تعلم حالًا أنه مصاب، وأنك ترثي لحاله أيما رثاء، وتعوذ بالله أن يبتليك بمثل هذا الداء، وإن كان لمثل هؤلاء المرضى أطباء وعيادات تعالجهم، وأهلون يرعونهم ويصبرون على وعد الله، فأين لنا بالمصحات التي تتسع لمثل هذا الكم من مصابي الفصام أو الشيزوفرينيا، الذين يعيشون في زمنين ومكانين بينهما ألف عام وأكثر؟

وليعلم الذين يعتقدون أني أستهزئ بهذا الواقع أن يعلم أن المرارة تعتصرني حتى الموت، وأنا أرى هذا الوهم مسيطرًا على أكثر من نصف المجتمع، وأنه مضيعة للوقت الثمين وتبديد لطاقة الفكر، في انتظار هذه الدولة التي ستأتي على طبق.

ولكي أكون واضحًا وعقلانيًا أقول لمن يهمهم أمر بناء دولة إسلامية ما يلي:

1- الدولة مرتبطة بكينونة خاصة بالمكان والزمان، فدولة بترولية مثل الكويت أو قطر أو السعودية هي دول نفطية يقتضي من حكامها إدارة الدولة بما يأتيها من ريع البترول وهو ما لا يصلح لدولة مثل موريتانيا أو الأردن ولبنان وفلسطين.

2- عامل البترول هذا، واحد من عدة عوامل توجب اختلاف الحكومات والسياسات عن بعضها، أي لا تساق كل المجتمعات بعصا واحدة، فكيف تعامل المساحة والموقع الجغرافي ومستوى التعليم عند السكان، والبيئة الصحراوية أو الجبلية، ويأتي الدين أحد هذه العوامل، وليس هو العامل الأول والوحيد.

3- الدولة لا يصنعها فكر أو دين أو عقيدة إنما الواقع والظروف المحيطة، ولكن يصنعها شخص يعي هذه الظروف ويعرف كيف يستفيد منها، ولو كانت إقامة الدول وهدمها مرهونة بإرادة أفراد لأصبح العالم "شوربة".

4- الدين الإسلامي بما هو ديانة لم يكن يومًا هو العامل الأساس لقيام دولة عربية إسلامية، إنما هو التصور الذي جاء به للحياة والكون والإنسان، وملأ به روع العرب من شتى قبائلهم وأعراقهم، فأعطاهم نفس الرؤية للحياة والمستقبل، ونفس السلوك ونفس التفكير، وهكذا توحدت رؤيتهم وتوحدت

جهودهم ومسيرتهم للمستقبل، لذلك لم يقم بينهم خلافات واسعة أدت إلى انشقاقات وتفسخات، الخلافة العظيمة التي امتدت متماسكة قرابة قرنين من الزمان.

5- وحينما بدأت الرؤى المختلفة تتعمق و تتسع بفروق عميقة، مثل السنة والشيعة والخوارج والرافضة وغيرهم، وانشقاقات داخلية في هذه الفرق أصبحت الدولة الإسلامية تتشظى وتتفتت، بينما الدين بقي ثابتًا، لكنه لم يحفظ وحدة المسلمين.

6- إذن فالدين قديمًا لم يكن عاملًا أساسيًا في بناء الدولة، فكيف بهذا العصر الذي ما عاد يهتم بالعقائد بل بالتكنولوجيا، إن علوم التكنولوجيا بفروعها المتشعبة، هي التي تحرك الصناعة والزراعة والتجارة، وبالتالي تبنى قوة الدولة، يكفي صناعة هاتف محمول واحد لأن يجعل من الاقتصاد عظيمًا، واكتشاف حبة دواء واحدة يدر على الدولة 40 مليارًا من الدولارات (كما قال أحمد زويل) فما بالك بصناعة الأسلحة وصناعة المركبات والسفن والطائرات، وإنتاج القمح والمواد الغذائية؟

ففي حرب أمريكا على العراق قامت أمريكا بتعطيل كل أسلحة العراق الصاروخية والجوية بواسطة شريحة مخبأة سرًا بالمعدات الحربية، تستجيب لأمر يصدر من البنتاغون، لتغدوا كل الصواريخ ومعداتها ميتة.

7- وقبل التكنولوجيا يجب أن تصنع تعليمًا يخدم توجهك، أن تخلق جيلًا يصنع فكرًا معاصرًا وليس حلمًا يسترخي به، أن يفكر بالمستقبل أكثر مما يفكر بالماضي، يفكر بالدنيا أكثر من تفكيره بالآخرة، يفكر بالحياة أكثر مما يفكر بالموت وعذاب القبر، يفكر بالاستقصاء والبحث والتجريب قبل أن يقول نعم لأي فكرة تقال له، أن تنزع من ذهنه مبدأ اسأل الشيخ، وتعلمه أن يقرأ في كتاب ما يريد أن يسمعه من الشيوخ الهواة.

8- واعلموا أيضًا أن الدولة لا يمكن أن تفرض على الناس دينًا أو فكرًا أو توجهًا أو عقيدة، أو تنزعه منهم، وهذه الشواهد أمامنا فلم يستطع الاتحاد السوفيتي أن ينزع العقيدة الإسلامية أو المسيحية من شعوبه، ولم يستطع أن يرسّخ المبدأ الشيوعي في شعوبه أيضًا، وها هي العقيدة اليهودية ما زالت سارية في اليهود منذ ثلاثة آلاف سنة بدون رعاية من أية سلطة أو حكومة يهودية.

6 - الهوية الإسلامية والهوية القومية

لم يخاطب الله سبحانه وتعالى الناس بخطاب واحد، فحينما كان يخاطب البشر كان يقول أيها الناس، وحينما يخاطب المسيحيين واليهود يقول يا أهل الكتاب، أما المعاندون لقبول العقيدة الإسلامية فيقول لهم يا أيها الكافرون، وكذلك المنافقون الذين لا يجرؤون على إظهار موقفهم، لقد كان يخاطبهم في قضايا معينة يرشدهم أو يدعوهم أو ينهاهم أو يناقشهم.

لكن الخطاب الأقوى وهو خطابه للمسلمين، فكان يعتبرهم كتلة واحدة وجمهورًا له سماته وميزاته، ويعدّهم لحمل الرسالة المحمدية، ويحكم تعاملهم مع المنافقين والكفار وأهل الكتاب وهذه الخطاب كان له أثره في تفكيرهم وتصرفاتهم وتفاهمهم مع بعضهم البعض، بما أدى إلى مفهوم أن المسلمين كتلة واحدة تختلف عن بقية العرب وأصحاب العقائد الأخرى.

وهذا الخطاب لم يحدد حجم فئة المسلمين، أكانوا آحادا أم عشرات أم آلافا، ونحن لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف عدد المسلمين في عهد رسول الله ﷺ أو في العهد الراشدي، لكنهم كانوا بالتأكيد يعرفون بعضهم بعضًا، أو يمكن أن يتعارفوا بسهولة، وحينما انطلقوا بالفتوحات انطلقوا ككتلة واحدة.

هذه الكتلة كانت تسمى المسلمون، وكانوا جميعهم من العرب، لذلك اختلطت الهوية القومية بالدينية، فالعربي هو المسلم والمسلم هو عربي، وخاصة بعد أن أخذوا زمام الحكم والسيطرة على البلاد المفتوحة، فبعض المقولات التي أثرت عن بعض المناوئين للإسلام في العهد الأموي (إذا قال لك العربي كذا وكذا فقل له كذا وكذا) ويقصد بالعربي المسلم ومن هنا كان كلمة عربي تعني مسلمًا.

لكن وبعد أن دخل في الإسلام قوميات كثيرة كالفرس الترك وغيرهم من أقوام الشرق الإسلامي، أصبحت القومية ذات حضور وتأثير في المجتمع، وأصبحت كلمة مسلم لا تعني شيئًا أمام كلمة فارسي أو عربي أو تركي، ومن هنا نشأ صراع بين هذه الشعوب فيما كان يسمي بالشعوبية.

ومن تجليات هذا الصراع ما كان في خلافة أولاد الرشيد الأمين والمأمون والمنصور والمتوكل فكلٌ له أمٌ تختلف في قوميتها عن الأخريات، وبالتالي كان هذا الإصهار لهذه القوميات مدخلًا لسيطرة هذه الشعوب على الخلافة، أو

إقامة دويلات مستقلة قائمة على القومية وليس على الدين كالدولة الطاهرية والغزنوية والسلجوقية وغيرها.

ولم تكن أوروبا ببعيدة عن مثل هذه التحولات المجتمعية، فبعدما كان البابا في روما يحكم أوروبا باسم الدين، ويبارك كل أمير أو ملك يتولى سلطاته ويتدخل في شئونهم، عندها ضاقوا بهذه السلطة الوهمية غير الفعالة، فحدثت انشقاقات وتمردوا على هذه السلطة، وكانت نتيجتها ظهور دويلات توحدها لغات وسلالات عرقية بدلًا من الدين المسيحي.

ومع تأثر الدولة العثمانية بالقوميات التي ظهرت في أوروبا، كانت للقومية الطورانية اليد الطولى في إسقاط خلافة بني عثمان، لذلك صب الأزهريون في مصر جام حقدهم على مبدأ القومية، أكانت طورانية أو عربية أو غيرها.

لذلك فإن الإخوان المسلمين الذين نشأوا في أول العشرينيات، إبان السيطرة الاستعمارية، حملت نفس الشعار المناوئ للقومية، وما زال هذا المبدأ واحدًا من أعمدة الفكر الإسلامي الذي يرى في الهوية القومية خطرًا على الهوية الإسلامية.

إن الذين يؤمنون بهذا الفكر إنما ينطلقون من فهم الخطاب القرآني لصحابة رسول الله، وكأن الزمن لم يتحرك، وأن المسلمين لا يمارسون إلا العبادة فقط، وأنهم ما زالوا عصبة تتخطفها الأعداء، وأنهم قريبو التواصل كما لو بلدتين متجاورتين، وأنهم ما زالوا بدوًا وفي غنى عن الدولة ومؤسساتها.

إن إنكار الهوية الوطنية أو القومية لصالح الهوية الإسلامية، ما هو إلا إفك عظيم وافتراء على المنطق والدين، فما المانع أن يكون الإنسان مسلمًا عربيًا أردنيًا أو مصريًا ومن بلدة ما وعشيرة ما؟ أي تداخل في هذه الولاءات؟ ولنفرض أني أنكرت عروبتي ومواطنتي لصالح هويتي الإسلامية التي تجمعني مع الإندونيسي والباكستاني والنيجيري، فما الذي أكسبه أنا؟ وما الذي يكسبه هؤلاء؟ والمواطنون المسيحيون الذين يعيشون بين ظهرانينا من مئات السنين، لمن يكون ولاءهم هل تسمحون لهم بأن يكون ولاءهم للدول المسيحية أو الفاتيكان، ولا تقولون عنهم عملاء؟

إن نقاشًا في أمر بالغ البداهة والبلاهة، هو مضيعة للوقت، ولكن هذا الأمر كان أكثر فائدة وأهمية لأعداء الأمة العربية، لأنه حقق لهم فينا المصائب التالية:

1- إنها فكرة نزعت من المسلمين العرب خاصة ولاءهم لأوطانهم ومجتمعاتهم، وكفت أيديهم عن الإسهام في بناء أوطانهم، والدفاع عنها اعتمادًا على أن الولاء أولًا لعالم الإسلام والمسلمين.

2- أصبح الجهاد يستقطب الشباب في أفغانستان والشيشان والبوسنة وغيرها، ومثل هذا العمل قد جر على شعوبهم ويلات هم في غنى عنها.

3- في سياق معاداتهم للقومية العربية كانوا مناوئين لكل المفكرين والمجتهدين في مطلع القرن الماضي وما قبله، أمثال طه حسين ولطفي السيد وسلامة موسى ومحمد عبده وقاسم أمين وجبران وغيرهم، يطعنون في ولائهم ونبلهم ويسفهون أفكارهم وعملهم دون أن يقدموا بديلًا، ولمن يريد التأكد فليراجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين.

4- كان فرحهم بهزيمة عام 67 عظيمًا نكاية بعبد الناصر، وبالقوميين العرب الذين حملوا لواء النهضة، والوقوف مع أعداء الأمة في أزمتها التاريخية، فقد كانوا يفتون ويقولون أن الذي يموت في سبيل الوطن ليس شهيدًا، ويشيرون بذلك إلى الأعمال الفدائية البطولية البكر لمنظمة التحرير الفلسطينية، والذي اشترك بها كل أحرار العالم باستثناء الجماعات الإسلامية، وبذلك وقفوا في معسكر إسرائيل وانحازوا للأعداء، بل أن أحد علماء الإسلام المشهورين صلى لله ركعتين شكرًا على هزيمة الشيوعيين ويقصد بذلك نظام عبدالناصر، أما بعد ذلك، فإنه بقدرة قادر صاروا يعتبرون كل من يموت في أفغانستان سيدًا للشهداء، لأن أمريكا راضية عن ذلك.

5- قاموا بقتل فرج فودة وطعن نجيب محفوظ، بمعنى لا حوار ولا فهم ولا تفاهم ولا أسلوب غير القتل. ومن قبل قاموا في لبنان بتصفية كثير من المفكرين مثل مهدي عامل وصبحي الصالح وغيرهم، وأهدرت إيران دم الكاتب الباكستاني سلمان رشدي ومثل ذلك في الجزائر أيضًا، بينما يستنكرون إعدام سيد قطب.

6- أصبحوا أعداءً لوطنهم ولموطنيهم، وأشد تشطيرًا لفلسطين من المغتصبين اليهود، كأن في موطنهم إسلامًا مغشوشًا، وأصبح من الإسلام أن تقتطع حماس من فلسطين قطعة وترتهنها للآخرين، تحت حجة مقاومة إسرائيل.

7- إن مشروع الإخوان المسلمين وحزب التحرير لإقامة دولة إسلامية يتنافى مع الدولة المدنية القائمة الآن، لذلك فإن رفضهم للقومية العربية الذي يشترك بها المسيحيون والمسلمون واليهود والأزيديون والصابئة والشيعة والدروز وغيرهم من الطوائف والأجناس، إنما هو نابع من مشروعهم لإقامة دولة إسلامية يقيمونها على هواهم وحسب مفهومهم أن البشر مقسومون إلى مسلمين وغير مسلمين.

7 - الدولة الإسلامية وبناء الحضارة

لو سألت أحد المنظرين للدولة الإسلامية، أو أحد المناصرين لهذه الفكرة، هل ستبني الدولة الإسلامية المنتظرة حضارة إسلامية؟ لقال على الفور نعم بكل تأكيد، ولكن لو سألته عن مفهوم الحضارة أو تعريفها، لوجدته يتلكأ ويبحث في أرجاء دماغه إن كان من شيء يسعفه في هذا المقام.

كل المشتغلين بالفلسفة ليسوا أقل تلكؤًا منه، فلا أحد يعرف كيف تنشأ حضارة ما ولا كيف تنهار، هناك تحليلات وهناك تفسيرات، لكنها محاولات للفهم، كما نحاول البحث عن سبب كسر الجرة، ربما نعرف، لكن معرفتنا هذه لا تفيدنا في صنع جرة جديدة.

إن صعود دولة ما أو إمبراطورية ما، لا ينبئ عن قيام حضارة، فهذا كما لو يهديك صديق شجيرة ويقول لك إنها تطرح ثمرًا جيدًا، فلن تتأكد من ذلك إلا بعد أن تزرعها وتنمو ثم تعاين ثمرها، إن كان جيدًا أو غير جيد، والدول هنا كالشجر، والحضارة كالثمر الذي يطرحه الشجر، فالحضارة مرتبطة بالدولة كما هي الثمرة مرتبطة بالشجرة، كل شجرة لها طرحها وكل دولة لها حضارتها، ولا يمكن لنوعين من الشجر أن يطرحا نفس الثمر، ولا يمكن لحضارتين أن تكونا متشابهتين، ولكن يمكن أن تكونا متكاملتين.

ولنترك هذا التشبيه الذي يفتح أمامنا سبل القول، ولنقل عن إمبراطورية المغول التي اكتسحت العالم لكنها لم تبدع حضارة متواضعة، بينما دولة صغيرة مثل أثينا فإنها أنتجت حضارة عظيمة ما زالت مثمرة حتى اليوم، وقد يقول قائل على الفور أن المغول قوم من البدو الهمجيين شأنهم شأن الفايكنغ الهمج الذين أجهزوا على الدولة الرومانية كما أجهز المغول على الخلافة في بغداد، لكن أما كان بوسعهم إقامة حضارة؟ لا ندري، فالحضارة ليست مرتبطة باتساع الدولة أو صغرها إنما مرتبطة بروحها، فدولة ذات روح عسكرية قتالية (أوليغاركية) في إسبرطة لم تصنع حضارة مثل دولة مدنية في أثينا.

والحضارة هي بناء، ولنقل إنها مثل حائط أو درج حجري صاعد، تم بناؤه من الأسفل إلى الأعلى، فمنذ أن قامت التجمعات البشرية الأولى، بدأ إرساء الدرجات الأساس، فلنقل أن فكرة بناء عريش من القش والأغصان ومكسو

بالطين بدلًا عن المغارات التي التجئوا إليها وسكنوا بها، كانت فكرة حضارية مبدئية، هذه الفكرة كانت صالحة لأن تحتذى وتطور من قبل أجيال وأقوام آخرين، إذن فهي المدماك الأول أو الدرجة الأولى، أما الدرجة الثانية فهي استعمال الحجر في البناء والدرجة الثالثة الحجر والطين وهكذا.

إذن نفهم من هذا أن الحضارة تراكمية، يستطيع أن يشارك بها أي قوم، ليس هناك من جينات وراثية تجعل من قوم حضاريين ومن قوم آخرين غير حضاريين، كما لا يمكن لقوم الادعاء بأنهم ابتنوا حضارتهم من الصفر، بل أخذوا من غيرهم وأضافوا للحضارة درجات جديدة وعلوًا آخر، وإذا ما عرجنا على حضارتنا العربية الإسلامية، من غير ما ندخل في المزايدات أو نتلقاها سنجد ما يلي:

كان للعرب ما قبل الإسلام شيئًا من الحضارة، مكنتهم من أن يتشربوا العقيدة الإسلامية جيدًا، ويفهمون رسالة الإسلام، لم يكونوا في مرحة الصفر أو أدنى كما يحلو للبعض تصويرهم، ونمت حضارتنا بعد ذلك وفق سنن بناء الحضارات بعد ثلاثة أجيال أو أربعة، بعدما اختلط العرب بأقوام كثيرة أهمها الفرس والروم والهنود، وديانات مسيحية ويهودية وبوذية وهندوسية، وأخذوا من أصحاب هذه الحضارات الكثير في جميع المجالات، و لم تبدأ حضارتنا نموها إلا بعد أن توفرت أدواتها، أولها الحبر والورق أي بعد أن بدأ المسلمون يدونون أفكارهم في كتب، وكان أول كتاب ألف في العربية هو كليلة ودمنة، وكونه مترجمًا، يصبح دليلًا على التلاقح مع الحضارات الأخرى.

والمستنبت الأول لحضارتنا، كان في الكوفة والبصرة وخاصة لعلوم اللغة والدين، وكما هو دائمًا إذا ما تجمع في الذهن علوم كثيرة، فإنه يفرز الفلسفة، أي علم الكلام كما أسموها، والتفلسف أو علم الكلام يفرز بالضرورة علومًا جديدة لأنها توسّع في الفكر وتصوّب الرؤية، إذن فالعلاقة بين التفلسف والعلوم علاقة جدلية، وهذا التفلسف العربي أنتج علومًا ذهنية كالرياضيات والكيمياء والفلك والطب وغيرها، وأصبحت دار الحكمة في بغداد كما هي مكتبة الكونغرس اليوم.

ووجدنا في القاهرة مماثلة حميدة من قبل الدولة الفاطمية، إذ ابتنوا الجامع الأزهر وبيت الحكمة صنوًا لدار الحكمة في بغداد، وكان جامعة بالمعنى الحديث للجامعات، فقد أنجبت ابن الهيثم وابن يونس المنجم وعلي بن الرضوان

وجذبت ناصر خسرو والحسن بن الصباح. أما في الأندلس فكانت حالة أخرى متقدمة بابن رشد وابن طفيل وابن حزم وغيرهم.

ولكن لا نعلم ما الذي جعل الفقهاء يعادون التفكير الفلسفي الذي هو أساس العلوم، وهذه الإبداعات العلمية، ويعمدون على قتل هذا الجانب المشرق من الحضارة، وما الذي دفع بالغزالي لأن يقول عن العلوم أنها (فرض كفاية) ولم يحدد مقدار هذه الكفاية، ففهمها المغرضون على أن لا ضرورة لها، لا أن نتعلمها أو نعلمها لأجيالنا، بالإضافة للمقولة التي ما زالت إلى اليوم منذ مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس بأن من (تمنطق فقد تزندق)، والأكثر إيلامًا أن الأيوبيين لم يكتفوا بتحويل الأزهر من تدريس المذهب الشيعي إلى الفقه الشافعي بل ذهبوا يدمرون بيت الحكمة، إذ صاروا يعطون كتب (بيت الحكمة) للجنود كرواتب وأعطيات، وهم يعلمون أن الجنود لا يقرؤون بل يستعملون جلود الكتب لصنع أحذية لهم.

وربما نظن أن السبب كامن في سيطرة المشتغلين بالفقه على الحياة الثقافية وإبعاد من لا يكون في سياق فكرهم من علماء الطبيعة، اعتمادًا على رأي الإمام الغزالي، واعتمادًا أيضًا على قول السيرافي الذي أكده ابن تيمية، وما زال يأخذ به إلى اليوم قطاع واسع من السلفيين والوهابيين والتيارات الدينية الأخرى، ونظن أيضًا أن الحروب الداخلية وتفتت الدولة لإقطاعيات متناثرة والحروب مع الصليبيين والتتار، استنزفت خيرات البلاد وجعلت الإمكانيات المتواضعة متوجهة للمجهود العسكري إذ لم يبق ما يصرف منه على علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والجغرافيا والطب والفلسفة وغيرها ممن تحتاج إلى تفرغ وتمويل.

وبناء على هذه الأرضية من المعلومات والأفكار والرؤى، سنرى في هذا الكتاب إن كان بإمكان دولة دينية أو غيرها أن تكون قادرة على صنع حضارة عربية حديثة في المدى المنظور.

8- ما بين الحزب الشيوعي والإخوان المسلمين من توافق

لا أحد يكتب مقالًا أو يعتلي منبرًا للخطابة أو يؤلف كتابًا أو يقوم بدعوة أو ينشئ حزبًا أو حتى يفتح متجرًا أو مؤسسة تجارية أو صناعية إلا ويكون في ذهنه تصور للمخاطبين أو الزبائن الذين سيتعامل معهم.

الحزب الذي لا يستطيع أن يعرف الشريحة الاجتماعية التي ينشد استقطابها، هو حزب فاشل مسبقًا؛ فمن الواجب أن يعرف الحزب أول ما يعرف القضايا المهمة للشريحة الاجتماعية المقصودة، وبالتالي يطرح قضاياها للنقاش ويظهرها كقضايا إنسانية ويجعلها موضوع برامجه الحزبية، وإلا سيكون حزبًا فاشلًا، وأحزابنا في العالم العربي أحزاب فاشلة، لأنها لا تقوم على مثل هذا النمط من التكوين.

ولعل الحركة الشيوعية هي أول حركة قامت لتصحيح أوضاع العمال والفلاحين من عسف الإقطاعيين والرأسماليين وبذلك تكون قد استهدفت قطاعًا اجتماعيًا كبيرًا هم العمال والفلاحين، لذلك فإنها وجدت المناصرة التامة والتأييد الكبير من هاتين الفئتين المنتهكتين، وأصبحت حركة عالمية قوية ضد التحكم الإقطاعي والرأس مالي.

أما حركة الإخوان المسلمين التي كانت نشأتها الأولى على يد مؤسسها حسن البنا، كانت حركة صوفية هدفها هو تعميق الإيمان في النفوس، وزيادة التقوى والمظهريات الدينية التي تتفرد بها الطرق الصوفية، وهذه الحركة التي لم يكن من هدفها إصلاح اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي، فقد لاقت نصيرًا من الاستعمار الإنكليزي بمصر، أو تم غض الطرف عن نموها واتساعها، لأن مشروعها لم يتقاطع مع المشروع الاستعماري لمصر، وغيرها من بلاد المسلمين، لذلك وجدت انتشارًا واسعًا في الوسط المصري، لأنها توجهت لبسطاء الناس والمهمشين - وما أكثرهم - لعلهم يجدون لهم مكانًا في الجنة، بعد أن فقدوه في الدنيا، إذ لا يحتاج المريد لكي ينضم لهذه الفرقة سوى أن يقول آمين. أفهمَ ما يقال له أو لم يفهم، مما جعل المنضوون إليها أعدادًا لا تحصى، مما أغرى القياديين لاقتحام العمل السياسي، وهنا وقع ما لم يكن في الحسبان، فالعمل السياسي يحتاج إلى قضية يربط نفسه بها، وبرنامج سياسي لكي يكون واضحًا لنفسه ولغيره، ويحتاج إلى قياديين بالفطرة، وبحاجة

لمفكرين وإعلاميين في مستوى الحدث، وإلى أعضاء يناقشون ويشاركون بالعمل لا أن يقولوا آمين.

ومن جانب آخر فإن ممارسة العمل السياسي يجب أن يقوم على موهبة القيادة والذكاء الخارق والثقافة والمعرفة المتنوعة، والقدرة على الاتصال مع (الكفار) والذين لا تتفق معهم بالرأي. والتعامل معهم في مجال السياسة والاقتصاد والتحالفات، إن هذا لا يتفق مع الصوفية التي تؤثر الانعزال والزهد والتقشف وتكريس الوقت للعبادة وإطلاق شعار (لا تأمنوا إلا لمن اتبع دينكم).

لم يكن انخراط الإخوان سهلًا في العمل السياسي، ذلك أن العمل السياسي الذي يقوم على التفكير الديناميكي الحر لا يتفق مع توجهات المتصوفة وأسلوب تفكيرهم، ولا يتفق أيضًا مع بساطة أعضائهم الذين لا يقدرون على فهم ألاعيب السياسة، لأنهم يرون كل شيء بمنظار ديني، ومن ناحية ثالثة لا يستطيعون أن يتنازلوا عن هويتهم الدينية مقابل الهوية السياسية.

هكذا استعصى عليهم أن يكونوا حزبًا سياسيًا بما تعنيه الكلمة، وظلوا جمعية تمارس العمل السياسي أو حزبًا يمارس العمل الاجتماعي الدعوي، لأنهم ما ملكوا بداية قيادة فكرية رائدة ومبدعة، تقف في مستوى قامة رواد النهضة في مصر، الذين كان جهدهم منصبًا على مصر حديثة، بينما ينصب جهدهم على بناء دولة دينية، أو إعادة الخلافة العثمانية.

إن موقفهم لم يكن بمستوى أولئك الذين كانوا ينحتون الصخر في سباق حضاري بمضمار الغرب المتقدم، بينما مشروع الدولة الدينية لا يكلف أكثر من قراءة السيرة النبوية والسيرة الذاتية لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين، ولم تفز الحركة الإسلامية إلا بكاتب غير مشهور وهو سيد قطب، ويبدو أنه كان سائرًا في ركاب طه حسين والعقاد في محاولة قراءة حديثة لتاريخنا وتنقيته من الشوائب وتقديمه بما يليق بالعصر الحديث، إذ ألف كتاب النظام الاجتماعي في الإسلام، وهذا الكتاب لفت انتباه الإخوان فضموه إليهم، وبدل أن يظل صاعدًا في نهجه التحديثي انكفأ إلى التقوقع داخل جماعة الإخوان.

لنعد إلى الحزب الشيوعي الذي كان واضحًا في مشروعه لإعادة توزيع الثروة بين المواطنين، من خلال إعطاء الأجور الحقيقية والضمانات والتعليم والصحة وغيرها مما جعل المؤيدين للحزب بالملايين، رغم أن الغالبية العظمى منهم لا

يفقهون ما يرطن به دهاقنة الشيوعية، ما داموا يأمنون الجوع والمرض والأمية والصراع الطبقي.

أما الإخوان المسلمون فإنهم وعدوا من ينضم إليهم ويسير في ركبهم بالجنة التي عرضها السماوات والأرض، ذلك أنهم هم الفرقة الناجية، وأن ضمان هذا الوعد هو مرتبط بالإخلاص للجماعة وتقديم قسم الطاعة للمرشد، كما وعدوهم بقيام دولة إسلامية على خطى الخلفاء الراشدين، وراح سيد قطب ينظر لهذه الدولة.

إن الشيوعية التي نامت على فراش من حرير مطمئنة إلى سلاحها الأقوى المكون من العمال والفلاحين والطبقة الوسطى، قد وجدت فجأة أن هذا الفراش ما كان إلا وهمًا، فعندما زلزلت الأرض زلزالها من تحت أقدام الاتحاد السوفيتي، وتشظى إلى دول كثيرة، وتوجهت هذه الدول إلى اقتصاد السوق ونبذت الاقتصاد الاشتراكي لم تهب ملايين العمال والفلاحين لإنقاذ الحزب الشيوعي من السقوط.

والآن، والإخوان المسلمون إذ يتيهون بقاعدتهم الشعبية الهائلة، التي أفادتهم بأصواتها في صناديق الاقتراع، هذه القاعدة لم تلمس المكاسب الحياتية التي كسبها العمال والفلاحون من الشيوعية، فمن الواضح أنهم سوف ينفضون عن الجماعة إذا جد الجد وحزب الأمر، لأن وعودهم بالجنة وبالدولة الإسلامية وعود ليست في متناول أيديهم، فهم يبيعون وهما للأغبياء، بالإضافة إلى أن قواعدهم الشعبية هذه، قواعد مرتبطة عاطفيًا وهذا ارتباط هش وليس كالارتباط النفعي والفكري، لذلك فإننا نلاحظ انحسار شعبيتهم في جميع مواقعهم التي كانوا يتمددون عليها براحة واطمئنان، والسبب راجع إلى أن هذه الطبقة الدنيا من المجتمع، لا تملك أن نفعل أكثر من الدعاء على أعدائهم بأن يمحقهم ويجعل تدميرهم في تدبيرهم، فهم كما يقال لا في السدة ولا الهدة.

[3] حول مفهوم الخلافة أو الدولة الإسلامية

1 - علاقة الدين بالسياسة

2 – هل أمر الله بالخلافة أم بالإمامة؟

3 - الخلافة ومنشؤها

4 – هل الخلافة ضرورة دينية أم اجتماعية؟

5 - الخلافة كانت وليدة ظروفها

6 - هل الخلافة اسم جنس؟

7 - ماذا تعني "دولة اسلامية"؟

8 - الدولة الإسلامية وأدبيات الحكم

1 - علاقة الدين بالسياسة

لا يوجد في تاريخنا الإسلامي أو العربي حزبًا دينيًا، ذلك أن الحزب الديني هدفه الدين، وبما أن معظم المناطق والبلاد يسكنها شعوب إسلامية فإن وجود أحزاب لنشر الدين أو تنقيته وتعميقه هو بالتأكيد عملية عبثية، فالمسلمون كما هم دأبهم في كل العصور ودأب الشعوب ذات الأديان، لا يستوون في معرفتهم الدينية وعمق إيمانهم، فمنهم من يقف على المعرفة البسيطة من أركان الإسلام وأركان الإيمان وما يجب عليه من واجبات وعبادات، وهناك من يرتقي إلى درجات أعلى في الإيمان والعبادات، ولكن من المستحيل أن يصبح المسلمون أطهارًا صالحين في درجة الأولياء الصالحين.

نستطيع أن نتصور ما كان يحدث في فترة التنزيل القرآني، وما بعدها من حركات نشر الدين على أيدي أناس بسطاء متبرعين لا يدعمهم أحد ولا تقف وراءهم دولة، وخاصة وهم ينشرون الإسلام في مجاهل إفريقيا وبلاد الهند وجزر جنوب شرق آسيا، إن هؤلاء المؤمنين على الفطرة ما كانوا يومًا بحاجة إلى دولة لكي ترعى إيمانهم وعبادتهم أو تساعدهم في عملهم، وكذلك المسلمون في روسيا والصين لم يكف كثير منهم عن العبادة المستترة إلى أن انقشعت عنهم دولة الاتحاد السوفيتي والحكم الشيوعي، فتبين كم كانوا طوال 70 سنة مؤمنين أطهار قائمين على عبادتهم السرية، ولم تستطع أجهزة القمع السوفيتية، أن تنزع الإيمان والتدين من قلوبهم.

أما تلك الجمعيات والطرق الصوفية التي تشكلت كجماعات دينية لها أسلوبها وتدينها الخاص الذي تنشده عميقًا وورعًا، فإنها لم تتطلع إلى تسلم السلطة، لأنها تؤمن في وجدانها أن السلطة لن تفيدها بل تجعلها مقيدة بسبب التزاماتها الإدارية والسياسية التي تلهيها عن واجبها التي نذرت نفسها له.

إذن من أين برزت فكرة ارتباط الدين بالدولة؟ ما دام أن الدولة لا تستطيع أن تقمع الدين ولا تستطيع أن تنشره؟ وأن الجماعات الصوفية والدعوية كانت تنجز عملها بدون دولة، لأنها لم تفكر يومًا بأن يحولوا جماعتهم إلى دولة، حتى أن حسن البنا لم يفكر حينما أنشأ جماعة الإخوان المسلمين في مصر بأن يحول هذه الجماعة إلى حزب سياسي، ولكن حينما تعاظم المنتسبون إلى الجماعة أصبح الدخول إلى العمل السياسي مطلبًا فيه نظر، وخاصة حينما تم

اغتيال النقراشي باشا رئيس الوزراء المصري آنذاك على يد الإخوان المسلمين، كان هذا إيذانًا بدخول الإخوان المسلمون المعترك السياسي.

من هنا بدأ التنظير للدولة الإسلامية، وتعميق الإرث الذي قدمه الأزهريون بوجوب إقامة دولة إسلامية والتباكي على أفول الدولة العثمانية، رغم أن علي عبد الرازق أوضح في كتابه نظام الحكم في الإسلام، أن لا يوجد أصول لشرعية الخلافة، وأن الخلافة كانت مجرد مسمى تراثي لأنظمة سياسية للشعوب الإسلامية.

2 - هل أمر الله بالخلافة أم بالإمامة ؟

سؤال استفزازي سيقودني إلى مسالك مهادها الشوك والحصباء، فلا أصعب من مناقشة أفكار رسخت بعمق، بل تم ترسيخها في العقول منذ أمد بعيد، إنك تدخل معي إلى كنز موهوم يحرسه مردة من الجن والإنس، وإني مرغم وإياك على هذا الدخول، إذ لا تقدم إطلاقًا إلا إذا راجعنا كل أفكارنا الراسخة جدًا، وقناعاتنا التي تبدو أكيدة، وتأكدنا أيضًا من أنها ميتة أم بها رمق.

لنستعرض أولًا معركة صفين بين علي ومعاوية التي امتدت تسعة أيام وأسفرت عن سبعين ألف قتيل (وهذا عدد فيه نظر) بينهم صحابة لرسول الله ﷺ ولكنها بعد الهدنة التي أعقبت ذلك، أسفرت عن خمس فرق، هي شيعة معاوية، وشيعة علي، والخوارج والمرجئة والرافضة، وأصبح لكل فرقة رؤيتها وفلسفتها وفهمها للآيات القرآنية، وبالتالي مشروعها السياسي، وجميع هذه الفرق ما عدا شيعة معاوية سكنوا أطراف الدولة في اليمن وعمان وشمال إفريقيا والمغرب، اتقاء لبطش الخليفة الأموي في دمشق، أما شيعة علي فكانوا في المدينة المنورة والعراق.

وحينما طمح أولاد العباس إلى الاستيلاء على الحكم والخلافة، وجدوا في شيعة علي وفي العنصر الفارسي مؤازرًا قويًا، وخاصة أن العباسيين أطلقوا شعارًا خادعًا وهو الرضا من آل البيت، مما جعل شيعة علي يطمئنون لمستقبلهم السياسي، فهم والعباسيون من آل البيت، لكن وبعد انتصار العباسيين على الأمويين، وخضوع كافة أمصار الدولة لهم، ما عدا الأندلس التي اقتطعها منهم عبد الرحمن الداخل. وبعد أن استتب الحكم لأبي العباس عبد الله السفاح، فقد هادن أولاد عمومتهم من أحفاد علي إلا أن وريثه أبا جعفر المنصور أراد إحكام سيطرته على البلاد من خلال إبعاد منافسيه، فرأى في أبي مسلم الخرساني خطرًا، وخاصة حينما وجده يتصرف كأحد أركان الحكم، فاستدعاه إلى بغداد، وقتله غيلة، وهو يقول له ستقتلني إن لم أقتلك.

أما المنافس الآخر فهم شيعة علي أو حفدته على وجه الدقة، الذين طالبوا بحصتهم بالخلافة بصفتهم من آل البيت، وخاصة أن آل هاشم وفيهم أبو جعفر المنصور اجتمعوا بالمدينة وبايعوا محمد بن عبدالله - وهو من سلالة

علي بن أبي طالب - خليفة بعدما أيقنوا من قرب انهيار الدولة الأموية، لكن آل علي فوجئوا بعد انتصارهم على الأمويين في معركة الزاب الأكبر أن عبد الله السفاح بويع في الكوفة خليفة للمسلمين، بينما البيعة ما زالت منعقدة لمحمد بن عبد الله من حفدة علي، لذلك ثاروا في المدينة لهذا الجحود، لكن أبا جعفر المنصور أمر عامله على المدينة أن يحضر ذرية علي وأن يرسلهم مصفدين إلى الكوفة، وهناك قتلهم جميعًا وكانوا اثني عشر رجلًا.

ليس هذا درسًا في التاريخ، ولكن لكي نضع إصبعنا على منشأ التشيع، وشرعية الإمامة، فقد أقصى المنصور شيعة علي والعنصر الفارسي مما دفعهم للتآزر والعمل معًا، وكانوا أعجز من أن يواجهوا بطش المنصور، لذلك راحوا يقولون إن الرسول أوصى بالخلافة لعلي بن أبي طالب، وأن الخلفاء الراشدين اغتصبوا الخلافة من علي، وكذلك بنو أمية وبنو العباس، وصار فقهاؤهم يركزون على أن الخلافة يجب أن تكون في ذرية علي بن أبي طالب، وأصبح فقههم يتمحور على إرجاع الإمامة التي رأوها شرعية بنصوص قرآنية وأحاديث نبوية.

أما أهل السنة أو فقهاء الخلافة وبنو العباس، فلم يعجبهم هذا الكلام وقالوا أن خلافة أبي بكر شرعية وعمر وعثمان وعلي أيضًا، فهل يعقل أن يكون خلافة علي شرعية وخلافة أبي بكر غير شرعية؟ ولم يجدوا في الأدلة التي احتج بها الشيعة دليلًا كافيًا على عدم شرعية الخلفاء الراشدين والأمويين وما بعدهم، ومن هنا نشأ موضوع بحثي كبير في شرعية الخلافة، مقابل شرعية الإمامة.

إذن فإن شرعية الخلافة أو شرعية الإمامة لم تكن وليد الفقه الديني إنما وليدة مواقف سياسية، ومناكفات السنة والشيعة، وإصرار الشيعة على إثبات عدم شرعية الخلافة مما دفع أهل السنة للدفاع عن هذه الشرعية.

إذن لا شرعية دينية للخلافة ولا شرعية دينية للإمامة، ولو أن أبا جعفر المنصور أشرك سلالة علي بالحكم لما ذهبوا إلى القول بأن الخلافة الراشدة وما تلاها غير شرعية، مما دفع أهل السنة للدفاع عن الخلافة ومحاولة إثبات شرعيتها .

3 - الخلافة ومنشئوها

لم يُؤثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أوصى لأحد بالخلافة الدينية أو الدنيوية، رغم أنه سُئِل بإلحاح ليعين من يكون بعده، إلا انه لم يَثبُت أنه ذكر شيئا، إلا ما قالته الشيعة انه أوصى لعلي بن أبي طالب، محتجين بحديث الغدير، ومن الواضح أنه لو أمر بوصاية لعلي أو لأحد آخر، أو أمر بشكل الحكم وكيفيته، لنفذه الصحابة بدون خلاف ودون تأخير، ولما كانوا قد اضطروا للاجتماع في السقيفة، ليتناقشوا طويلًا في من سيكون السيد الحاكم بعد الرسول، هل سيكون من المهاجرين أم الأنصار، لأبي بكر أم لسعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، وَلَما قام عمر بن الخطاب بحسم الخلاف بمبايعة أبي بكر، ربما لاعتقاده أن العرب لن تسلم قيادها إلا لقريش وليس لأهل المدينة.

إن هذه الأحداث على أهميتها، كان بها الصحابة يتصرفون حسب مفاهيمهم ورؤيتهم للأمور وتقديرهم العقلي، يتجادلون حول الصواب والأصوب، ولم يحتج أحد بآية قرآنية أو حديث شريف، وهذا أخرج الفعل السياسي عن سلطة الدين، وأوكله لعقولهم، ذلك أن نقاشهم لم يكن على أرضية دينية بل وفق المنطق العقلي والحجة المقبولة.

ولأن العرب لم يكونوا أصحاب تجربة في إدارة دولة، فقد ارتبك سيدنا أبو بكر في قبول لقب خليفة رسول الله ﷺ فقال إنما أنا خالف لرسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب أحب أن يقال له أمير المؤمنين، وكان هناك معارضون لهذا النظام، فالحطيئة أبدى تخوفه بقوله:

(ليورثها بكرا إذا مات بعده .. وتلك لعمر الله قاصمة الظهر)

ظنًا أو سخرية من أن بكرًا هو ابنٌ للخليفة، ونبه الحطيئة أيضًا عمر بن الخطاب بأن الخلافة ليست لأجله إنما لأجل المسلمين، أي أن الحكم مشروط وليس مطلقًا حسب قول الحطيئة:

(لم يؤثروك بها إذ قدموك لها .. لكن لأنفسهم كانت بك الإثر)

لقد اختلفوا كما اختلفت بريطانيا بين الملكية المطلقة والمقيد، وتحاجج الفيلسوفان (هوبز) المناصر للملكية المطلقة و(جون لوك) للملكية المقيدة، لكنهم انتصروا للمقيدة وانتصر المسلمون للمطلقة.

واختلفوا بعدها في مدى صلاحيات الخليفة، فكانوا قلة هم الذين اعتبروا الخليفة موظفًا يُعزل إذا ما تجاوز صلاحياته، أما الكثرة فقد أعطوه ولاية مطلقة على الشقين الديني والدنيوي، ولقد ذكر ابن خلدون بمقدمته فيما يشبه النقد (والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية، وبيان ذلك أن الخليفة عندهم يقوم في منصبه مقام الرسول صلى الله عليه وسلم وقد كان - صلى الله عليه سلم - في حياته يقوم على أمر ذلك الدين، الذي تلقاه من جانب القدس الأعلى ويتولى تنفيذه والدفاع عنه، وعندهم أيضًا أن الله جل شأنه قد اختاره (أي الخليفة) أيضًا لحفظ ذلك الدين وسياسة الدنيا به).

بعد هذا الإيجاز، فهل التنظير لمبدأ الخلافة وصلاحيات الخليفة مأخوذ من القرآن الكريم والسنة النبوية؟ أم من الاجتهاد العقلي لأصحاب الرأي ؟ بغض النظر إن كان هذا المجتهد متملقًا للخليفة أم صادقًا في قناعاته؟

4 - هل الخلافة ضرورة دينية أم اجتماعية ؟

لم تكن الخلافة التي ابتدعها صحابة رسول الله رضي الله عنهم، مذكورة في القرآن الكريم، أو مشارًا إليها في الحديث الشريف، وكل ما اعتمد عليه الفقهاء لدعم شرعية الخلافة الدينية قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا لله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) إذ رأوا في هذه الآية أمرًا بأن يكون للمسلمين وليًا، وبذلك تكون له شرعية دينية.

ونتساءل: لو لم يأمرنا الله بولي أمر، هل سيبقى المسلمون بلا ولي أمر؟ إن هذا مخالف لطبيعة التجمع الإنساني، فوجود ولي للأمر في أي جماعة هو ضرورة تنظيمية وإدارية، سواء كان مجتمعًا بدائيًا أم متحضرًا، صغيرًا أم كبيرًا، مسلمًا أم كافرًا، لأن الإنسان أينما كان فهو مدني بالطبع.

والخليفة هذا المسمى الذي تفردت به الحضارة الإسلامية، وأعطاه المؤرخون والفقهاء هالة دينية، راجع إلى أنهم أوكلوا إليه رعاية الدين، وسياسة أمور الدنيا معًا، ومن هنا أصبحت له وظيفة دينية مقدسة فوق ما له من سلطة دنيوية.

إن هذه الصورة المثلي التي يظهرها دعاة الدولة الإسلامية والتي يروّجون لها، لم توضح لنا كيف يصبح أميرًا - بمجرد أن يُبايَع له كخليفة - حاكمًا مقتدرًا أمينًا تقيًا يطبق شرع الله؟ وأن نظام الخلافة، كتالوج تعليمات تجعله لا يزيغ شعرة واحدة، وأنه يصبح حرًا في إجراءاته وقراراته بمعزل عن توجهات الأسرة الحاكمة التي رشحته للخلافة !!

أما الحديث الشريف الذي بما هو نصه (من مات ولم يكن في عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية) فالمقصود هنا بالبيعة أن تكون بيعة حرة، تعطي للخليفة أو الحاكم الثقة، وتعقد معه اتفاقًا على بنود عمله، وإذا أخلف الاتفاق فإنه يعزل كما هو العقد الاجتماعي الحديث الذي قال عنه جون لوك وجان جاك رسو، لكن ما وجدناه في الحقيقة، أن العائلة الحاكمة ترشح أحدًا منها للخلافة، لاعتبارات تخص الأسرة الحاكمة وليس لصالح الأمة، ثم يدعون الناس للبيعة، طوعًا أو كرهًا، تأتي الوفود من الأمصار وتستضاف في قصر الخلافة وتبايع، ويتم توليته الحكم، ويسمى خليفة المسلمين، فهل هكذا تكون البيعة التي حث عليها رسول الله؟

من الواضح أنها تزكية لشخص من قبل العائلة الحاكمة، وأن البيعة ما هي إلا إجراءات بروتوكولية ليس أكثر، ذلك أنه لا يوجد منافس لهذا المرشح للخلافة، يأتي وليس لديه مشروع ينوي إنجازه.

كما لم يحدثنا التاريخ عن خليفة واحد رفض الناس مبايعته، وأن جدلًا قام بين أناس حول قدراته وإمكاناته، وأن المسلمين أطاحوا به لأنه فاسد، ولكن ما وجدنا من المؤرخين رياء وكذبًا بأنه صالح وتقي وكريم وورع، وشعراء أغرقوه مدحًا وثناءً وتعظيمًا، فهل هذه الخلافة التي ننتظرها؟

وأخطر ما في الأمر أنه لا يوجد سلطة في نظام الخلافة، تستطيع أن تحاسب الخليفة أو تعزله، إلا ما كان من سلطة البرامكة والبويهيين والسلاجقة على بني العباس، فقد كانوا ينصّبون الخليفة في الصباح ويقتلونه في المساء كما حدث مع ابن المعتز، أو يتركونه 47 عامًا في الخلافة ما دام لا يعترض على شيء، كالخليفة الناصر لدين الله.

إذن فالخلافة ليست نظامًا متكاملًا أثبت فاعليته كنظام، ولا هو النظام الأمثل في التاريخ، ولم يكن متفردًا، ولا هو خال من العيوب والمناقب، بل نظام كان وليد عصره، وراثي دكتاتوري، لذلك فإن الدعوة إلى نظام حكم إسلامي ممثلًا بالخلافة، ما هي إلا دعوات خادعة ومضللة، وعجز عن إبداع نظام سياسي جديد ومعاصر.

5- الخلافة كانت وليدة الظروف

لا أحد ادعى أو يمكنه الادعاء بأن الخلافة ولدت هكذا، وخاصة أن العرب لم يكونوا قد جربوا الحكم، كي يأخذوا منه أو يطوروه، وكانت بيعة أبي بكر بنت اللحظة، وعلى عجل، ولأنها لم تأت من إرث سياسي، فقد قُبلت، ولم تثر اختلافًا يذكر، وكذلك خلافة عمر التي كانت بالتزكية وخلافة عثمان كان بالانتقاء ما بين نخبة اقترحها عمر بن الخطاب.

ليس في هذه الأساليب ما يمكن القدح به، ولكن لا يمكن أن نجعل من واحدة نموذجًا يُحتذى. إن بساطة الحكم وسهولة إدارة الأمور وعدم التكالب على الحكم، جعل من الجدل حول هذه السياسات قليلًا جدًا، أو غيبها المؤرخون، فالخليفتان أبو بكر وعمر لم يعتبرا الخلافة مكسبًا بل واجبًا ثقيلًا، لكن الخليفة عثمان بن عفان الذي قيل أنه كان يحابي أقرباءه، وأنا أقول ربما أن أقرباءه هم الذين استغلوا طيبته وتقواه في غير وجه حق، مما أدى إلى مصرعه المأساوي.

إذن فمشكلة الخلافة بدأت حينما أدركوا منافع الخلافة الكثيرة، وخاصة حينما اتسعت الفتوحات وتدفقت الغنائم، فراحت تساور أحلام الكثيرين بالجاه والثراء، لذلك أصبحت الخلافة ومنصب الخليفة مقصدًا لكل طامح يأنس في نفسه القوة، فهذا معاوية بن أبي سفيان استشعر في نفسه قوة وجدها أداة لاغتصاب الخلافة من علي بن أبي طالب، وحينما استشعر بنو العباس قدرتهم، اغتصبوها من بني أمية، وقال أبو جعفر المنصور ما لم يقله معاوية أنا سلطان الله على الأرض، وتوالت اغتصابات الحكم وأصبحت الخلافة عباءة تشريفية لتغطية المستور.

إن الخلافة الراشدة التي يحلم بها المتعبون من استبداد الحكام، لها ظروفها التي صنعتها فقد كانت تحكم شعبًا لا يملك فكرة عن مفهوم الدولة، وليس لديه مطالب من الخليفة، ومشغول بالفتوحات، أما حينما تحول المجتمع البدوي إلى مجتمع مدني، وتحولت الناس عن بساطتها الأولى، فإن الخلافة السمحة تحولت إلى ملك عضوض، إذن فإن اختيار نظام الخلافة الراشدي أو أي نظام آخر ليس اختيارًا حرًا إنما هو محكوم بالظروف الزمانية والمكانية.

6- هل الخلافة اسم جنس ؟

كما يقول علماء البلاغة والمنطق أن اسم الجنس هو الاسم الذي يدل على أكثر من نوع كما نقول طير، فكلمة طير لا تدل على نوع واحد بل مئات من أنواع الطيور، وحينما نقول خلافة، فإنه يتبادر إلى أذهاننا أنها تعني شيئًا واحدًا لا ثاني له، ولكن لو استعرضنا دول الخلافة لا نجد وصفًا مانعًا ينطبق على كل دول الخلافة في تاريخنا .

فالخلافة الراشدة تتميز بأنها غير وراثية إذ تم انتخاب الخليفة بأكثر من طريقة، وأنهم جميعًا من صحابة رسول الله ﷺ المقربين، وكان يُنظر للخليفة على أنه خليفة لرسول الله وذا مركز ديني، لكنها كانت تخلو من نظام مالي أو اقتصادي أو شرطة أو قضاء أو مجلس استشاري أو نائبًا للخليفة، وهي التي تشكل عصب الدولة إلا ما كان يمارسه الخليفة من قضاء بين سكان المدينة .

أما خلافة بني أمية فقد كانت خلافة ملكية، فحين دعا معاوية وفود الأمصار لمبايعته قام يزيد بن المقفع خطيبًا وقال: أما الخليفة فهذا (وأشار إلى معاوية) وإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد) ومن أبى فهذا (وأشار إلى السيف) فقال له معاوية اجلس فأنت سيد الخطباء، هذه البيعة تمت بالقوة، وتكرس مبدأ الوراثة وإلى التأسيس لمبدأ استعمال القوة ضد من يمتنع عن البيعة.

ومثلها كانت الخلافة العباسية فيمكن فهمها من قول أبي جعفر المنصور أنا سلطان الله على الأرض، فهو يحكم بتكليف سماوي، ويتفرد بالرأي والسلطة، مورثًا الخلافة لعقبه ومبعدًا شيعة علي بن أبي طالب والعنصر الفارسي الذين أسهموا معه بإسقاط دولة بني أمية.

وفي العهد الثاني من الخلافة العباسية كانت أسرة البويهيين والسلاجقة تتحكم بتنصيب الخليفة وتدير الخلافة على هواها، وكانت الخلافة لا تمتد إلا لضواحي بغداد، فقد اقتطع أجزاء الدولة حكام وأقاموا دولًا مثل الدول الطاهرية الحمدانيين والإخشيديين والفاطميين والقرامطة والخوارج وغيرهم، ووصف شاعر الموقف السياسي بقول:

(خليفة في قفص بين وصيف وبغا .. يقول ما قالا له كما تقول الببغا)

وحينما سقطت بغداد بيد المغول قُتل الخليفة المستعصم وأبيدت الأسرة العباسية الحاكمة وذهبت عن المسلمين الخلافة لمدة ثلاث سنوات، إلى أن قام الظاهر بيبرس بالعثور على شخص قدمه على أنه من بني العباس وأجلسه خليفة في القاهرة، لا يفعل شيئًا من أمور الدين أو الدنيا إلى أن احتل السلطان العثماني مصر وضمها لملكه.

ورغم أن الوثائق التاريخية لم تنبئنا أن الخليفة العباسي في القاهرة قد تنازل عن الخلافة لسليمان القانوني ولا هو طلب منه ذلك، إلا أنهم في أواخر عهدهم تسموا بالخلفاء ليستجلبوا سلطة دينية، ولكننا لم نجد على الليرات الذهبية من عهدي عبد المجيد وعبد الحميد لفظ الخليفة أو الخلافة بل السلطان عبد الحميد عز نصره، والدولة اسمها (دولة علية عثمانية) فالخلافة العثمانية كانت طموحًا لم يتحقق.

هذه الأنواع أو الأطوار من الخلافة، فأي منها تريدون؟ انتقوا واحدة قبل أن تبيعونا الجمل بما حمل.

7- ماذا نعني "دولة إسلامية" ؟

لو استعرضنا الدول التي قامت في تاريخنا فلن نجد بها دولة وصفت نفسها بأنها إسلامية، حتى الخلفاء الراشدين لم يسموا أنفسهم بهذا الاسم، رغم أن تلك الفترة هي فترة المد الإسلامي، وحينما نازع بنو العباس دولة الأمويين الحكم لم يتهموهم بالانحراف عن الدين وقالوا أنهم سيعيدون سيرة الإسلام الأولى، وصلاح الدين الأيوبي السني لم يتهم الدولة الفاطمية الشيعية اتهامات في عقيدتهم، وهكذا حتى الدولة العثمانية حينما خرج عليها العرب في الحرب العالمية الأولى بقيادة الشريف حسين لم يتهمهم أحد بالخروج عن الإسلام.

وعلى مدى التاريخ لم تكن النزاعات بين الدول الإسلامية نزاعات دينية بل سياسية، وابن خلدون - أيضًا - وهو يبحث في قيام الدول وسقوطها لم يتطرق للدين على أنه سبب من أسباب نجاح الدول أو فشلها، كما لا يوجد فيلسوف أو مفكر سياسي، عربي أو أجنبي قال بأن الدين هو عنصر من عناصر بناء الدولة القوية.

إذن ما بال التوجه نحو أسلمة كل شيء أصبح محمومًا، حتى انتقلت العدوى لإسرائيل وها هو نتنياهو يطالب العالم العربي، وربما العالم أجمع بأن يعترفوا بإسرائيل كدولة يهودية، فهل من حقها أن تكون دولة يهودية؟ كما هي موريتانيا الإسلامية؟ إن منطق الأمور يتوجب علينا أن نعطي إسرائيل هذا الحق ما دمنا نطالب به لأنفسنا.

إن تضخيم القيم العشائرية والإقليمية والدينية والقومية ما هو إلا عداء مبطن للآخرين الذين لا ينتمون لهذه العشيرة أو هذا الإقليم أو هذا الدين أو القومية، لأنك دونما تدري تقيم حدودًا بينك وبين الآخرين، لا يمكن لهم اجتيازها، وبالتالي لن تقيم علاقات إنسانية مفيدة، إنما توطئ لعداوة كامنة لا تدري متى تستيقظ وتنقض عليك وتدمرك .

8- الدولة الإسلامية وأدبيات الحكم الإسلامي

حينما يتكلم منظرو الدولة الإسلامية، فهم يتكلمون عن أدبيات السياسة وليس عن السياسة كعلم، وعن الإجراءات السياسية التنفيذية أو الموضوعات التفصيلية، ولأنهم مصابون بدول قمعية متسلطة، فإنهم يرون السياسة هي العدل والمساواة، وأنها متوفرة في تراثنا الإسلامي، ومن الأحرى بنا أحياء هذا التراث.

جميل هذا الكلام وجميل أيضًا مناقشته فالعدالة ليست قيمة إسلامية المنشأ ولا الفضيلة ولا المساواة، إنها قيم عليا كانت ضرورية لبناء الممالك والحضارات، وليس هناك حضارة أو ديانة أو مبدأ يقوم على عكس ذلك، فالفضيلة التي تكلم عنها أفلاطون ما زالت هي الفضيلة على مدى الحضارات والعقائد المختلفة، لا تمتاز بها أمة على أخرى، ولا ديانة على أخرى، ولا مبدأ على آخر، ذلك أنها نابعة من النفس الإنسانية الواحدة .

وأن مطالبة الإسلاميين بدولة إسلامية تطبق هذه القيم ليس أمرًا مبتكرًا، فالشعوب الإنسانية تسعى إلى ذلك بلا استثناء وعلى مدى الحياة الإنسانية، ولكن الغريب في ذلك أن نربط تطبيق هذه القيم بالدولة الإسلامية أو دولة الخلافة فقط، مع أنه لا ارتباط عضويًا بين الأمرين، وأنه لو قامت دولة إسلامية أم خلافة أم إمامة شيعية فستكون محكومة بالأمور التالية:

1- إن العدل مفهوم ذهني، أي أنه مقياس عقلي، كما هو مفهوم الأعداد في الحساب، فلا يوجد شيء اسمه أربعة إلا في أذهاننا، وليس كل من يعرف مفهوم الأرقام لا يخطئ في الحساب، فإذا اختلط علينا المفهوم اختلف القياس أيضًا، فإن كنا لا نتصور مقدار الرطل أو القنطار فإن أحكامنا ستكون خاطئة، إذن لا يوجد تطبيق أمثل للعدل ما دمنا نعتمد على مفاهيمنا الذاتية، التي لا ندري شموليتها، ومدى دقتها.

2- إن العدل يحتاج إلى قوة لتستطيع تحقيقه في الناس، فالعدل لا يحقق ذاته، وفي جميع الأحوال فإن العدل والمساواة دائمًا تطبق لمصلحة الأقوى الذي ينفذها، فالرجل عبر التاريخ هو الذي يصادر إنسانية المرأة وحقوقها، والرق هو استلاب إنسانية إنسان لصالح السيد، والقومية الغالبة في المجتمع هي التي تهضم حقوق الأقليات، وإنهم دائمًا لا يستمعون للضعفاء، وإنك لا تستطيع أن تملي عليهم ما يجب فعله، فهل سيكون مع الدول الإسلامية قوة تحقق العدل؟

3- هناك قاعدة تقول إذا لم تملك الجرأة على القتل، لا تصلح أن تكون قائدًا، لذلك فإن إقامة الممالك القوية تحتاج إلى تقليم دائم وإلى حزم وقوة، ومحاربة العصاة والطامحين إلى الاستيلاء على الحكم، من هنا سيبدأ التذمر من الجبروت في أعين الناس المتضررين بينما في نظر الحاكم ضرورة لتثبيت وحدة الدولة.

4- قد يرى الحاكم في إجراء بعض التسويات في بعض الاختلالات الاجتماعية والاقتصادية، منفعة عامة، كترحيل بعض الاكتظاظات السكانية، وعمليات تأميم الإقطاع أو الثروات المتراكمة لدى بعض العائلات، فإنه يبدو للمتضررين ظلمًا، وللفقراء والمعدمين مكسبًا .

5- ما الذي يجعلنا نوقن أن الخليفة لن تطوقه مجموعة من النفعيين الذين يقنعونه بآرائهم ليلبي مطالبهم، هذا ما يحدث دائمًا وخاصة حكامنا العرب، أن يلتف حوله زمرة من المنافقين، الذين يفسدهم ويفسدونه، وإنهم يزورون له الانتخابات ويبقى هو وأولاده إلى الأبد، فما الحل لهذه المعضلة؟

إن بحوثًا مثل هذه لم تأخذ اهتمامًا يذكر، لأن أحدًا لم يتطرق لها، ذلك أنهم وجدوا الوقوف على الأدبيات العامة مريحًا ورائجًا لدى الطبقة العامة، ولم يكلف أحدهم عناء الإجابات على أسئلة غير مطروحة.

[4] الإسلام والسياسة

1- مفاهيم مطروحة

أ) الدولة الإسلامية لإقامة شرع الله

ب) الدولة الإسلامية تستمد شرعيتها من الإسلام

ج) هل يحتاج الدين إلى دولة؟

2- نشوء ظاهرة الإسلام السياسي

3- الاشتباك بين الفقه والسياسة

4- هل ورثنا علمًا في السياسة

5- أمنيات ليس إلا.......

6- إعادة توصيف الدولة الإسلامية

7- لعبة الشد نحو الماضي

1- مفاهيم مطروحة

أ) الدولة الإسلامية لإقامة شرع الله

هذا التعريف نسمعه باستمرار على أنه غاية الدولة الإسلامية، وهذا يقودنا للتساؤل، حيث أن الإيمان هو علاقة بين العبد وربه، وهذا اتصال سري لا يملك معه أحد الدخول على الخط، والاستماع للنجوى التي تجري، وما هي الشريعة التي يريدون تطبيقها؟ فما هو مطبق الآن من الشريعة هي أركان الإيمان وأركان الإسلام الخمسة، وهي العبادات والزواج والطلاق والإرث والحلال والحرام، وأظن ذلك كاف لإدارة حياتنا الدينية، ولكن هل لا يكتمل تطبيق الشريعة بغير قطع اليد والرأس والرجم والجلد والتعزير ولبس الخمار وإطلاق اللحى وارتداء الدشاديش القصيرة؟

وهذا يدفعنا للتساؤل: إن كان تطبيق الشريعة شاملًا للمذاهب الأربعة؟ فماذا عن المواد المختلف عليها بين الفقهاء؟ هل ستكون دولة إسلامية حسب المذاهب؟ للحنابلة دولة وأخرى للحنفية والشافعية والمالكية؟

ب) الدولة الإسلامية تستمد شرعيتها من الإسلام

هنا نسأل إن كان الإسلام قد حدد معالم الدولة كما حدد الزكاة والحج والصيام والإرث والطلاق، ولا زيادة لمستزيد، فهل حدد الإسلام أسلوب انتخاب الخليفة؟ وكيفية تداول السلطة؟ وموجبات عزل الخليفة؟ وإذا تنازع اثنان على الخلافة هل يحق لنا أن نقتل أحدهما أو كلاهما؟ وماذا لو كانوا أربعة؟ من يحق له القتل؟ وهل الخليفة معصوم؟ إذ لا يحق لنا أن نخرج عليه ولو جار؟ وما هي شروط البيعة؟ وما الفرق بين البيعة والانتخاب؟ هل البيعة هي الإقرار بتزكية الأسرة الحاكمة، لماذا الأسرة الحاكمة لا ترشح اثنين أو ثلاثة، وتعطى لنا حرية الاختيار أو الانتخاب؟ وما نسبة المبايعين التي تعتبرها كافية؟ ومن يضمن عدل الخليفة وعدم تغوله على المسلمين؟؟؟؟؟

ج) هل يحتاج الدين إلى دولة؟

لم ينشأ في يوم من الأيام دين على أيدي حكام للدول، أكانوا ملوكًا أو سلاطين أو أمراء، فدائمًا الأديان السماوية وغير السماوية يقوم بها نبي أو مصلح هدفها تنظيم الحياة الاجتماعية وتوحيد المجتمع على مفاهيم مشتركة، ليجعلها أفضل تنظيمًا وأكثر رفاهية وأكثر أمنًا، ويستقيم بالفكر لكي يبتعد عن الخرافات والسفسطائية (أي المنطق الذي يعتمد على التلاعب بالكلمات).

وبما أن الدين لم ينشأ من السلطة، ولم تكن السلطة يومًا بداعمة له، إن لم تكن معادية، ونعرف أن الدين جوهرة ماسية أو ذهبية، مكتفية بذاتها، لا يتلفها غبار أو أوساخ أو إهمال أو سوء تصرف أو تحطيم، لذلك فإن وجود دولة تدعي حماية الدين ونصرته، لا معنى له، وادعاء لا تقوى عليه.

والذين يصرون على ضرورة وجود الدولة الدينية، أن يشرحوا لنا مهمات هذه الدولة للحفاظ على الدين، هل سيبنون مزيدًا من المساجد؟ ويسجلون لكل شخص عدد الركعات التي قام بها؟ وهل سيخترعون أجهزة لمعرفة ما بقلب كل إنسان من إيمان؟ أو معرفة دينية؟ أو أنه صائم أم لا؟ وغيرها من خصوصيات الفرد وربه.

إن هذا الاعتقاد لا بد نابع من مفهوم قاصر أو مشوه لواجبات الدولة؟ فالدولة لها مهمات دنيوية بحتة، بأن توفر الأمن والغذاء والسكن والتعليم والصحة وتزيد من الإنتاج لتزيد من الوظائف ومجالات العمل، وجميع هذه الواجبات الحكومية، لن يكون مصدرها القرآن أو السنة، إنما من اجتهادات الحاكم، أكان هذا الحاكم مسلمًا ورعًا أم أنه غير مسلم أصلًا.

2- نشوء ظاهرة الإسلام السياسي

ظاهرة الإسلام السياسي ليست نبت هذا العصر، وإن جماعة الإخوان المسلمين وحزب التحرير والسلفيين وغيرهم ليسوا إلا منتج لفكرة استخدمها معاوية بن أبي سفيان في معركة صفين، حينما رفع المصحف ليكون الحكم فيما بينهم، لم يعجب هذا علي بن أبي طالب وقال بما معناه أن القرآن كلمات على ورق ونحن الذين نفهمها ونستخرج المعاني، ومنذ ذلك الوقت وكل السياسيين حينما تحوجهم الحجة يلجئون إلى آيات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف، يجتزئونها ويفسرونها على هواه م ، ويدعمون بها موقفهم على قاعدة أن القرآن صحيح والحديث صحيح، لذلك فإن ما يبنون عليه من آراء ومواقف فهي صحيحة بالضرورة.

إنها فكرة خاطئة كما عبر عنها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لأن في القرآن آيات متشابهات، بمعنى أنها تشتبه بمعناها على الكثيرين، وهذا يعني أن ليس لها معنى قطعي، لذلك أصبحت ورقة نقد يستعملها كل شخص لتحقيق أغراضه.

ومن هنا علينا أن نعرف أن ارتباط الدين بالسياسة ارتباط مضلل، لأنه لا احتكار لفهم القرآن الكريم، ولا تقديس لمقولات هواة السياسة، لأن السياسة علم عقلي يخضع للصواب والخطأ، والدين عقيدة لا تخضع للصواب والخطأ، ودمج السياسة بالإسلام سينتج عنها أحد أمرين إما تديين السياسة وبالتالي تقديسها، أو علمنة الإسلام .

3- الاشتباك بين الفقه والسياسة

لم يقم أحد من الخلفاء والسلاطين والقادة والأمراء بكتابة تجربته ورؤيته السياسية، وقواعد عمله القيادي، ولم يُمل على أحد أفكاره حتى يعيد صياغتها، إذن كيف ارتبط الفقه بالسياسة في أذهان الناس؟

ربما كان ذلك من خلال كتابة بعض الفقهاء المشهورين في أمور تدبير المُلك، ورعاية الناس والعدل بين الرعية، ومن هؤلاء الأئمة أبو حامد الغزالي وابن حجر العسقلاني وابن الجوزية وابن تيمية والشوكاني والقلقشندي وغيرهم مما أدخل في روع المسلمين أن السياسة نابعة من الدين.

وضع الفقهاء أحكامًا قضائية ليقيموا العدل بين الناس، وجعلوا لكل متجاوز حدًا، وهذا القوانين التي استنبتت أصلًا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأصبحت تسمى شريعة، وبالإضافة إلى ذلك أصبح الحاكم ملزمًا بتطبيقها أو يلزم القضاة بتطبيقها، امتدت هذه الشريعة لتطول الحكام أيضًا بما يجب عليهم فعله من إقامة العدل بين الناس ومساعدة الفقراء، هنا وضحت السياسة في أذهان الناس على أنها العدل والمساواة، وذلك بتطبيق الشريعة في إقامة الحدود والقصاص.

وهذا التصور الذي خلق في أذهاننا هذا الارتباط ما بين الدين والسياسة، لم يقل أحد أن الخلفاء والأمراء وغيرهم قد التزموا بمثل هذه التشريعات التي وضعها الفقهاء والأئمة، وأن تطبيق بعض هذه القوانين استلزم تعديلها أو إلغاؤها، بمعنى أنها بقيت حبرًا على ورق، فعلى مدى تاريخنا لم يكن الخليفة ملتزمًا بقانون، فما يقوله وما يراه هو القانون، وبما أنه في دولنا الإسلامية على مدى خمسة عشر قرنًا، لم يكن هناك من ارتباط ما بين الدين والسياسة فلماذا نطالب بهذا الارتباط؟

لكن السياسة في أيامنا هذه ليس فقط لإقامة العدل والمساواة، وتنفيذ القصاص، إنما الحفاظ على أمن الناس وصحتهم وتعليمهم وإيجاد العمل لهم، بإقامة المصانع وفتح المشاريع التنموية وفتح الطرق وإقامة المشاريع البحثية واستيراد العلم والتكنولوجيا، ودفع المجتمع إلى الرقي والتقدم، وليست هذه روتينًا مستديمًا، إنما هي مستجدات بحاجة لبَديهَةٍ وقّادةٍ، ومبادرات فاعلة نابعة من موهبة إبداعية، وليس من شخص يحفظ بنود الشريعة.

إذن فإن هذا المفهوم الجديد للسياسة لم يبحثه الأقدمون في كتبهم ، فحينما نريد أن نضع قانونًا للشركات الاستثمارية الأجنبية، فإننا لن نرجع إلى آية قرآنية أو حديث شريف وإلى رأي أحد من الأئمة أو الشيوخ، إنما لذوي الخبرة والاختصاص من الأجانب أو من المواطنين ذوي الخبرة.

ويقال أن نابليون حينما احتل مصر، طلب من الأزهر الشريف قوانين للملاحة البحرية وغيرها من القوانين للدولة الحديثة، وحينها لم يجد الأزهريون ما يقدمونه، هنا تم إدخال القانون الفرنسي إلى محاكم مصر.

ومن هنا نستطيع أن نقول أن علاقة الدين بالسياسة هي علاقة متوهمة .

4- هل ورثنا علمًا في السياسة؟

بشكل عام لا نستطيع القول بأننا ورثنا علومًا سياسية كما ورثنا علومًا في التاريخ والفقه والأخلاق والتصوف واللغة والنحو والآداب والفنون والعلوم وغيرها، وأن كتب العلوم السياسية ليست من الوفرة ما يمكننا أن نبحث فيها ونقول إنها علم سياسة، وأنها علوم العرب والمسلمين في مفهوم الدولة والسياسة، على ضوء المفاهيم الحديثة في هذا العصر.

ولقد أحصى الدكتور نصر محمد عارف في كتابه (في مصادر التراث السياسي الإسلامي) 288 كتابًا لمؤلفين إسلاميين عرب وغير عرب، أولها كتاب لعبد الحميد الكاتب بعنوان وصية ولي العهد عام 132هـ، وآخرها لعبد الرحمن الكواكبي بكتابيه أم القرى وطبائع الاستبداد، ولكن معظمها كان في مجال الإمامة وباللغة الفارسية.

وهذه الكتب التي لم يسطرها سياسيون مارسوا تجربة سياسية، وكتبوا عن إخفاقاتهم ونجاحاتهم حتى يكونوا واضحين لمن يأتي من بعدهم، لأنهم يمارسون السياسة كمزاج، ولم يسطرها أيضًا مؤرخون يكتبون مباشرة من مقر الخلافة، ولديهم وعي بما هو التاريخ، وما كان من همٍّ المؤرخين أيضًا، غير تمجيد الخليفة، وقلما نجد كتابات عما يحدث من قلاقل أو فتن أو كوارث طبيعية، إلا ما ندر، وما كانت هذه الكتب في معظمها إلا نصائح قدمت لولي الأمر، ونصائح للناس كيف يتعاملون مع ولي الأمر، ولو نظرنا إلى ما اصطلح عليه في التصنيفات الشعرية برثاء المدن، لا نجد تحليلًا أو تفسيرًا لما حدث، فلو أخذنا قصيدة أبي البقاء الرندي في سقوط غرناطة فهو يقول:

(لكل شيء إذا ما تم نقصان .. فلا يغر بطيب العيش إنسان)

فلن نجد في القصيدة أيما إشارة إلى سبب سياسي واحد أدى إلى الهزيمة، ولم يكن غير الاتعاظ والتباكي وذرف الدموع.

وعلى ما أتانا من كتب استطاع الباحثون تصنيفها على أنها كتب في علم السياسة، لم يطلع عليها أحد، لا من العامة من الناس ولا من الحكام ذاتهم، فالسياسة يرسمها القوي، وهذا هو المفهوم الذي ترسخ في ذهن العامة، عندما تقاسمت الدول الاستعمارية الرجل المريض، لم نلمس في البدايات مقاومة

شعبية للمحتلين، سوى من بعض المتعلمين وبعض الضباط الذين رأوا من واجبهم الدفاع عن بلاد المسلمين.

ومن ذلك اليوم وإلى يومنا هذا ونحن نفتقر إلى أسس نرسي عليها مفاهيمنا السياسية، لذلك انفتح باب التجريب والتخبيص والانقلابات والدكتاتوريات والتوريث، والجمهوريات الملكية، وكل ذلك كان مقبولًا في غياب الأسس وغياب المفاهيم السياسية .

5- أمنيات ليس إلا...

بداية من المنطقي أن نعرض بعض الأفكار القائمة على أقوال ومعتقدات آمنا بها إيمانًا قاطعًا، ولم نحاول التحقق منها أو العمل بها، منها (الإسلام هو الحل) و(لا يصلح أمر هذا الدين إلا بما صلح أوله) و(دولة الخلفاء الراشدين يمكن نسخها في كل زمان ومكان) (وأن تاريخنا كان كله سمنًا وعسلًا وعدلًا وتقوى) وهذه أفكار رسخت في الذهن وتوارثتها الأجيال كإرث حميم، لا أحد له الرغبة أو القدرة على تفحصها إن كانت حية أو ميتة، لذلك من الصعوبة بمكان إزاحة شيء عميق لصق في الذهن منذ قرون.

والواضح أن الخلافة كما هي في أذهان العامة، وصفة ترياق لجميع العلل وأنها ملاذ الخائفين والجائعين، وهي كما يلي :

1- لا يوجد نص قرآني صريح بإقامة الخلافة أو أي نظام سياسي، أو اقتصادي أو تعليمي أو أي جانب من مكونات الدولة الحديثة، فالله الذي قال (لا جناح عليكم أن تأكلوا في بيوت عماتكم وخالاتكم) بصريح العبارة ... ألا يكون من الأولى أن يكون واضحًا بأمر جلل مثل نظام الخلافة والسياسة؟

2- أن رسول الله ﷺ لم يكن حاكمًا، ولا ينبغي له أن يكون، فرسالته تسمو به فوق السلطة السياسية، فقد كان مواطنًا مرموقًا، له رأيه النافذ، جهده أن يبني جماعة متماسكة تحمل عقيدة الإسلام، وكل أفعاله التي كانت تبدو سياسية كبعض التنظيمات وشن الحرب الدفاعية والهجومية ما كانت إلا من هذا المنطق.

3- إن نظام الخلافة مهما كانت شرعيته، لم يكن في يوم من الأيام سمنًا وعسلًا، بل هو حكم يقوم على الاستبداد وعدم الأخذ بالرأي الآخر، أدى إلى تفتت الدولة الإسلامية إلى عشرات بل مئات الدويلات الصغيرة.

4- الكتب النادرة التي تكلمت عن السياسة كانت اجتهادات مشكورة لأصحابها، ولكنها لم تصل إلى مسامع الخلفاء، ولم تصبح سياسة للخلافة، لأن الخلفاء هم أصحاب الرأي، ومن الغريب أن تصبح آراءهم الاجتهادية في أيامنا هذه هي قواعد الحكم الإسلامي.

5- يستطيع أي شخص أن يحلم بما يشاء، وهذا فعل مشروع، لكن تنفيذ هذا الحلم سيكون مشروطًا بالواقع الذي يعيش به زمنيًا ومكانيًا، وكذلك الحلم بدولة الخلافة حلم مشروع، ولكن هل الواقع الحالي من التوازنات الدولية وحكام الدول غنيها وفقيرها تسمح بذلك؟

6- ومن هو موقن أن الأمر سيحصل بإذن الله أن يكف عن شرح حلمه لنا، بل يشرح لنا ما يمكن فعله لنصل إلى حلمه الذي يسعى إليه.

7- أرجو من كل الذين يحملون هذا الحلم أكانوا مخلصين أطهارًا، أو ذوي مآرب، أن يفكروا انطلاقًا من الواقع لا انطلاقًا من واقع مضى ولن يتكرر، وأن لا يزيغوا أفكار الأجيال الناشئة نحو الاتجاه المسدود، كفوا عن هذا فأنتم مسئولون أمام الله تعالى، فسبحانه يقول: (قل هل أخبركم بالأخسرين أعمالًا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا).

6- إعادة تعريف الدولة الإسلامية

أعتقد أننا منذ قرنين ونحن نعيش حالة قلق غير عادية، فمنذ أن فتح لنا رفاعة الطهطاوي كوة صغيرة على باريس، ونحن في حيرة وشد وجذب، فهناك من نظر إلى الحضارة الغربية نظرة إجلال وإكبار دون الذهاب بعيدًا إلى التفاصيل الدقيقة في الواقع الحضاري والاجتماعي المتخلف، بأن رأوا أنه بالإمكان تدارك هذا التخلف واللحاق بالركب نحو الحضارة العالمية، فراحوا يقدمون جهودًا فردية يؤسسون فيها لنهضة كان يمكن لها أن تكون قد اكتملت منذ قرن من الزمان.

لكن كان هناك قوة جذب معاكسة وهي التيارات الدينية، التي كانت ترى أن الحضارة الغربية حضارة كفر، وأن لنا حضارة مميزة هي الحضارة الإسلامية، وإن فيها ما يلزم الدارين، ولقد كان هذا التوجه مقنعًا لقطاعات واسعة من الشعوب العربية، لأنه نابع من مقولات وآراء أئمة في الفقه، قيلت في وقت كانت به الحضارة الإسلامية طاغية ومتقدمة على ما جاورها من حضارات.

ولقد كانت هذه الأفكار مطروحة في أذهان المسلمين، كسبيل لرفع الروح المعنوية والافتخار بالنفس، لكنها لم تكن ذات مضمون عملي حقيقي، فلا هي أوصلتنا إلى مقاعد الدول والمجتمعات المتحضر في هذا العصر، ولم تترك للآخرين حرية التجريب والمحاولة، ناهيك عن هذه الردة التي اجتاحتنا نحو الماضي، إلى العصر الذهبي الإسلامي، فأصبنا بمرض الفصام، حيث نعيش حياتين متناقضتين، نعيش في عصر التكنولوجيا والفضاء والعولمة، بينما نتصور أنفسنا من الصحابة والتابعين ونحاول أن نتقمص شخصياتهم.

7- لعبة الشد نحو الماضي

على مدى عصور خلت حملنا إرثًا ثقافيًا مفعمًا بالوصايا وقواعد السلوك والتفكير، أفرزتها التقلبات المكانية الضعيفة في الزمن، مما جعل النظام الاجتماعي نظامًا ثابتًا أو كالثابت، وهذا الثبات الذي خلا من المستجدات أدى في النهاية إلى سكون الفكر والابتداع، وهذا السكون جعل هناك من يفكر أن الدنيا سائرة على نمط واحد إلى يوم القيامة، ولا يعلمون أن الفكر الإنساني حينما لا تحركه قضايا اجتماعية وإنسانية وحياتية فإنه يبقى ساكنًا .

إن فكرة الثبات التي حاصرتنا وجعلتنا مطمئنين اطمئنانًا مريبًا ، فإننا في هذا العصر، دهمتنا التغيرات الكبيرة التي حدثت عند جارتنا أوروبا وأمريكا وكل بقاع الأرض، بحيث ملكتنا الدهشة، وبريق الحضارة الحديثة، فلا غرو إن أصابنا العَشا وأفقدنا الرؤية والاتجاه، ريثما يضيق البؤبؤ وتتحسن الرؤية، ولكن يبدو أن هذه الحالة الطبيعية دامت أكثر مما هو مفترض، ومن استوت أبصارهم وجدوا أنفسهم على حافة نهر سريع الجريان، أو بحر عميق الغور، فلم تكن لديهم الجرأة على الغوص والسير مع تيار الحضارة الحديثة، لذلك وجدوا من السلامة أن يرتدّوا إلى الماضي الآمن الذي يفهمونه جيدًا .

ولنعترف أنه ما زال بيننا من الذين يثابرون على أخذنا نحو الحضارة الحديثة مقابل أولئك الذين يقيمون في الماضي باسم العادات والتقاليد والموروث الثقافي والديني، والإخلاد في هذا السكون المريح، ينشرون وعيهم بالماضي الذي تخيلوه نعيمًا مطلقًا.

إذًا نستطيع أن نقول أننا أحجمنا عن خوض التجربة الحضارية العالمية ووقفنا متهيبين لا نحن قادرون على المغامرة ولا الرجوع إلى ما قبل مئات من السنين، ولكن كلا الخيارين يحتاج إلى فكر قادر على إنارة الطريق أمام العقل لكي يقرر أي الاتجاهين يذهب .

لكن من أين لنا بالفكر الذي يعيننا على اجتياز هذه الممر الشاسع ويجسر الفجوة التي تتسع يومًا بعد يوم ، فالذين يريدون أخذنا نحو الحضارة الحديثة، لا يملكون القوة ولا الإمكانيات التي تعينهم على اجتياز هذا الممر، ذلك أن الذين يحملون هذا الهم لا بد أن يكونوا قادرين على تفهم هذه المهمة الكبيرة لما فيها من جهد فوق الطاقة.

أما الذين يريدون أخذنا نحو الماضي الجميل لا يحتاجون جهدًا في صعود المرتقيات العليا، فطريقهم سهل الانحدار لا تعب فيها ولا نصب، فلا غرو أن يكون جمهورهم غفيرًا وتأييدهم واسعًا بين العامة، لكن فليعلم كل من استكان لنزولها، أنه منحدر نحو الهاوية، ولعل الملاحظات التالية، هي ما تشير إلى صدق الرؤيا:

1- أن يعلموا أن التاريخ لا يعيد نفسه، فنحن لا نقوم بتمثيل في مسرحية، ما علينا سوى تقمص أدوار الأبطال جيدًا، إن انتظار قدوم عمر بن الخطاب وصلاح الدين هو موقف غرائبي، يصلح لمسرحية مثل (في انتظار غودو).

2- أن يعلموا أن المؤامرات ليست الأسلوب المفروض علينا من الغرب، إنما هو أحد وسائل الدفاع عن النفس، إذ من لا يقوى على البحث عن الخطأ في داخل نفسه، وفي أساليب تفكيره ومناهج سلوكه وضيق رؤيته، نراه يحيل كل ما يحدث معه لمؤامرة حاكها غيره، كما يفعل الأطفال حين يخطئون.

3-أن يعلموا أن الزمن له كلفته أيضًا، حتى التباطؤ أيضًا له تكلفته، فالحياة مضمار تركض فيها الخيل، وأي تباطؤ في العدو ولو بالثواني يعد خسارة، فما بالك لو كان الحصان أعرج.

4- إن كانت هناك من فئات لا تقوى على فهم متغيرات العالم، فعليهم أن يكونوا أكثر تفهمًا ومحاورة لكل من يحاول جهده أن يكون عصريًا، ويلحق بركب التقدم ولو كان اللحاق متأخرًا، ويكفّون عن تصنيف غيرهم كعلمانيين أو يساريين أو قوميين بشيء من العدائية والتكفير.

5- أن يعلموا أن الإسلام ليس هدفًا للكفار، وأن إظهار الدفاع عنه ما هي إلا معركة وهمية، وأن الإيمان لا يحتاج إلى جهد فوق الطاقة، وإن (عجائز نيسابور) يحملن إيمانًا صادقًا كان يتمناه الإمام فخر الدين الرازي.

أن يعاد تفسير الآية الكريمة (وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون) لما يخدم أمور الدنيا، وأن الثواب على العمل الدنيوي أجل وأكثر مما هو الثواب على العمل الديني، ذلك أن العمل الديني يفيد الفرد في الآخرة فقط، بينما يفيد العمل الدنيوي البشرية جمعاء في حياتهم وفي مستقبلهم، فأكبر ما نواجهه من قضايا هو مبدأ الفردية الذي يحكم سلوكنا، في أن ينجو الفرد بنفسه، والانسحاب من المجتمع لصالح العبادة، وهذا ما يجعل مجتمعنا مجتمعًا يهرب من ذاته.

أعتقد - وهذا تفسير شخصي - كلمة يعبدون تعني يعملون عملًا بدنيًا كالعبيد، ذلك أن العبيد في ذلك الوقت هم الذين كانوا يقومون بالرعي والفلاحة والصناعة، وباقي الأعمال المنزلية والخدمية، ذلك أن كل هذه الأعمال سميت مهنة، وهي مشتقة من الامتهان أي الذل، إذ كان الأذلاء هم الذين يقومون بالعمل البدني، والأذلاء كانوا هم العبيد أو الخدم المهمشين.

[5] مشاريع الدولة الإسلامية

1- سيد قطب والدولة الإسلامية
2- مفاهيم سيد قطب في الدول الإسلامية
3- خلافة حزب التحرير
4- بعض نماذج الدولة الإسلامية
5- عامل انهيار الاتحاد السوفيتي ومرتكزات الدولة الإسلامية
6– نحن والتجربة الصينية
7- الفرصة التي ضاعت لإقامة دولة إسلامية

1- سيد قطب والدولة الإسلامية

عُرف سيد قطب أول ما عُرف أديبًا من أدباء مصر، ناقدًا ودارسًا، ومسلمًا كما هم السواد الأعظم من العرب والمسلمين، إلى أن قيض له أن يؤلف كتاب النظام الاجتماعي في الإسلام، فوجدت جماعة الإخوان المسلمين فيه خامة فكرية جيدة، وانضم إلى الجماعة كمفكر إسلامي ومنظر لفكر الإخوان المسلمين.

لم تكن قبل سيد قطب فكرة إنشاء دولة إسلامية رائجة، ولم تكن فكرة وحدة المسلمين غائبة، إنما كانوا يتكلمون في الثلاثينيات والأربعينيات عن دولة الخلافة العثمانية التي أطاح بها كمال أتاتورك، وينحصر الكلام بمهاجمة كمال والقومية الطورانية ومعها القومية العربية، التي هي مغايرة للانتماء الإسلامي.

وكان هناك في أقاصي الشرق عالم هندي اسمه أبو الأعلى المودودي (1903-1979) يتكلم عن إقامة دولة إسلامية تضم مسلمي الهند، ليشكلوا مجتمعًا إسلاميًا ويحيون حياة إسلامية بعيدًا عن طقوس الهندوس والسيخ والبوذيين، تبدو هذه الدعوة ذات وجاهة وقبول عند مسلمي الهند، وتحقق لهم ذلك، بقيام دولة أسموها (باك / ستان) أي بلد الأطهار، مكونة من باكستان الغربية وباكستان الشرقية أي بانغلادش.

ويبدو أن سيد قطب قد أعجبته الفكرة بعد تنفيذها، هناك دولة إسلامية بحجم مصر نبتت من تحت الرماد، وعلى ما بدا له رغمًا عن بريطانيا العظمى والهندوس وغيرهم.

لسنا واثقين عما دار في تفكير سيد قطب حتى راح يُنظِّر لدولة إسلامية، فهل وجد أن المسلمين في مصر يحتاجون لنظام سياسي إسلامي؟ وأن مشاكل مصر التي تعاني منها يمكن حلها بالفتاوى الإسلامية؟ وهل استطاع أن يثبت علميًا أو منطقيًا أن مصر دولة غير إسلامية؟ وأنهم يتخبطون في جهالات تدخلهم في الكفر الصريح وأن العالم يعيش في جاهلية القرن العشرين كما كان ينظِّر شقيقه محمد قطب؟ وهل أفكاره هذه مستقاة من أفكار شيخه الصوفي حسن البنا؟ الذي يسعى كما هم الصوفية إلي الإيمان بالله كأنهم يرونه؟

من هذه الزاوية، هل كان يرى كل المصريين ما عدا جماعة حسن البنا يحملون إسلامًا ضعيفًا؟ مما يجعلهم في مستوى أصحاب ديانة السيخ؟ وبالتالي حق عليه وعلى الجماعة أن تقيم دولة إسلامية من الأطهار كما هي دولة باكستان إسلامية من الأطهار؟ وهل كان يطمح إلى إقامة دولة إسلامية في كل بلد يتواجد بها مسلمون؟

إن من يقرأ كتابات سيد قطب يرى مدى الشتائم التي يكيلها للمجتمع المصري كي يثبت أن هذا المجتمع بحاجة إلى أن يقام فيه حكم الإسلام، وخاصة حينما أصبحت جماعة البنا ذات مكانة وتأثير في المجتمع المصري، وهذه المكانة القوية مثل السلاح والمال يغريان على الاستخدام، عندها بدأ تحرشهم بالسلطة فقتلوا النقراشي باشا رئيس الوزراء، ومن هنا يكونون قد تحولوا من جماعة دينية صوفية إلى حزب سياسي ديني، هدفهم الاستيلاء على السلطة وقيادة المجتمع، من هنا نستطيع أن نجد في دعوة سيد قطب لإقامة دولة إسلامية خدعة دعائية ليتسلم جماعة الإخوان السلطة، لأنهم في هذه الحالة، سيقومون هم ببناء النظام الدولة الإسلامي، لكن المشكلة أن أحدًا لم يسألهم عن برنامجهم، ولا هم قاموا بنشره على الملأ، ظنًا أن موقفهم المعارض سيقيم دولة، واكتفوا بالنوايا الطيبة، مما جعل العمل السياسي في حكومة مرسي مزاجيًا وتجريبيًا، ذلك أن شعار قيام دولة إسلامية جعل العمل مفتوحًا على جميع الاحتمالات، وهذا جعل من الشعب أمواجًا تتلاطم، ولو كان لديهم برنامج ورؤية لأمكن للقوى الأخرى أن يقيموا معهم دولة مصر الإسلامية، ولكن هذا الاستئثار والتلكؤ والتجريب والارتباك نابع من المفارقة بين الحلم والواقع.

فقد ظنوا السياسة مطية سهلة، فإذا بالحكم بغل شموس، ولكن بدلًا من أن يلوموا أنفسهم لعدم مهارتهم بإدارة الدولة راحوا يعتبرون المعارضين معادين للإسلام والمسلمين.

2 – مفاهيم سيد قطب في الدولة الإسلامية

أ) الحاكمية

أول من قال في هذا المصطلح هو أبو الأعلى المودوي الملهم لسيد قطب بكل أفكاره ومشاريعه، ويبدو أن سيد قطب قد أعجبه هذا المصطلح الذي يرى فيه العالم تحت سيطرة الله وتحكمه، بما فيها الحياة البشرية، والدولة الإسلامية ضمن هذا الوجود الراضخ لحكم الله، وقد أوضح ذلك بأن كل الأحكام غير الشرعية أو غير المستقاة من أحكام الله الواردة في القرآن فهي باطلة، لذلك فإنه يجب إزالة كل نظام سياسي أو اجتماعي له هذه الخاصية، فمثل هذه الأنظمة هي انتهاك للشريعة، وهي حالة من انتهاك الألوهية، لذلك فإن كل مجتمع لا يقوم على الشريعة الإسلامية في بنيته وقوانينه وفكره واقتصاده وتوجهاته السياسية والاجتماعية والثقافية، فهو مجتمع غير إسلامي، وكل ذلك اعتمادًا على الآية الكريمة (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[1].

والنص التالي يؤكد ما يذهب إليه (وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم، لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله، وتغتصب سلطانه، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد .. وهي المشكلة التي كان يواجهها القرآن الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات، ويربطها بقضية الألوهية والعبودية، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر، وميزان الجاهلية أو الإسلام)[2].

إذن فإن سيد قطب يريد أن يكون كل ما لدينا من أحكام أو دساتير أو قوانين أو سلوك أو أعمال محكومة بما أنزله الله، ومن الواضح أن مفهومه هذا لم يأخذ باعتباره التغير في المجتمعات والحضارات، والمستجدات، وألغى دور العقل البشري في إدارة هذا العالم، وحمل القرآن بما لا يحتمل من قدرة على تنظيم كل شيء، فالقرآن لم يضع سلم الرواتب للموظفين ولا أمر بالإشارات الضوئية، وعقاب من يتجاوزها، بل فتح سيد قطب بأفكاره هذه الباب لكل من

---

[1] [سورة المائدة - الآية 44].

[2] في ظلال القرآن.

يريد أن يمنع أو يعمل ما يريد باسم الإسلام، وأن يفسر الآيات القرآنية بما يريد.

وكان على سيد قطب أن يتفرغ هو ومن معه لوضع تشريعات مستحدثة مستقاة من شرع الله، حتى يجعل الحاكمية لله وحده، فيدلنا على نظام حكم مبتكر يتناسب مع العصر، وكيف تكون التنمية وكيف نجد الوظائف ونقضي على البطالة، وكيف نصلح الاختلالات في المجتمع وغيرها مما تستوجبه الحضارة العصرية، ولا يكتفي باستنساخ الماضي ووضع اللوم على الناس لأنهم أطاعوا الطواغيت، فالشتم سهل وإيجاد المثالب وتسفيه الآخرين سهل أيضًا، ووضع اللوم على الغير أكثر سهولة.

ب) الجاهلية

كتاب جاهلية القرن العشرين الذي كتبه محمد قطب بإيحاء من سيد قطب الذي مَتَحَ[3] الفكرة أيضًا من أبي الأعلى المودودي، يشرحها في سياق تفسيره للآية (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)[4] في كتابه في ظلال القرآن ما نصه (إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص، فالجاهلية - كما يصفها الله ويحددها قرآنه - هي حكم البشر للبشر، لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله).

إن الجاهلية - في ضوء هذا النص - ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها حالة موصوفة ووضع من الأوضاع الموجودة دائمًا . هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويوجد اليوم، ويوجد غدًا ، وعليه فإن نعت المجتمعات بالجاهلية هو أمر مستمر لا نهاية له، وبهذا المنطق نستطيع أن نقول أن الإسلام لم ينتشر بعد، وأن الإسلام الحالي هو إسلام مزيف، وأعتقد أن التكفيريين يؤمنون بهذا القول.

والناس في أي زمان وفي أي مكان - إما أنهم يحكمون بشريعة الله دون ترك لبعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليمًا ، فهم إذن في دين الله . وإما إنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر - في أي صورة من الصور - ويقبلونها فهم إذن في جاهلية، وهم في دين من يحكمون بشريعته ، وليسوا بحال في دين الله .

---

[3] استقى وأخذ.

[4] [المائدة 50].

والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية ، والذي يرفض شريعة الله ، يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية.

ت) التكفير

من خلال المفهومين السابقين بأن الحاكمية لله وحده، وأن الناس في جاهلية لأنهم اغتصبوا حق الله في التشريع، وأصبح بذلك الحكام أربابا، وهنا لا نحتاج إلى تأكيداته بأن المجتمعات والحكام جميعهم كفار ، فالحكومات كلها كافرة كما قال في كتابه في ظلال القرآن : (إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي).

ويقول أيضًا في ظلال القرآن ص101: (يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة، لا لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها)، وقال في كتابه "في ظلال القرآن" الجزء الثاني ص1492 طبعة دار الشروق: بصريح العبارة (الذين لا يفردون الله بالحاكمية في أي زمان وفي أي مكان هم مشركون لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله مجرد اعتقاد ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده).

إذن فسيد قطب كفر الحكومات والشعوب والأفراد بكل هذه البساطة وهذا التأكيد، ليقيم دولة إسلامية من الأطهار الأنقياء، ولم يقل كيف نبني هذه الدولة، بل ترك للمغامرين إقامتها.

ث) الهجرة

ليس مؤكدًا أن سيد قطب قد دعا إلى الهجرة كما أعلنه (شكري مصطفى) منشئ التكفير والهجرة، بل ما قاله تعبير عن قنوطه وخذلانه وانسحابه واعتزاله المجتمع، أما فلسفة التكفير والهجرة التي وضعها (شكري مصطفى) فإنها مختلفة وإن وجدنا بعض البنود التي تشربها من فكر سيد قطب ظاهرة، وهي:

1- هجرة ما نهى الله عنه من آلهة تعبد غير الله وهجرة المعاصي التي نرتكبها.

2- هجرة معابد غير المسلمين، (والمسلم عندهم هو المنتمي لجماعه المسلمين فقط).

3- هجرة العادات والتقاليد والملابس والأزياء ودور اللهو والنوادي، واعتزال الناس.

4- هجرة الوطن كلة لأرض لا يعبد فيها إلا الله، ونتبرأ من كل شيء فيها فتتنزل اللعنات على المجتمع الكافر الماجن، وتنجو فقط "جماعة المسلمين".

5- هجرة "مصر" حتى يتمكنوا من الإعداد في أرض أخرى للعودة ومقاتلة الكفار ومهاجمة النظام للاستيلاء على الحكم بالقوة.

6- الإسلام هو دعوة تنتشر ثم هجرة أرض الكفار لأرض أخرى (قد تكون صحراء سيناء مثلًا) لا يعبد فيها إلا الله ثم إعداد لقتال الكفار، ثم عودة وجهاد وقتال الكفار.

7- أن تهجر الزوجة زوجها إذا أرادت أن تنضم للجماعة بدون طلاق، ثم تتزوج من غيره؛ بشرط أن يكون من أعضاء جماعة المسلمين "التكفير والهجرة".

8- تكفير مرتكب الكبيرة، كما هو مذهب الخوارج قديمًا.

من الواضح أن هذا التصور الغريب الذي ابتدعه سيد قطب أو أخذه من أستاذه المودودي، هي أفكار هجينة ليس لها جذور في تاريخنا الفقهي والديني، كالحاكمية والجاهلية والتكفير وغيرها قد أنبتت نبتًا هجينًا آخر، هم جماعة التكفير والهجرة، وهذه الجماعة أنبتت عشرات الجماعات على قاعدة من أفكار سيد قطب، التي كانت كلامًا عائمًا وليست معمقًا أو مدروسًا، أثارت حمية الشباب البسطاء، وهدفهم إقامة دولة لشرع الله غير دول الكفر والجاهلية، وبالطبع فإن السبيل هو الجهاد والقتال، ضد الكفار من المسلمين.

3- خلافة حزب التحرير

لم ينشأ حزب التحرير في القدس عام 1953 نشأةً طبيعية، بمعنى أنه نتيجة لظروف ومشاكل اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية يراد إصلاحها، إنما هي دعوة لإقامة الخلافة الإسلامية، بمعنى أنها قفزة عن كل القضايا، إلى جهة غير محددة، ليست في مدى الرؤية المنظورة، فقد وجد مؤسس الحزب الشيخ تقي الدين النبهاني، أن مشاكل العرب والمسلمين سوف تتلاشى حالما أقيمت دولة الخلافة، ولكنه لم يخبرنا لا هو ولا عبد القديم زلوم ولا إسماعيل أبو الرشتة، متى يمكن أن تقام هذه الدولة وأين تقام ولا كيف تقام.

إنه توقيت غريب أن ينشأ حزب سياسي يأخذ أتباعه إلى حلم بعيد المنال متجاهلًا كل الوقائع السياسية النابعة عن إنشاء إسرائيل وتشرد الشعب الفلسطيني، والفراغ السياسي بعد انسحاب بريطانيا وفرنسا من مستعمراتها في البلاد العربية، وانتظار قيام دولة الخلافة، واعتبار القضية الفلسطينية قضية هامشية، سوف تحل حالما تقوم دولة الخلافة، إنها أشبه بالمخدر الذي حقن به أتباعه من الشعب الفلسطيني، فما عادوا يشعرون بما يدور حولهم، ولم يشتبكوا مع إسرائيل مرة واحدة، لا كفصيل من فصائل المقاومة، ولا مؤازر لها، كجماعة الإخوان المسلمين قبل حماس، وبعدما تعرضوا للنقد الشديد لاشتراكهم مع طالبان في محاربة السوفيت بقيادة عبد الله عزام، ولعل فكرة الخلافة التي راودت الشيخ تقي الدين نبعت من إعجابه بالسلطنة العثمانية، أو حزنًا وكمدًا على سقوطها، لذلك فإن قيام دولة الخلافة ما كان إلا رد اعتبار لكرامة المسلمين وإعطائهم هوية واحدة.

ولعل تقي الدين النبهاني وهو يتباكى على نظام الخلافة العثماني، لم يهتم بإثبات خلافة السلطنة العثمانية، ولم يلتفت إلى أن الليرة الذهبية العثمانية (العصملية) ما زالت موجودة بين أيدي الناس، مسطور على أحد وجهيها بحرف الثلث العربي (دولة علية عثمانية) أي ليست دولة الخلافة العثمانية، وعلى الوجه الآخر مكتوب بحرف الطغرة (السلطان عبد الحميد عز نصره) إذن عبد الحميد ووالده عبدالمجيد وجده عبد الحميد الأول ومحمد رشاد الذي جاء بعده، كانوا سلاطين ليسوا خلفاء، ومن الناحية التاريخية لم يكن هناك واقعة تم فيها تسمية أحد من السلاطين العثمانيين بالخليفة.

وأيضًا أن الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي كان في القاهرة بأحضان المماليك، لم يذكر المؤرخون أنه تنازل لسليمان القانوني بعد انتصاره على قنصوه الغوري في معركة مرج دابق وشنقه في باب زويلة.

ولعل الدولة الإسلامية التي ينشدها ويسميها دولة الخلافة الإسلامية تحتاج إلى كثير من التدقيق والمراجعة، ولا بد من الإجابة على تساؤلات كثيرة منها:

1- هل نظام الخلافة هو النظام الأمثل؟ كان على منظري حزب التحرير أن يثبتوا لنا ذلك، وأن خلافة بني أمية وبني العباس والعثمانيين أنظمة واحدة وتصلح في كل زمان ومكان، ويستعرضون كل أنظمة الحكم في العالم عند الكفار وعند المسلمين ويقنعونا بأن النظام الأمثل هي الخلافة.

2- إن الدولة التي ينشدون تأسيسها هي دولة دينية، هدفها إقامة شرع الله، كما هي دولة سيد قطب، ففي المادة 22 من الدستور الذي وضعوه تقول (السيادة للشرع لا للشعب)، إن هذه العبارة تحتاج إلى توضيح، فهل هو ما جاء في القرآن الكريم فقط؟ أم ما جاء به الأئمة الأربعة؟ أو أحدهم؟ هل ما جاؤوا به هو من عند الله أم من فهمهم للنصوص القرآنية، أليس الفقهاء أيضًا من الشعب الذين يرفضون حكمه؟ أم ما يستنه الخليفة من قوانين؟ إن متطلبات الدولة لا تقف عند حدود ما ورد في الشرع وغير الشرع، إنها في تغيّر دائم ونماء مضطرد ومستمر.

3- وفي البند الرابع من هذه المادة (للخليفة وحده حق تبني القوانين الشرعية فهو الذي يسن الدستور وسائر القوانين) إذن فالخليفة حسب هذه المادة مطلق الصلاحية، حتى في تغيير الدستور، وهذا مخالف للمادة 22 إذ تجعل الحكم للشرع لا للشعب، إلا إذا كان الخليفة من الملائكة وليس من الشعب. وعليه فإنه حكم دكتاتوري بامتياز حسب نص الدستور.

4- في مؤهلات الخليفة تقول المادة 30 يشترط في الخليفة حتى تنعقد له الخلافة سبعة شروط، وهي أن يكون (رجلًا مسلمًا حرًا بالغًا عاقلًا عدلًا قادرًا من أهل الكفاية) نقول هنا هل في شرع الله الذي نزل في القرآن نص على عدم ترشح المرأة للحكم؟ إن ذلك لم يرد في القرآن، فكيف أصبحت هذه المادة شرعية؟ ثم أن يكون حرًا أي ليس عبدًا، فهل في هذا العصر عبيد يمكن أن يترشحوا للرئاسة، فأي خبل هذا الذي يتلبس منظري هذا الحزب.

5- في المادة 26 (لكل مسلم بالغ عاقل رجل كان أو امرأة الحق في انتخاب الخليفة) فكيف يحق للمرأة أن تنتخب ولا يحق لها أن تترشح؟ ومن ناحية أخرى فهذا تناقض مع شروط الشهادة على العقد كما ورد في القرآن، رجلان أو رجل وامرأتان، بمعني أن شهادتها منقوصة، إنه تناقض مع المادة الأولى بأن الشرع هو المصدر، الذي لا يعطي المرأة سوى نصف صوت، فكيف تعطى مثل ما يعطى الرجل في انتخابات الحزب؟ وهذا تناقض في مواد الدستور.

6- في المادة 35 (الأمة هي التي تنصب الخليفة ولكنها لا تملك عزله متى تم انعقاد بيعته على الوجه الشرعي)، فمن يعزله إذن؟ ماذا لو استقطب مجموعة من المنافقين وأصبحوا يتقاسمون معه منافع الحكم والدولة؟

7- في المادة 36 (يعطى الخليفة صلاحيات واسعة ومطلقة في أن يفعل ما يشاء إلا أن يعزل قاضي محكمة المظالم) وهذه المادة تعطي الخليفة تفويضًا بأن يكون دكتاتورًا بامتياز.

8- في المادة 39 (ليس للخليفة مدة محدودة، مادام الخليفة محافظًا على الشرع منفذًا لأحكامه ويبقى خليفة ما لم يطرأ تغير على حاله) هناك خطأ في النص ويجب أن يقال ليس لخلافة الخليفة مدة محدودة، وهذا البند هو ما يعاني منه المسلمون، وعانوا منه قديمًا ويعاني منه العرب، هو النظام الملكي والجمهوريات الملكية، وأعتقد أن الذي صاغ هذه المادة يرى الخليفة موظفًا يطبق تعليمات شرعية وكأنه قاض أو محاسب أو مأمور مستودع، وليس قائدًا مبدعًا لديه رؤية وبرنامج ويمثل طموح الشعب، وأن أفكاره ككل البشر محدودة، ويمكن أن تستنفد في مدة 5-6 سنوات، ويجب إحضار آخر لديه رؤيا جديدة.

مما اقتبسناه من الدستور الذي كتبه شخص في الحزب، يجعلنا نتصور دولة الخلافة التي ينشدها حزب التحرير، بأنها أسوأ من الدول العربية الراهنة، وأن هذا الدستور يصلح أن يكون سيناريو لمسلسل تاريخي، فقد تجاهل التجارب العالمية في سن الدساتير على أنها دساتير الكفار، وهي نموذج آخر من دولة سيد قطب.

4- بعض نماذج الدول الإسلامية

كل ما يقال حول الدولة الإسلامية، ليست إلا حوارات ذهنية ونقاشية لا تعتمد إلا على أفكار ليست وليدة أفكار، إنما وليدة أمنيات وأحلام يقظة، وتصورات تم تلقينها لبسطاء من الناس، لذلك سوف أحاول هنا أن لا أناقش بل أستعرض بعض الدول الإسلامية في تاريخنا المعاصر، ونرى معًا كمحاولة بحثية استقصائية مدى تأثير الإسلام على بناء الدولة سلبًا أو إيجابًا.

نبدأ بالدولة العلية العثمانية التي كانت تحكم أجزاء كبيرة من أوربا الشرقية علاوة على مصر وليبيا وتونس وبلاد الشام والحجاز واليمن وتونس وكردستان والعراق، كانت تهيمن على المسلمين باسم الخلافة الإسلامية، وعلى أوروبا بأن تجعل منهم الباب العالي، أي رئيس الوزراء، فهل كانت ناجحة أم فاشلة، فعلى الذين يهمهم الأمر أن يذكروا لنا نجاح الإسلام ودوره في انهيار الدولة أو صمودها، ولماذا انهارت بسهولة؟ وهل أن جيوش العربان بقيادة لورنس وعودة أبو تايه كانت سببًا في انهيارها؟ أم كان ابتعادها عن الإسلام هو السبب؟ وكيف كان ذلك .. لماذا لم يمنع الإسلام تآكلها؟ ولم يحثها على أن تواكب التطور في أوروبا؟

ومع انهيار الدولة العثمانية ظهرت ثلاثة نماذج للدول الإسلامية أولها جمهورية تركيا حيث نبذ كمال أتاتورك كل ما يتعلق بالماضي من لغة ودين وملابس وغيرها، والروابط الثقافية والتاريخية مع الشعوب الإسلامية، متوجهًا بكل إصرار نحو الحضارة الغربية بخيرها وشرها، وفي المقابل ظهرت دولة أفغانستان التي اكتفت بالموروث الإسلامي فقط، ورفضت كل علم أو حضارة غربية، والنموذج الثالث هو دولة مصر إذ أخذت من الغرب بقدر ما أخذت من التراث.

فهل أضر ابتعاد تركيا عن الإسلام؟ أم جعلها تسبق مصر في تحديث الدولة؟ وهل أفاد التزام أفغانستان بالإسلام أم أضر بها؟ وهل تلكؤ مصر في التقدم راجع إلى التزامها المنقوص بالإسلام؟ أم بالتهيب والتردد بالأخذ بأسباب الحضارة الغربية؟

أما دولة الباكستان التي سميت بالإسلامية نتيجة أفكار وجهود العالم أبو الأعلى المودودي الذي رأى في تشكيل المسلمين دولة مستقلة عن الهندوس فائدة للمسلمين، ولكن هذه الفكرة لم تتم بأيدي إسلاميين بل بمباركة من

بريطانيا العظمى على يد محمد علي جناح اللا إسلامي، فهل جعل الإسلام دولة الباكستان مميزة عن الهند أو عن أية دولة أخرى ؟

ونستطيع أن نعدد من الدول التي أرادت أن ترتدي العباءة الإسلامية كالصومال التي أسلمتها أمريكا نهبًا لجماعات إسلامية، وهؤلاء الإسلاميين لم يفعلوا غير الصراع على الغنائم مما جعل الصومال بلا دولة، حتى أصبح مفهومًا، بأنك إذا أردت أن تدمر بلدًا فأطلق عليه الإسلاميين.

أما السودان الذي يصر على أن يظهر إسلاميًا أو تحت حكومة الإخوان المسلمين، فإنه بفضل إسلامية عمر البشير، فَقدْ فَقَدَ نصفه الجنوبي وربما سيفقد نصفه الغربي في دارفور.

آسف إذ ما أعرض عليكم الواقع السيئ لتفشي الإسلام السياسي، ولا أتكلم عن النعيم الذي سينالنا من حكم الإسلاميين، فآخر ما نُنكب به ما يحصل في مصر وتونس، فهل الدولة الإسلامية تعني استيلاء الإخوان المسلمين على السلطة، إنها الشعارات المضللة، فهناك فرق بين أن يحكم الإسلام المجتمع بقيمه الإنسانية العليا وبين أن تحكمه الجماعات الإسلامية.

ولكي لا يظن أحدكم بأني منحاز للنقد السلبي، سأورد تجربة ماليزيا الفريدة حيث قفز مهاتير محمد بماليزيا من دولة متخلفة إلى دولة من دول نمور آسيا، هل هناك علاقة بين الإسلام وبين تفكير مهاتير محمد الإصلاحي والتقدمي؟ من أين استقى أفكاره واستمد إصلاحاته؟ هل هي من وصايا قرأها بكتاب أصفر؟ أم من عقله العبقري؟

مهما كانت آراؤكم فإني أؤكد أن جميع هذه التجارب الناجحة والفاشلة، ما كان للإسلام دور له فيها، فلا يعزى له قيام دولة قوية وعصرية كماليزيا ولا يحمل وزر سقوط دولة وتحويلها إلى دولة فاشلة مثل الصومال، ولم تزدهر أفغانستان حينما تمسكت بالشريعة الإسلامية، ولم تتخلف تركيا حينما أدار أتاتورك ظهره للإسلام وللتاريخ.

أي جنون هذا الذي نربط فيه عظمة الدولة بإسلامها، وأي جنون ندعو به إلى قيام دولة إسلامية مصيرها الزوال القريب؟ ولماذا لا نقطع الطريق على الطامحين للزعامة من على صهوة الإسلام ورقاب المسلمين؟

5- عوامل انهيار الاتحاد السوفيتي ومرتكزات بناء الدولة الإسلامية

في العام 1991 حيث انفرط عقد الاتحاد السوفيتي، بشكل مريع وصاعق، وكأنه زجاج تكسر أو عمارة من الليغو، ومثل هكذا حدث، أيقظ التساؤلات وحفز الفكر لكي يجد الأسئلة الكافية التي تريح النفس وتسلمه للاطمئنان، ولم يبق كاتب في العالم إلا وتناول بقلمه هذا الحدث الجلل. وأظنهم جميعًا لم تعجبهم نظرية المؤامرة كسبب جاهز لتبرير ما جرى، ولا ما هو معروف عن عمل ال CIA.

ولقد وجدت المسببات التي قالوا عنها على أنها العوامل التي فتكت بهيكل الاتحاد السوفيتي الشامخ وجعلته نخرًا في بنيانه العملاق، وأصبح جسمه ثقلًا لا يكاد يحمل نفسه، وما عاد يقوى على مقاومة الفيروسات والبكتريا، فسقط هذا السقوط المفاجئ.

في هذا الوقت بالذات كانت حركة الإسلام السياسي في أوج تقدمها وانتشارها، وكانت تنادي بالدولة الإسلامية، وكان واضحًا من اندفاعهم أنهم لا يدركون ما يقولون، وكان تصورهم لهذه الدولة لا تبتعد كثيرًا عما قام عليه الاتحاد السوفيتي وكان سببًا في انهياره، فوجدت حينها أن العوامل التي أسقطت الاتحاد السوفيتي هي نفس الركائز التي ينوي الإسلاميون بناء دولتهم عليها، بمعنى أن هذه الدولة محكوم عليها بالفشل المسبق.

ولقد تكلمت حينها بهذا الكلام مع الأصدقاء الذين يهمهم البحث والتحليل، وها أنا أعيده مُقتضِبًا أهم النقاط كالتالي:

1- بناء الدولة الأيديولوجي، أي بناء دولة وفق منظومة فكرية تبدو متكاملة، وعيبها أن تطور الزمن وتغير الظروف يقتضي تغيرًا في هذه الأيديولوجيا، لأن كل أيديولوجيا هي ابنة شرعية للظروف الزمانية والمكانية، لذلك تكون الدولة أمام خيارين، إما أن تكون مرنة وتغير من أديولوجيتها وتساير الظروف أو تظل على تصلبها فتتكسر وتنهار.

2- لا يظن أحد أن أيديولوجية الإسلاميين تختلف عن أيديولوجية ستالين وبرجينيف، بل أن كل الأيديولوجيات لها نفس النظام، النازية والفاشستية والصهيونية وغيرها، فالأيديولوجية فكر جامد غير قابل للتعديل، وهذا ناتج ليس من الفكر أو الدين الذي لا يتغير، بل من حملة هذا الفكر وهذا

الدين، الذين لا يملكون القدرة على التغيير فيه استجابة للظروف، بل يلجئون إلى تقديس فكرهم وتكريسه.

3- وهذا الفكر الجامد، سيجعل الدولة في خلاف فكري مع الدول الأخرى المخالفة، وسوف يتطور هذا الخلاف لاحقًا إلى عداء سياسي واقتصادي وعسكري، وسينبت شعار (من ليس معي فهو ضدي) وهنا سيكثر الأعداء ويقل الأصدقاء، وعندها لن تجد الدولة معينًا لها في أزماتها الخطيرة، إذا لم تكثر السكاكين عليها.

4- سيكون مفكرو وعلماء الدولة الأيديولوجية من المنافقين لأنهم من المفكرين المزيفين أما الحقيقيون المخلصون فمصيرهم الاعتقال والنفي أو القتل، وفي هذه الحالة تكون الدولة عمياء وعاجزة، تسير بلا بصيرة لذلك ستقع في كمائن لا تراها.

5- ومن مظاهر هذه الدولة أيضًا أن حكامها طغمة تقتسم المنافع وتنهب الدولة، وهذا الفساد هو طاعون ينهك الدولة والمجتمع ويجعل الشعب يعيش على الكفاف، وبالتالي ينبت الكره والعداء من الشعب للطبقة الحاكمة.

6- وكل هذه الأسباب تجعل الحكام يستأثرون بالحكم ولا تسمح للأجيال الصاعدة بالمشاركة، مما يجعل الدولة تشيخ بشيخوخة الحكام، ذلك أن كل إنسان مهما كان يملك من أفكار فهي محددة، يطرحها ثم يعيد إنتاجها، لذلك يُدخل الدولة والمجتمع في حلقة مفرغة.

7- لن أسهب أكثر في ذلك، وما عليكم إلا أن تمدوا بصركم على حكوماتنا العربية الراهنة وتستخرجوا الأمثلة من سوريا وليبيا ومصر مبارك ومصر مرسي، فالبعث أيديولوجيا وكتاب القذافي الأخضر أيديولوجيا، ومبارك أيديولوجيا والنظام الملكي أيديولوجيا، كما كانت النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا والشيوعية في رومانيا ويوغسلافيا وألمانيا الشرقية.

6- نحن والتجربة الصينية

تعتبر الصين نموذجًا مذهلًا في كل المقاييس، فتستحق كل دراسة وكل اهتمام، ذلك أن ما بيننا وبينهم كثير من القواسم المشتركة، التي تدفعنا للتساؤل عن هذا السبق السريع في مضمار الحضارة بشكل قياسي، بينما بقينا نحن على جانب الطريق نتفرج ونتعجب، ولعل استعراضًا لبعض التماثلات فيما بيننا وبينهم، يمكنه أن يعطينا درسًا ويخلق فينا أملًا للنهوض من كبوتنا الحضارية.

1- الإرث الاستعماري: كانت الصين ترزح تحت الحكم البريطاني من جهة وتحت الحكم الياباني من جهة أخرى، ولم تكن هذه الدول الاستعمارية معنية بإصلاح الوضع الصيني ونقلها من دولة فاشلة إلى دولة عصرية، بل كانت الأمية فيها تصل إلى 90٪ من الشعب، وتغرقه أيضًا في تعاطي المخدرات التي كانت تدر على بريطانيا الملايين، وهذا غير النظام الإقطاعي الذي لا يهمه الاقتصاد الوطني بقدر ما يهمه الإثراء الشخصي.

وهذا الوضع لا يختلف كثيرًا عن وضعنا في نفس الفترة كالنظام الإقطاعي والاستعمار والأمية والتخلف العلمي والتكنولوجي وانتشار المخدرات.

2- المساحة: تبلغ مساحة الصين 9.5 مليون كيلو متر مربع بما يعادل مساحة

الدول العربية في شمال إفريقيا أما إذا ما أضفنا مساحات الدول العربية في آسيا فإنها تكون ضعفًا ونصف، ونحن لا نعتقد أن مساحة الأرض ميزة في حد ذاتها، إنما تكون بقدر ما نحسن استثمارها، فالإصلاح الزراعي في الصين والتخلص من النظام الإقطاعي جعل الصين مكتفيًا غذائيًا، بل مصدرًا مستفيدًا من كل نبتة تنبت في جبال الصين، طبيًا أو غذائيًا أو جماليًا.

3- السكان: حسب مفهومنا أن عدد السكان الكبير معضلة تواجه حكوماتنا العربية، لكن الصينيين حولوا هذه المعضلة إلى عامل قوة في الاقتصاد والبناء، من خلال إيجاد عمل لكل فرد.

4- التاريخ والحضارة: للصين تاريخ يصل إلى ألفي سنة قبل الميلاد أو أكثر، ولديهم من الإرث الحضاري ما يفوق حضارتنا، ولكنهم نظروا فيما يمكن أن يجعل تاريخهم عصريًا، أما نحن ما برحنا نتغنى به، ونتمنى العودة إليه.

5- الديانة: في الصين أكثر من ديانة، أهمها البوذية والطاوية والهندوسية، وهي ديانات لا نعتبرها سماوية، وأظن الصينيين يميلون مثلنا نحو التدين، ولكني شخصيًا لا أعرف مدى تأثير هذه الديانات على تصرفات وسلوك الأفراد وأخلاقهم ومدى تدخل رجال الدين في السياسة، ومدى مطالبتهم بقيام دولة بوذية أو طاوية أو هندوسية.

إذن ما العامل الذي جعل من الصين قوة عظمى؟ رغم أن وضعنا في العالم العربي أفضل بكثير من وضع الصينيين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد كان كل شيء فيها صفرًا أو تحت الصفر، وفي ظني واعتقادي أن الأسباب التالية قد جعلت الصين على ما هي عليه اليوم وهي:

1- شخصية ماوتسي تونغ الأسطورية: ذلك أن ما فعله في توحيد مقاطعات الصين بعد أن انتزعها من الاستعمار الياباني والبريطاني وجعلها أمة واحدة بمختلف أديانها وقومياتها ولغاتها، هو عمل أسطوري، وذو كفاءة في القيادة الحكيمة.

2- القومية وليس الأممية: وهو ما اختلف به مع ستالين في مضمار النهج الشيوعي، فقد اهتم بالصين أولًا وبالقومية الصينية، ولم يمتد بنفوذه إلى بلاد ودول كثيرة كما فعل الاتحاد السوفيتي، إنما ضرب حول الصين ستارًا حديديًا جعلها منعزلة عن العالم، تبني ذاتها في صمت وحسب خطط مرسومة بينما نحن العرب هناك من يعادي القومية العربية وينادي بالأممية الإسلامية.

3- اللا نموذج: وهو ما ذكره الأستاذ سامر خير الله في كتابه العرب ومستقبل الصين، وهي رؤية نابعة من قناعة ماو بأن الحضارات لا تتماثل، فلم يكن في فكره أن يعيد تجربة الأسر الصينية الحاكمة في الماضي كما نسعى نحن، ولا النموذج السوفيتي ولا النموذج الأمريكي، ليس من قبيل التفرد إنما من قراءته للتاريخ ومعرفته ببناء الحضارات.

4- الثورة الثقافية، طرحت هذه الثورة عام 66 فجوبهت من العالم الغربي بمعارضة شديدة وتشنيع وإنكار، على أنها نوع من التعسف والتجاوز على حقوق الإنسان، ولكنها أثبتت أنها ثورة مفيدة نزعت من أذهان الصينيين كل الموروث الثقافي المعيق لعملية بناء الحضارة.

لست خبيرًا في الشؤون الصينية ولا أعلم بأكثر من أي شخص آخر يسمع الأخبار من الراديو، لذلك فكل ما أوردته من معلومات، يعرفها كل إنسان عادي، ولكن ما أردت أن أقوله هو ما يلي:

1- نحن بحاجة إلى شخصية كرزمية يستقطب الأمة خلف قيادته كما فعل ماوتسي تونغ، وليس وراء الانقلابيين الذين اغتصبوا الحكم من فوق برج دبابة، وحماية من الاستخبارات الأجنبية.

2- إن دعوتنا إلى الأممية الإسلامية كان على حساب الحركة القومية، أو لتقويض القومية العربية التي كانت قبل نصف قرن أدنى إلى التحقق، وأكثر فائدة من مسلمين في النيجر أو ماليزيا، لقد قدم ماوتسي تونغ القومية الصينية على الأممية الشيوعية، رغم أن القومية الصينية ليست بالتماسك كما هي القومية العربية من لغة وتاريخ وثقافة ودين وأصول عرقية.

3- نحن لم نفكر بأنموذج حضاري مختلف، وخاص بالعرب وحدهم دون غيرهم، وهذا ما جعلنا نذهب إلى نماذج شيوعية أو إسلامية أو غربية رأسمالية، فخلق منا بهلوانات مضحكة في سيرك جوال.

4- قال ماوتسي تونغ، (دعوا مليون زهرة تتفتح)، فتفتحت ملايين العقول والمواهب، بينما في العالم العربي هناك ملاحقة للمفكرين والعلماء والأدباء والفنانين، ومراقبة الندوات الأدبية والفكرية ومنع إدخال الكتب والأفكار والعلوم والتكولوجيا، ومساءلة كل شخص عما يفكر به أو ينوي التفكير به، فأحد مديري مكاتب البريد أراد أن يتقاضى مني جمركًا على CD واحد، سبعة دنانير (10 دولار) لأن به برنامج كمبيوتر جديد، وصلني كدعاية من الشركة المنتجة.

5- وقال ماو أيضًا (رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة)، وهذه الجملة تدل على تصور للطريق التي سوف يسلكها الصينيون، وعلى الجهد الشخصي الذي يجب بذله، وأن البدء يجب أن يكون من الواقع وبالتدرج، وما أظن أن الصينيين كانوا خلف الستار الحديدي يلعبون السيجة ويدخنون الأرجيلة، بل ينفذون برنامجًا للنهوض خطوة خطوة، أما نحن فنحلم بالقضاء على إسرائيل بالضربة القاضية.

6- نحن أيضًا بحاجة إلى ثورة ثقافية نقوم بها لتنقية تاريخنا وحضارتنا من كل ما علق بها من أفكار، واتجاهات فاسدة صنعتها عقول فاسدة، ولعل الدكتور طه حسين ابتدأ بتنقية الشعر الجاهلي لكنه حورب وحوصر، وكذلك فعل العقاد بعبقرياته المعروفة وذلك لجلاء صورة الشخصيات

التاريخية وتنقيتها مما أضيف إليها، ولعلنا بحاجة أكثر لمثل هذه الثورة الثقافية أكثر مما كنا بحاجة إليها قبل قرن من الزمن.

7- فما الداعي لأن نجرب المجرب ونقيم دولة إسلامية، ونحن لا ندري كيف ننتخب الخليفة فيها أو الأمير وكيف نزيحه عن الحكم وكيف نحاسبه والمدة الكافية لحكمه، علاوة على الدولة الدينية التي ستكون عدوة لأصحاب الأديان الأخرى والمعتقدات المخالفة.

7- الفرصة التي ضاعت لإقامة دولة إسلامية

أتخِمنا من نصف قرن مضى بالشعارات التي تبشرنا بقيام دولة إسلامية، تفيء علينا بركة وخيرًا وأمنًا، ويحكمنا مسئولون أتقياء يخافون الله ولا يزيغون عن هديه قيد شعرة، وأن أمر هذا الدين سيصلح آخره كما صلح أوله، وإنك لو شكوت من الصداع لقالوا لك الإسلام هو الحل، أو شكوت من ضعف التيار الكهربائي أو تعطلت سيارتك، لقالوا لك الإسلام هو الحل، وأصبح الإسلام تعويذة سحرية لكل شيء، فالمحلات التجارية والمدارس والمستشفيات والمنتجات الصناعية والشوارع وكل شيء صبغ بالإسلام حتى أسماء الأطفال، ولم يبق ما يحول دون قيام الدولة الإسلامية واستلام الإخوان المسلمين الحكم سوى الغرب الكافر وعملائهم في المنطقة الذي يسوؤهم رفع راية الإسلام.

وعند نقطة اليأس هذه، شاع منطق غريب هو أن العرب قد جربوا حكم القوميين والشيوعيين والعسكريين الانقلابيين والليبراليين وكلهم فشلوا، فما الذي يمنع أن يجربوا حكم الإسلاميين؟

إنه طلب وجيه وبديهي في نظر العامة التي كانت تطالب به كاستحقاق عادل ومنطقي وممكن، وذلك راجع إلى اعتقادهم أن الحكم لا يعدو لعبة يتداول استعمالها الأطفال، كل واحد يأخذ دوره، وأن التنازل عن الحكم يكون بأريحية تغيير لاعب في فريق كرة القدم.

ويبدو أن الله سبحانه وتعالى، قد استجاب لضراعات المسلمين في إحدى ليالي القدر، ويتسلم الإسلاميون الحكم في غضون سنة أو تزيد قليلًا، بلا جهد يذكر منهم، في مصر وفي تونس وفي ليبيا وفي غزة، هذا غير السودان، دول متجاورة على البحر الأبيض المتوسط يشكلون شاطئه الجنوبي، تبدو في حجم الدولة الفاطمية ويبدو لكل الذين حفظوا الشعارات، أن الدولة الإسلامية التي خطط لها أو نظّر لها سيد قطب قد حان قطافها، وأنها دولة عظيمة بمساحة ثلاثة ملايين كيلو متر مربع، ستكون نواة دولة المسلمين المنشودة من أندونيسيا إلى المغرب، وأنهم سيملؤون الأرض عدلًا بعد أن ملئت جورًا، هذه الدول الأربع بما فيها غزة ذات التجربة الحمساوية الرائدة في إقامة أول إمارة إسلامية.

أغرب ما في الأمر أن أي واحد من الإخوان المسلمين أكان قائدًا أو مرشدًا أو خطيب جمعة بسيط في مصر أو ليبيا أو تونس أو غزة أو الأردن لم يطالب بوحدة اندماجية أو أي وحدة كونفيدرالية أو وحدة التصاقية أو وحدة ....لا أعرف..!!!، لتكوين دولة إسلامية عظمى، على ماذا يدل غياب هذه الفكرة أو الدعوة، إنها تدل أنها لم تكن في برامجهم أو أحلامهم، وبالتالي تدل على زيف كل الشعارات التي رفعت، وأنهم لم يفكروا بدولة إسلامية، بل بدولة للإسلاميين، وأنا أراهن وأكاد أجزم أنه لو أطلق مثل هذا المشروع، حتى ولو كان إعلاميًا فقط، سيجدون من غير المسلمين تأييدًا ودعمًا، وأدرك الأعداء قبل المؤيدين أنهم على الطريق الصحيح، ولتغيرت المعادلة السياسية ولم يتدخل السيسي وغيره.

وأكاد أجزم أيضًا أنها الفرصة الوحيدة التي ضاعت من الإخوان لتنفيذ مشروعهم الذي حملوه سنينًا، وهو المشروع الذي قام عليه مبرر وجودهم، وأجزم أيضًا؛ أنهم خذلوا كل الذين كانوا يأملون بالتيار السياسي الإسلامي خيرًا، لكي ينقذهم من معاناتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

[6] تحديات الدولة الإسلامية

1- البنية التحتية للدولة الإسلامية

2- الشخصية الملهمة

3- كيف تحمي الشعب من الحاكم

4- الاقتصاد والاقتصاد الإسلامي

5- الاقتصاد الإسلامي واقتصاد الإخوان المسلمون

6- بنية الحزب

7- رواج فكر العوام وانحسار المفكرين

8- قليل من الشك يوقف التهور

9- الفقه البدوي

1- البنية التحتية للدولة الإسلامية

إن من الناس من يخلط بين إنتاج الحضارة وبين استعمال منتجات الحضارة، استهلاك الحضارة لا يلزمك إلا أن تكون صاحب ثروة لكي تمتلك قوة شرائية وبالتالي تنخرط بمجتمع استهلاكي، وتغدو كما هو الطفل الصغير. لا يملك إلا أن يفتح فمه ويمد يده وإلا فإنه يبدأ بالصراخ.

أما إنتاج الحضارة فهو أن تعتلي آخر مدماك في بناء الحضارة المعاصرة ثم تبدأ بإضافة مدماكك الجديد الذي سيسجل باسمك مع صانعي الحضارات، ولكن اعتلاء المدماك الأخير ليس من السهولة تنفيذه كما هو سهل التفكير به، وتصويره بهذه البساطة، إن اعتلاء هذا الحائط الذي يتعالى يومًا بعد يوم، لا بد لتسلقه من أن تبني درجات للصعود هي نموذج مصغر لمداميك الحضارة، إلى أن تصل المدماك الأخير ثم تبدأ عملك هناك، بمعنى أن نستوعب الحضارة الموجودة، وتكون قادرًا على إنجاز ما ينجزه غيرك الآن.

ولكي تبدأ عملك أنت بحاجة إلى أرضية تضع سلمك عليها، هذه الأرضية يجب أن تكون مرتكزًا صلبًا، يسمونها البنية التحتية، وبالإضافة إلى صلابتها يجب أن تؤدي بالضرورة إلى الهدف الحضاري الذي نريده.

إن دولنا العربية جميعها هي دول تابعة، إذ وضع الاستعمار بنيتها التحتية لتكون دولًا تحت هيمنته، وقد فَعَلَتْ ذلك بوعي تام وخبرة سياسية عريقة، في بناء الدول التابعة، وجعلوا كل الزعماء العرب منذ الحرب العالمية الأولى وما بعدها مجرد تابعين لموظف في العلاقات العامة بوزارة المستعمرات البريطانية.

ولقد جعلوا بنيتنا التحتية مكونة من:

1- ملوك وأمراء وسلاطين ومشايخ، كانوا على شاكلة حكام العراق وأفغانستان اليوم، من التبعية التامة للمستعمرين، لا حول لهم ولا قوة، يتوارثون الحكم ويبقون سدنة في محراب سفراء المستعمرين.

2- غرسوا فينا مبدأ التقديس، والتقديس هو أن تلغي تفكيرك ولا يساورك شك أو ريبة بإخلاص الزعماء الموهوبين الذين لن يجود بمثلهم الزمان.

3- صنعوا أجهزة المخابرات القوية الصلبة التي تستطيع أن تعد أنفاس الناس، إذ قام بإنشائها ضباط الجستابو - أي المخابرات الألمانية بعد هزيمة هتلر.

4- لم يجعلوا من التكنولوجيا إحدى مرتكزات البنية التحتية، ذلك أن حضارتنا اليوم هي حضارة التكنولوجيا، لذلك فإن كل الصناعات التي يمكن لأحد أن يتكلم عنها ويفخر بها، إنما هي رهن للصانع الأول في الدول المتقدمة، يتحكم بتوريد القطع والصيانة والتحديث.

5- تستطيعون أن تعددوا بأفضل مني كل المكونات التي تجعل دولنا دولًا تابعة، ولم أذكر هذا إلا لأقول إن الدولة أي دولة نريدها، دولة دينية أو دولة عسكرية أو صناعية أو زراعية أو خدماتية أو سياحية، عشائرية أو نووية، شيوعية أو كافرة أو مُوحِدَة، إنما تحتاج إلى بنية تحتية تؤدي حتمًا إلى ما نريد، وأن بنيتنا التحتية هذه ليست صالحة إلا لإقامة دولة تابعة، وبغير ذلك نكون قد وضعنا شعبنا في قارب ليس به مجداف، تنقله التيارات إلى حيث لا نريد.

إن التفكير في أمر مثل هذا، لا يكفيه عُزلةٌ ليوم أو يومين، ولا شخصٌ يتمتع بكفاءة فكرية عالية، بل فريق من ذوي الكفاءات الفكرية والعلمية، لدراسة جغرافية المكان من حيث الموقع والدول المجاورة والشواطئ والمياه والبيئة والسكان، وما هو موجود من مدارس وجامعات ومستشفيات وغيرها من الجوانب التي لا حصر لها، بحيث يكونون على وعي بكل شيء، ويرون المستقبل الأصلح لهذا البلد، وبالتالي التفكير بخطة للانتقال من هذا الواقع الماثل إلى ما نريده، كالتوصية بأن تكون دولة سياحية مثلًا أو صناعية أو غير ذلك.

نستنتج من هذا أننا إذا أردنا أن نقيم دولة إسلامية أو دينية، لا يكفي أن تقام ذهنيًا، فهذا مريح وهين على أي شخص، بل تقام على أرض حقيقية، ونعرف يقينًا على ما نقف عليه، وإن قرار إقامة دولة دينية أو عسكرية ليس حسب إرادتنا، إنما حسب ما هو متاح.

والآن وصلنا إلى الأسئلة المشروعة التي نبغي طرحها على منظري الدولة الإسلامية أو مناصريها:

1- في أي بقعة من الأرض تريدون إقامة الدولة الإسلامية؟ أم أن الدولة الإسلامية يمكن أن توجد بوجود مسلمين في أية بقعة من الأرض، كما قال السيد قطب؟

2- هل البنية التحتية للدولة إسلامية هم المسلمون فقط؟ وكفى هذا مطلبًا؟ أم وجود الأحزاب الدينية كحزب التحرير والإخوان المسلمون والسلفيين وغيرهم.

3- ما هي الحضارة التي يرجونها من الدولة الإسلامية، هل هو نشر الإسلام أم المحافظة عليه، فالإسلام ليس بحاجة لمن يحافظ عليه، فاللّه تكفل بذلك، (إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وليس بحاجة لمن ينشره (فاللّه غالب على أمره).

4- إن العدل والمساواة ورغد العيش والأمن التي يبشرون الناس به، موجودة كلها في دول الكفر والإلحاد، أي وجدت بغير وجود دولة إسلامية، هذا لا يعني أن نصبح كفارًا لنصل إلى ما وصل إليه الكفار، بل الاعتقاد الجازم بأن حكم الإسلاميين لا يعني بالضرورة أن الدولة ستكون إسلامية، وإنهم سيطعموننا من جوع ويؤمنوننا من خوف.

2- الشخصية الملهمة

هذا موضوع قلما تناوله الكتاب والمحللون بالبحث، ذلك أنه من الجانب المستور الذي لا ينبغي الكشف عنه والتعريف به. ووصفه بعض الذين عرفوه بأنه مبدأ اللا نجومية، بمعنى أن لا يكون لشخصية ما في أي دولة عربية نجومية تقترب من نجومية الملك أو الأمير أو الرئيس، ذاك أن هذه النجومية السياسية تعتبر خطرًا على الزعيم، فمبادئ الحكم عندنا قائمة على أن يكون الملك أو الرئيس أو الأمير أو السلطان شخصية فذة، لها قدرات خارقة، وظاهرة غير طبيعية في الجنس البشري، وبما أنه لا يملكها، فإن أجهزة إعلامه غير الماهرة بالرسم، ترسمه رسمًا كاريكاتيريًا لا يصدق، وأجهزة المخابرات تصوره مقدسًا ومرعبًا، فيغدو مضحكًا مبكيًا، بينما نقول في مجالسنا الخاصة حينما نأمن عدم وجود مخبرين كلامًا عكس ذلك تمامًا، وحينما يموت لا يذكره أحد.

لذلك فإننا على وسع العالم العربي لم نحظ إلا بشخصيات سياسية قليلة تتمتع بالجاذبية والحضور والهيبة والقدرة على الإقناع، بسبب تقزيمهم لكل أفراد الرعية وتغييب المبدع عن الأنظار، وعدم السماح لها بالاقتراب من سقف الزعيم الفذ.

ولقد وجدنا في قراءتنا للتاريخ وخاصة عند نشوء حضارة ما، أو دولة مميزة، أن هناك شخصًا ملهمًا يكون كما هو المغناطيس، يجد كل فرد في المجتمع أنه منجذب نحوه، بل أن سحره يتجاوز عصره إلى العصور اللاحقة، والأقوام الأخرى، يتحرك الناس حيث يتحرك، كأنه يوحي لهم وحيًا بما يريد وبما يفكر.

في التاريخ هناك شخصيات مشهود لها، بمدى تأثيرها في شعوبها والشعوب أخرى، فالرسول محمد ﷺ شخصية رائعة مؤثرة وكذلك عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعبد الرحمن الداخل وصلاح الدين الأيوبي، وفي الأمم الأخرى وجدنا الإسكندر المقدوني وهاني بعل وجنكيز خان، ولعلنا نذكر أيضًا نابليون وتشيرتشل وهتلر وستالين وماوتسي تونغ وغاندي ومانديلا ومارتن لوثر كنج وجيفارا، وفي عالمنا العربي وجدنا مصطفى كامل في مصر الذي أثر في الحركة الوطنية ولم يبلغ الثلاثين من عمره، وكذلك وجدنا جمال

عبد الناصر وياسر عرفات، ولن نطنب في ذكر هؤلاء الأشخاص الذين أثروا في بلادهم بما لم يؤثر بها غيرهم، ودخلوا التاريخ في مرتبة عظماء.

هذه الشخصية تسمى بالشخصية الكرزمية، ولقد أطلقها المفكر الإنجليزي ماكس فيبر على الشخصية ذات الألق الواضح، الذي يثير الإعجاب من أول وهلة، في وصفه لبعض السياسيين العظماء، وكلمة (charisma) ذات الأصل اليوناني تعني قدرات الروح القدس، أي المعجز، لذلك فإن قيام أية دولة ناجحة أو انعطاف تاريخي لا بد لها من شخصية مثل هذه الشخصية، ولكي لا ننتظر الوعود التي يؤملنا بها الدعاة في أخبار آخر الزمان، وما جاء بكتاب الجفر المنسوب لعلي بن أبي طالب، دعونا نطنب في وصف هذه الشخصية:

1- إن الكرزمية موهبة ربانية تولد مع الإنسان كموهبة الشعر والغناء لا يملك أحد إنكارها أو تعلمها، فهذه الشخصية لا تخطئها العين، يجذبك إليها سحر لا تدرك مصدره، تصبح محط إعجابهم وثقتهم، أنّى حطوا أو رحلوا، تجد نفسك قريبًا منها، أو أنها الشخصية التي تبحث عنها.

2- لها قدرة كبيرة على الإقناع، ربما ذلك راجع إلى حب الآخرين له، ذلك أن من تحب ترى فيه الكمال وتتعلم منه وترى قوله صائبًا دائمًا.

3- الشخصية الكرزمية هي شخصية إبداعية بالفطرة، لا ينقل عن الغير ولا يقلد أحدًا، ولا يقتبس من أحد، واثق بنفسه، قادر على التأثير في الآخرين، يتكلم فيما هو مهم، ويدخل إلى صلب الموضوع، ربما أن أفكاره ومشاريعه الجديدة هي التي تبهر الجميع، إذ يجدون في أفكاره ما يبحثون عنه.

4- يجيد لغة الجسد، فهو يتكلم بأسلوب يجعل المستمع إليه مشدودًا وأكثر تركيزًا وانتباهًا، يستعمل الطبقة الصوتية المناسبة وحركات الجسم المناسبة التي تزيد من تأثيرها في المتلقي، ويحسن الإمساك بتلابيب العواطف، ومن ثم الدخول إلى عقولهم.

5- يكون محط ثقة وتصديق الجميع، فهو يعرف كيف يصوغ مبادئه ويبنيها بناء متماسكًا، ولا يخرج عنها، إنه ليس متخشبًا ولكنه رجل مبادئ وقيم وأخلاق.

6- له القدرة على السيطرة على من هم حوله، وهي سيطرة يتقبلونها منه، بل يسعون إلى أن يكونوا من أنصاره أو التابعين لقيادته، ومن هنا تكون قيادته مريحة وسلسة، وله شعبية طاغية، يتفهمون أخطاءه وتجاوزاته.

نعود الآن إلى دعاة الدولة الإسلامية ومؤيديها، ونسألهم هل لديكم قائدًا له هذه الكرزمية؟ رجل يعطي لمشروعكم الزخم والمصداقية، أنا أعتقد أنه غير موجود، ولو أنه موجود لظهر، ولكني أرى أن أحدًا لم يفكر بهذا الأمر، ذلك للأسباب التالية:

1- إن منهج الحركات الإسلامية منهج اتباعي وأصولي، والاتباعي بداهة هو غير إبداعي بالفطرة، ولو وجد مثل هذه الشخصية الكرزمية الضرورية للحركة، فلن تكون مقبولة في تنظيم من الاتباعيين.

2- وبما أن منهج الاتباع مريح جدًا وخاصة للبسطاء الذين يبحثون لأنفسهم عن موقع اجتماعي، ذلك أن منهج الاتباع لا يكلف شيئًا من الجهد الفكري والاطلاع المتشعب والاستقصاء وعناء اجتراح المستقبل، فهم ليسوا أكثر من تلاميذ يحفظون ما يتلى عليهم ولا يناقشون إن كان معتقده صائبًا أو لا.

3- إن خطاب الإسلاميين، هو خطاب تقريري، وليس خطابًا جدليًا، يغوص في الأساسيات وينطلق إلى ما هو جديد، ويقارن وجهات النظر بأسلوب علمي، ذلك أن أسلوب الوعظ والإرشاد هو الغالب، وليس التحليل والبحث والتركيب والتجديد.

4- يجنح الإسلاميون إلى إظهار شخصية الخطيب المفوه، الذي يملك تأثيرًا صوتيًا في المتلقين، مثل محمد حسان وسيد كشك والعريفي ومجموعة الدعاة الشباب، إن الخطابة ترسخ أفكارًا معروفة، وليست لطرح أفكار جديدة ومناقشتها.

إن هؤلاء الأشخاص صنعتهم أجهزة إعلامية تعرف غايتها، ومن هنا يكونون تابعين وليس قادة، إنهم يمشون على خطى الأقدمين، ولا يدرون أنهم يمشون على أرض غير أرضهم، ويجرّون أتباعهم خارج وطنهم وقضاياهم.

3- كيف نحمي الشعب من الحاكم ؟

هل سبق أن اجترأنا على مثل هذا المطلب؟ أو على موضوع يدانيه أو يقترب منه؟ أم تراه هاتف من بعيد، ضل طريقه إلى أسماعنا؟ فمجرد أن يساورك هذا الأمر لدليل أنك اجتزت الخطوط الحمراء وأصبحت في موقع الخطر، وأصبت بعدوى الرفاهية السياسية، التي لا تستقيم مع مفهومنا للسياسة والسيادة والولاية والوصاية والسيطرة، ومفهومنا للزعيم الأوحد والخالد، والزعيم الذي للأبد، والذي يقوم بحماية شعبه من الأعداء ويوفر له السلامة والأمن وسبل العيش، وعلى أحسن ما يكون.

سؤال يقوم على افتراض أن تكون هناك قوة أكبر من قوة الحاكم لكي تكف يده، من أن تتغول على شعبه، ويستقوي بعصبته على فئات الشعب المختلفة، إنه افتراض ذهني لا سابق له، فلو جئنا بحاكم يحكم الحاكم لأزاله فورًا وأصبح حاكمًا مكانه.

إذًا فهي معادلة صعبة أن تجعل قوة مهيمنة على قوة أخرى من غير أن تلغيها أو تستبد بها، بل تخشاها وتحسب لها ألف حساب، هذه المعادلة لا يمكن أن تقوم إلا في خيال مبدعي القصص والروايات، لذلك فإن هذا المقال لن يلبي أمنيات الذين تفتحت شهيتهم لتقليم أظافر الطبقة الحاكمة، وخاصة أن القلوب مفطورة والجراح كثيرة، لما يجري في البلاد العربية من تصارع الحاكمين وطالبي الحكم، فقد أصبح الشعب فريسة تتجاذبها السباع، ويسلمها الصراع إلى الموت.

فلنقل أولًا أن لا حاكم في العالم يقبل أن يأتمر بأمر أحد، من ناحية المبدأ، لأن جميع الحكام الذين استولوا على الحكم أو الذين ورثوا حكمًا، سيديرون الحكم، بما يخدم سيطرتهم التامة، يعاونه مجموعة منتقاة من المنتفعين المنافقين.

ونحن العرب والمسلمين، ومنذ استيلاء معاوية على الحكم لم يتسلم أحد الخلافة أو الحكم بالبيعة الصحيحة، ولم يتنازل عن الحكم أحد، إلا بعد أن يطيح السيف برأسه، ثم يأتي من بعده آخر، ليلقى هو أو أولاده أو حفدته نفس المصير، ويظل الناس يعانون من هذه الصراعات ويقاسون ويلات الاستبداد والعنف.

وما كان الأوروبيون وباقي أمم الأرض بحال أفضل، بل كانوا يعانون وأكثر، لكنهم مضوا في تغيير أساليب الحكم كي لا يكون الحكم مطلقًا، وهذه الرحلة كانت خضمًا من الصراعات والتضحيات، ولم يتوصل الأوروبيون إلي نظم سياسية ديمقراطية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، التي أهلكت أربعين مليونًا من البشر.

أما تجربتنا الحديثة في الحكم، فقد حاكها الاستعمار البريطاني والفرنسي، إذ راح يحكمنا بملوك وأمراء ودايات وبايات وسلاطين ومشايخ صنعها لتسيطر باسمه على شعوبها، أحكم صنعها لكي تنفذ له سياسته الاستعمارية، ولم يكن لنا يد في تنصيبهم أو إقصائهم، لذلك حينما جاء عصر الانقلابات العسكرية بعد أفول نجم بريطانيا وفرنسا، لم نكن ندري أنها انقلابات لصالح أمريكا، التي كانت ترث بريطانيا العظمى وفرنسا، وأصبح هؤلاء الانقلابيون تابعين للاستخبارات الأمريكية، بدلًا من وزارة المستعمرات البريطانية، ولم يكونوا أكثر من لصوص استولوا على مئات الآلف من الكيلومترات المربعة، بما عليها من بشر وحيوانات وأشجار وثروات طبيعية وهل كان اللص يومًا يعف عن غنيمته؟

وافترَضَ هؤلاء الانقلابيون أن الشعب لا يملك القدرة على انتخاب رئيس له، وربما خوفًا من أن ينتخب الناس رئيسًا من الإسلاميين، لذلك لجأوا إلى مجلس الأمة لانتخاب رئيس الجمهورية، مما جعل الرئيس يحابي مجلس الأمة ويعد قوائم المرشحين مسبقًا، ويساعدهم على النجاح ويساعدونه على إعادة انتخابه بنسبة 99.9 وفي رواية أخرى 100٪.

هذه اللعبة السمجة أوقعتنا في ورطة لا مخرج منها، وبما أن دوام الحال من المحال، فإنها أنتجت احتقانات سياسية واجتماعية وربيعًا عربيًا داميًا ، الربيع العربي ليس صناعة أحد ولا مؤامرة حيكت في الظلام، إنما هو ناتج طبيعي لطغيان الحاكم الواحد لمدد طويلة، وضعف الشعوب وقلة حيلتها لتغيير الوجوه، مما حدا بأحدهم لأن يستثمر في مشاكلات الشعوب وقرفهم، فكان احتلال العراق بتسهيل من المعارضين، وكانت الكارثة، وما زالت الكوارث تتوالى بأشكال مختلفة من التدمير والتشطير.

علينا أن نكون على ثقة بأن جميع الحكام العرب لن يتركوا غنيمتهم التي سلبوها أو ورثوها، فإما أن تبقى غنيمتهم لهم أو لا تكون لأحد، لذلك فعلى عقلاء عالمنا العربي وجميع الأحزاب السياسية والمفكرين الاستراتيجيين

والسياسيين العاملين والمتقاعدين، أن يولوا هذا الأمر أهميته فائقة، إنها قضية مستحدثة، لا ينفع معها قراءة التاريخ ولا وصايا الأنبياء، ولا مقالات الأدباء، إنها بحاجة إلى ورشة عصف ذهني عارمة.

ولقد سبقتنا بريطانيا إذ عصفت بها في القرن السابع عشرة أزمة سياسية وحرب أهلية بين أنصار الملك تشارلز الأول وبين كرومول المعادي للملكية، وانتصر كرومل وتم إعدام الملك، لكن الجدال لم يتوقف بين فيلسوفين هما (تومس هوبز) المناصر للملكية المطلقة التي لا تجيز الخروج على الملك ما دام قد نصبوه ليدير أمورهم، لكن الفيلسوف الشاب (جون لوك)، قال بالعقد الاجتماعي الذي يتوجب فيه فسخ العقد إذا أخل الحاكم بشروط هذا العقد، ومع الزمن انتصرت أفكار جون لوك، وأصبحت الملكية في بريطانيا مقيدة، وانتقلت إلى فرنسا على لسان جان جاك روسو، وسارت إلى العالم الجديد فأشادت الحضارة الأمريكية الحديثة، ذلك بسبب أفكاره الحية التي أمكن تطويرها في الولايات المتحدة ليبنوا بها أعظم دولة.

استوقفني المادة 35 من دستور الدولة الإسلامية الذي وضعه حزب التحرير الإسلامي، والتي وجدتها تتماشى مع هوبز في الدعوة للحكم المطلق، والتي نصها (الأمة هي التي تنصب الخليفة ولكنها لا تملك عزله متى تم انعقاد بيعته على الوجه الشرعي). إذن من يملك عزل الخليفة؟ والمادة 39 التي لا تحدد مدة معينة لحكمه، ونصها (ليس للخليفة مدة محدودة، فما دام الخليفة محافظًا على الشرع منفذًا لأحكامه، قادرًا على القيام بشؤون الدولة، يبقى خليفة ما لم تتغير حاله تغيرًا يخرجه عن كونه خليفة، فإذا تغيرت حاله هذا التغيّر وجب عزله في الحال).

وهنا نتساءل أليست أنظمة الحكم العربية الحالية التي نجأر منها بالشكوى أكثر تقدمًا من خليفة يمضي في الحكم إلى ما شاء الله ولا يمكن عزله، ولا أحد يضمن لنا نزاهته واستقامته، وعدم استغلاله لمنصبه، وما يدرينا أن من حوله لن يفسدونه، وإنه لن يفسد من حوله؟ وكيف نقنعه بخطئه وقد استبد واستوى على عرشه؟

أنا لا أناقش دستورًا لا أدري من كتبه في حزب التحرير، ولكني أقول إن فكرة تقييد الحاكم وجعله تحت الأنظار، ومرَاقبًا من قبل أكثر من مؤسسة قادرة على ردعه وقادرة على محاسبته والإطاحة به؟ هي فكرة غائبة عن أذهاننا تمامًا.

4- الاقتصاد والاقتصاد الإسلامي

قبل ثلاثين سنة، كنت قد كتبت عدة مقالات في جريدة صوت الشعب التي كانت تصدر في عمان عن المفاهيم التي تبنى عليها العلوم الإنسانية كالسياسة والتربية والقانون وغيرها، هذه المفاهيم التي تبدو لمعتنقيها أولية، وصادقة بالبداهة، وقد نشرت مقالًا عن المفاهيم الاقتصادية، وقلت إن الاقتصاد قائم على مفهوم الملكية، فالنظام الرأسمالي قائم على مفهوم أن المالك هو الإنسان الفرد، ويحق له أن يملك ما شاء وكيفما شاء، أما النظام الشيوعي فقائم على أن المجتمع هو الذي يملك، وعلى كلا المفهومين بُنيَ الاقتصاد الرأسمالي والاشتراكي، أما نحن المسلمين فمفهومنا بأن الله هو المالك، وعلينا إذن، إن أردنا أن نقيم اقتصادًا إسلاميًا، لا بد أن يرتكز على هذه المفهوم الراسخ في أذهان المسلمين بأن الله هو مالك الملك.

وبما أن أفكاري هي أفكار ذهنية خالصة، ولأن الإسلاميين يسمعون الأشرطة وخطب المنابر ولا يقرؤون، فإن أحدًا لم ينتبه لمثل هذه الوتوتة الخافتة التي ما كانت لتعلو على صراخ الإسلاميين الذين يهتفون بالاقتصاد الإسلامي في خضم أسلمة كل شيء، فالدولة إسلامية والسياسة إسلامية والطب إسلامي والمستشفيات إسلامية والتعليم إسلامي والمدارس إسلامية والاقتصاد إسلامي والبنوك إسلامية وشركات التأمين إسلامية، والعلوم النووية إسلامية وقنبلة باكستان النووية إسلامية، ولم يبق إلا أن تكون السيارات والشوكولاتة إسلامية.

أعتذر من كل الذين يرون في كلامي تهريجًا وسخرية مجانية، فقضية كبرى لا تؤخذ بالخطابات ولا بالحماس الديني، بل بالفهم الذي يعطينا العلامات الواضحة على الطريق، وعلينا أن نفهم الاقتصاد كالتالي:

1- الاقتصاد علم عملي: أي أن جدواه تكون ملموسة وواضحة للعيان أي بمعنى أن النظام الاقتصادي الأفضل، هو الذي يلمس الناس جدواه وفائدته، ولا يكون بكيل المديح له على الورق أو المنابر، إن الثقافة العالمية اليوم، هي ثقافة برجماتية قائمة على تقديم المفيد والأفضل، في الاقتصاد وغيره ولا يوجد من يتعصب للتراثي أو المقدس، إلا أن يكون مفيدًا، ومن هنا نقول، عندما يكون الاقتصاد الإسلامي نظامًا متقدمًا، ستلمس الأمم فائدته ويشعرون

بجدواه، أو العكس حينما يلمسون فوائده سيكون نظامًا متقدمًا، عندها سنجد كل اقتصاديي العالم على بابنا يطلبون منا الخبرة الاقتصادية الإسلامية، ولن ينظروا إن كان اقتصادًا إسلاميًا أم لا.

2- علاقة السياسة بالاقتصاد: إذ لا يستقيم أن نبحث الاقتصاد بمعزل عن السياسة ولا السياسة بمعزل عن الاقتصاد، لأن الاقتصاد يصنع السياسة بقدر ما أن السياسة تصنع الاقتصاد، فكل الذين ينادون باقتصاد إسلامي، لا يمكن أن يكون لكلامهم وقع إلا على سياسة قائمة، ويكون الاقتصاد على مقاسها، وإن قويت السياسة قوي الاقتصاد، وإن ضعف الاقتصاد ضعفت السياسة.

3- الربا: لا يذكر الاقتصاد الإسلامي إلا ويذكر الربا، وكأن الاقتصاد هو الربا، فالربا ليس اقتصادًا، وعليه فقد قسم الإسلاميون الاقتصاد إلى قسمين: اقتصاد ربوي وغير ربوي، وفرق كبير بين الربا والاقتراض الرأسمالي، الربا أن يقترض الشخص المعدم الذي لا يملك عشاء لعائلته، صاعًا من الشعير ليسد عن أولاده غائلة المخمصة، ويعيده صاعًا ونصف، هذا لا يجوز أخلاقيًا وبالتالي لا يجوز دينيًا، لا في المسيحية ولا في الإسلام، فلو كان هذا المعوز يملك مصدر رزق دائم لما استدان، أما الذي يقترض من بنك مبلغ عشرة ملايين دولار، لا أظنه يريد أن يداوي زوجته المريضة، إنه سيبني مشروعًا يدر عليه مبلغ مليون دولار سنويًا كما يجب أن يكون الريع مؤملًا، لذلك فهذا ليس ربا إنه تنمية واستثمار، لن يستفيد منه المرابي فقط، بل عشرات أو مئات الموظفين والعمال والتجار، الذين هم يعيلون منه عائلات ويبنون مجتمعًا، ويرفدون خزينة الدولة بما يؤديه من ضرائب.

4- إن مبدأ المشاركة التي تعتبر بديلًا إسلاميًا حلالًا، سيكون أخطر على المجتمع من أخذ الربا، لأنه يمهد لنفوذ أصحاب رؤوس الأموال إلى الاستحواذ على الاقتصاد ومقدرات المجتمع، بأن يكونوا شركاء بكل مشروع، وبذلك تصبح الأموال دولة بين الأغنياء وهو ما حذر الله منه بصريح الآية (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم).

5- إن المشاركة في المشروع الذي تمارسه البنوك الإسلامية، ليست أكثر من تلاعب بالألفاظ، فحينما يبيعني البنك الإسلامي بيتًا يكون ثمنه يساوي ثمنه الأصلي مضافًا إليه الأرباح الربوية، فما الخدمة الحقيقية التي تم تقديمها للمواطن؟ بل نتساءل، ألم يقدم الفقهاء بتخريجاتهم الفقهية هذه خدمة مجانية لأصحاب البنوك الإسلامية الذين لا نعلم عن إسلاميتهم شيئًا؟

وأفادوا أصحاب رؤوس الأموال فقط وما أفادوا المواطن المسلم أو المسيحي المسكين.

6- إن الاقتصاد علم، والعلم هو البحث بما هو واقع، وبما أن الواقع هو متغير بطبعه، فإن العلم سيكون بالضرورة متغيرًا، وبالتالي مختلفًا، فيلزم بالضرورة أيضًا أن يكون لكل مكان وكل دولة اقتصادها المناسب وسياستها المتسقة مع الاقتصاد، فبنية الاقتصاد في الكويت ليست كما في جيبوتي، وما في اليابان ليس كما في الكنغو.

7- ظهر في الثمانينيات اقتصاد المرابحة، وظهر الريان في مصر وظهر أيضًا في كل بلد أفّاقٌ مثله، وجمع الملايين بل المليارات وهرب بها إلى سويسرا أو أي مكان، وكان فعله هذا بمباركة الحركات الإسلامية أو غض الطرف عنها، أو عدم القدرة على فهم أبعادها، فلماذا لا تتحمل حركة الإخوان المسلمون هذه التبعة النكراء؟ حيث تم تشليح الغلابى من مدخراتهم، بسبب فتاوى أناس لا يفهمون شيئًا في الاقتصاد.

8- الاقتصاد بما هو اقتصاد، أكان رأس ماليًا أو اشتراكيًا أو إسلاميًا أو بوذيًا أو ملحدًا كافرًا يتكون مما يلي:

أ- (رأسمال) : لا يوجد اقتصاد بلا رأس مال، فرأس المال هو المادة الخام التي يبنى بها أي اقتصاد، إذ لا اقتصاد بلا رأس مال، أو بلا مبالغ هائلة من المال.

ب- (رجال أعمال) : ذلك أن المال بحاجة إلى من يحركه ويعرف كيف يديره، بخبرة ومهارة.

ولا بد هنا من رجال الأعمال الخبراء في فتح المشاريع الاستثمارية.

ت- مهنيون وتقنيون وخبراء في العمل والإدارة والتصنيع والتطوير.

ت- (بنية تحتية) : وتشكل الأرضية التي يبنى عليها رأس المال بنيانه من خبرات وأيدي ماهرة وتقنيات ومواصلات واتصالات وبيوت مال وعلوم حديثة ومصانع ومراكز بحث وغيرها.

ث- (مواد خام أولية) : ثروات طبيعية ومياه وتربة صالحة وشواطئ وأنهار وغيرها مما يجعل الاقتصاد مبنيًا على موجودات حقيقية، وهي تشبه التربة لتجعله ناميًا متحركًا.

ج- ويعتبر (ميزان التجارة) الخارجية المتبادلة أكبر دليل صحة وسلامة الاقتصاد أو عدمه.

9- هنا، وإذا ما توفرت مستلزمات هيكلة الاقتصاد كاقتصاد، يحق حينها أن نسمي هذا الاقتصاد إسلاميًا، أو ما شاء من الأسماء، فحينما يجيء الصبي نصلي على النبي.

5- الاقتصاد الإسلامي واقتصاد الإخوان

بعد كل هذه الهيصة لإقامة اقتصاد إسلامي كبديل للاقتصاد الربوي، لم نجد بديلًا معقولًا ـ ونحن في انتظار الاقتصاد الإسلامي ـ غير الشتائم التي تكال للناس عامة بأنهم يأكلون الربا، من على منابر المساجد، لكأنما يروق لهم جلد الذات والنواح على هذه الأمة التي وصلت الهاوية.

ونقول للذين يفكرون معنا، ولا يأخذون الكلام على عواهنه، لكي يشاركونا الإدراك بأن الاقتصاد ليس علمًا مدرسيًا، بل هو علم عملي وتجريبي أيضًا، وأن أي إنسان أو جماعة بإمكانها تجريب قناعاتها وتصوراتها الاقتصادية عمليًا، فإن لاقت نجاحًا فإن الناس سيتبعونها أكانوا مسلمين أم كفارًا، فالمسلمون الذين كانوا يومًا يمارسون التجارة الدولية بين أوروبا والهند، اخترعوا الشيك كوسيلة للدفع، ولفظه (شيك) مأخوذة من كلمة (صك) وهي كلمة فارسية، ولم يقل أحد يومًا أن هذا هو اقتصاد الإسلامي، بل هذه إضافة اقتضتها التجارة الدولية من العرب المسلمين، لأن الاقتصاد علم ينمو بالتراكم وبمطلب الضرورة، فالاقتصاد ككل العلوم ليس له هوية مثله مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات، لذلك لا يجوز أن نقول اقتصاد إسلامي أو مسيحي أو يهودي، كما نقول: اقتصاد أمريكي أو إنجليزي أو عربي، أو شيوعي أو رأسمالي، الاقتصاد هو علم الاقتصاد.

ولسوء فهم معنى الاقتصاد لدى العامة الذي رسخ في أذهاننا من خلال المناداة بأسلمة كل شيء، الذي جاءنا مع ركائب الدعاة القادمين إلينا من السعودية، والذين جاؤوا ليعلموننا ديننا من جديد، والذين رأوا في بنوكنا نظامًا ربويًا غير إسلامي، ولم يكن ذلك نابعًا عن دراسة الاقتصاد العالمي إنما لأن البنوك في المملكة العربية السعودية تقرض قرضًا حسنًا للسعوديين فقط، أي بما أنه لا أرباح يتقاضاها البنك، إذن فإن البنوك السعودية هي بنوك إسلامية، إن في هذا لتضليل واضح، فالاقتصاد السعودي اقتصاد ريعي وليس اقتصادًا يقوم على الإنتاج، بل يأتي من البترول فقط، أي أن الدولة تصرف على شعبها بطريقة ذكية، بأن تعطي مواطنيها أموالًا عن طريق البنوك بلا أرباح لتنمية البلاد وتقدمها، فالدولة لا تريد الربح إنما تعطي البنوك أتعاب الدفع والاقتضاء فيظن البسطاء أن البنك لا يربح، إن هذا ليس اقتصادًا إسلاميًا، ولو

كان إسلاميًا لوجب أن يستفيد منه كل المسلمين من العرب وغيرهم وليس السعوديون فقط.

إذن فمقولة الاقتصاد الإسلامي ما هو إلا (زعبرة) لا طائل منها من الناحية العملية أو الواقعية، فالاقتصاد يتحرك ويتطور حسب عوامل يتفاعل بعضها ببعض؛ كمستوى التحضر وعلاقاتها بالاقتصادات العالمية، ومدى ثرائها الطبيعي، فتجربة الإخوان المسلمين الاقتصادية ترينا مدى تهافت دعواتهم لإقامة اقتصاد إسلامي فريد.

ولعل التجربة الأولى التي ما زالت ماثلة وما أعرفه أنا شخصيًا أن موجودات الإخوان المسلمين في الأردن من مستشفيات ومدارس وكليات جامعية وجامعات وبنوك وأشياء لا يعلمها إلا مسؤولي الضرائب، والتي تم تقديرها حينما عزمت الحكومة الأردنية وضع يدها على ممتلكات الجماعة حين اصطدمت معها ذات يوم، حينها قدرت ممتلكات الجماعة بمليار ونصف دينار أردني أي مليار دولار.

وهنا يجدر بنا أن نتساءل إن كانوا يمارسون في اقتصادهم هذا في الأردن بموجب القرآن والسنة الشريفة؟ أم أنهم يمارسونه وفق رؤيتهم للربح والخسارة؟ كأي اقتصاد رأس مالي هدفه الربح والربح فقط.

ونتساءل أيضًا عن التوظيف الانتقائي في مؤسساتهم، فهل كان من أهدافهم إيجاد وظائف للمواطنين، مسلمين وكفارًا، كما هي أهداف كل اقتصاد قومي، أم الهدف هو تنفيع المنتسبين لجماعة الإخوان المسلمين، إن جميع الأردنيين يعلمون علم اليقين أن مؤسسات الإخوان المسلين ما هي إلا للإخوان المسلمين فقط، ويستحيل على أحد من غير الجماعة العمل في هذه المؤسسات مهما كانت خبرته وقدرته، أكانت وظيفة عامل نظافة أم في التخصصات الطبية الحديثة.

إن الإسلام الذي جاء لإسعاد البشرية قاطبة مهما كان دينها واعتقادها، انحصر على أيدي الإخوان المسلمين لإسعاد أعضاء جماعة الإخوان فقط، وليس لأبناء عمومتهم أو جيرانهم أو عشيرتهم، ناهيك عن المشركين والملحدين والكفار ومنتسبي الطوائف الأخرى والمسلمين غير المنضمين للجماعة.

إن قياديي الإخوان المسلمين الذين أشبعونا شتمًا وباعونا أوهامًا بأن الدولة الإسلامية سيكون بها كل شيء إسلاميًا ابتداء من الخليفة وحتى مياه الشرب،

لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا مفيدًا حينما ملكوا رأس المال وبالتالي القدرة على صنع نموذج للاقتصاد الإسلامي الذي يروجونه لنا.

إن ريع هذه المؤسسات والأموال لا أظنها تذهب لفقراء المسلين إنما للصرف على الحزب ومنشآته وقياداته، إذ لا يوجد جمعيات ومؤسسات لها تعنى بالطفولة والشيخوخة والعلاج المجاني كما تفعل المؤسسات الدينية المسيحية مع المسلمين وغير المسلمين.

أما ما هو موجود في مصر فإنه شيء خيالي أيضًا، فإن أموال خيرت الشاطر هي أكبر من أن تحصى ويكفي أن تبحث في غوغل عن مقدار ثروته، حتى يصيبك الذهول، ولا شك أن له أشباهًا كثيرين، يملكون ثروات خيالية، لا يقلون عن أحمد عز وغيره، هذا غير الممتلكات العامة لجمعية الإخوان المسلمين، وهي ممتلكات يمكن لرأسمالها أن ينشئ اقتصادًا متكاملًا، ولو كان لديهم مفهومًا واضحًا وواعيًا للاقتصاد ، لوجدنا من يقتبس منهم منهج هذا الاقتصاد ، أو يقلده ويسميه وقتئذ اقتصادًا إسلاميًا.

ولا ننسى أن نعرج على مؤسسة الريان في مصر وأشباهها في الأردن وغيره بالتلاعب بما أسموه الربح الحلال، إذ جمع الريان مدخرات الناس تحت سمع وبصر الإخوان المسلمين إن لم يكن تحت مباركتهم، وطار الريان طيرانًا إسلاميًا أيضًا ومعه المليارات (الحلال) من مدخرات غلابى مصر وفقرائهم.

في النهاية لا ندري إلى أي ظلام سوف يقودنا إليه دهاقنة الإخوان المسلمين وهم يخوفوننا من الربا، ولا يفعلون شيئًا غير الدعاية المجانية للبنوك الإسلامية التي لا ندري مدى مشاركتهم بها.

6- بنية الحزب

تجاربنا الحزبية في عالمنا العربي فاشلة بامتياز، إسلامية وغير إسلامية، وقد نختلف حول هذا الرأي اختلافًا هامشيًا لكن لن ينفي صدق المقولة، فمن وجهة نظري الخاصة، ورؤيتي الشخصية، وجدت أن الأحزاب السياسية تحتاج إلى ثلاثة عناصر مجتمعة، وبغير ذلك لا يكون حزبًا فاعلًا ولا حقيقيًا.

أولا - يحتاج إلى قيادة فكرية تملك وعيًا استراتيجيًا، ولها نظرة واسعة ومستقبلية تدرك جل القضايا المستفحلة والمعيقات القائمة وتضع برنامجًا مدروسًا ينفذ في زمن معلوم، حسب خطة موضوعة مسبقًا.

وثانيا - يحتاج إلى طبقة تنفيذية وإدارية، أي طبقة قادرة على تفهم الخطة وتنفيذها، ولديها من الخبرات العملية والعلمية والتقنية بما يؤهلها لتجزئة خطة البرنامج وتنفيذه بنجاح تام، أو تهيئ خبراء يكونون جاهزين لتسلم الوزارات أو المناصب لتنفيذ برنامج الحزب.

وثالثا - يحتاج إلى أعضاء يشكلون كتلة الحزب، وكلما كانت كبيرة كان الحزب قويًا ومستقرًا، كما يجب على هذا الجسم أن يكون واعيًا لأهداف الحزب واستراتيجيته بوضوح تام، وأنهم يدركون دورهم في تنفيذ أهداف الحزب وليس مجرد انتماء أجوف.

وبناء علي هذا التصور ولما يجب أن يكون عليه الحزب، نستطيع أن نفسر فشل الأحزاب في دولنا العربية، فالأحزاب الدينية بها عدد من الأعضاء ما يفوق مقدرة الحزب، ولكن هذه الأحزاب تفتقر إلى المنظرين والمفكرين، بحيث أن هذه الأحزاب لا برامج لها، إنما هي قائمة على يوتوبيا دولة الخلافة الإسلامية، وهي تخاطب الطبقة الدنيا التي لا تملك تصورًا تستوضحه، كما أنهم يفتقدون المنفذين، لأنهم لا يملكون برنامجًا ينفذونه، ولا هم أيضًا في السلطة كي يجربوا تنفيذ ما يؤمنون به.

أما الأحزاب اليسارية فعلى العكس تمامًا، إذ تفتقر إلى الأعضاء، ذلك أن العضوية بحاجة إلى ذهنية عالية وقراءة في ثقافة غربية غريبة، كما أنها كالأحزاب الإسلامية لا تمتلك منفذين لأنهم بعيدون عن السلطة أيضًا، ولكن مفكريهم لهم تصورهم الواضح ورؤية السياسية والاقتصادية.

أما الأحزاب الحكومية فقائمة أصلًا على الوزراء وكبار الموظفين فهم جانب تنفيذي مقتدر، ولديهم أعضاء اسميين يثبتون فقط ولاءهم للسلطة، فهم بهذا، أعضاء غير حقيقيين، ويفتقرون كالإسلاميين أيضًا للمفكرين، لأن الزعماء العرب كلهم ملهمين وعباقرة من النمط القذافي، ولا يحتاجون إلا لمن يبسِّط للعالم أفكارهم.

وبناء على هذا التصور نجد أن منظومة الأحزاب الدينية قائمة على قاعدة من الأعضاء فقط، واليسارية قائمة على مثقفين يطرحون أفكارًا مستوردة، والأحزاب الحكومية قائمة على طبقة متنفذة بحكم وظائفها في الدولة.

وللتدليل على هذا التصور وجدنا تجربتين ناجحتين: هما الحزب الاشتراكي في مصر تحت حكم الرئيس عبد الناصر حيث احتوى على مفكرين من طراز رفيع ومنقذين أكفاء مخلصين وقاعدة شعبية كبيرة، وتجربة أخرى هي حزب البعث الاشتراكي حيث نشأ على أيدي مفكرين فلاسفة كمشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني ومجموعة من المنفذين الأكفاء أيضًا، وقاعدة شعبية كبيرة ممتدة في أقطار عربية مجاورة.

لكن كلا الحزبين انهارا أو أصبحا كبقية الأحزاب الفاشلة، حينما مات عبد الناصر وحينما غُيِّبَ عفلق حتى الموت، واستيلاء العسكر في سوريا والعراق على الحكم، فتحول إلى أحزاب حكومية.

لذلك فإن الأحزاب الدينية ليست مؤهلة لاستلام الحكم وإقامة دولة إسلامية كما يأملون، بسبب عدم وجود قادة مفكرين يصنعون تصورًا للمستقبل، كما أنهم مبعدون عن المشاركة السياسية، وعليه فإن أحزابهم الإسلامية فاشلة، وحينما يريدون بناء دولة إسلامية، عليهم أن يبنوا أولًا حزبًا حقيقيًا فيه المفكرون الفلاسفة وليس خطباء الترغيب والترهيب، ثم يكون لبعض أعضائهم خبرة إدارية ليتولوا أمر القيادة، عند اللزوم، ثم أعضاء من الطبقة الناضجة والواعية وليس العامة التي تقول آمين فقط، عندها يمكن أن يبدأ مشروع الدولة الإسلامية.

7- رواج فكر العوام وانحسار المفكرين

كل فكرة تصنعها في رأسك لا بد أن تكون موجهة لمخاطبين مفترضين اعتبارًا من ابنك الصغير الذي ما زال يتعلم لفظ الكلمات، وانتهاء بالأفكار الكبيرة التي تتوخى شعوبًا وطبقات اجتماعية فكرية وقومية ومهنية وغيرها.

وعندما تفكر في ذلك فإنك تفكر بالأسلوب الذي تصوغ به فكرتك، التي تجعلها مقبولة ومفهومة عند المخاطبين، وأن هؤلاء المخاطبين على وعي كاف لاستيعابها، وأن هذه الفكرة ضرورية لهم، لكي يكونوا على استعداد لقبولها.

وهكذا يفعل المفكرون والساسة وقياديو الأحزاب والمرشحون للانتخابات النيابية والبلدية، لذلك يكونون أحرص ما يكونون على الطبقة المتدنية فكريًا وثقافيًا، فهم أكثر الناس تقبلًا للأفكار الملتبسة والإشاعات، وأكثر عنادًا ودفاعًا عن أفكارهم المحدودة، وأية فكرة يقتنعون بها، في نفس الوقت لا يمكنهم تقبل أفكارًا مضادة أو مغايرة لها.

هذا القطاع من الناس يشكل نصف المجتمع أو أكثر، وهو ضروري لثبات المجتمع وديمومته، إذا ما رسخ به فكر ما، أو عادة ما، أو قيمة ما، فمن الصعب أن تزول إلا بزوال أجيال متوالية، وهنا يكون هذا القطاع مفيدًا إذا ما زرعت به أفكارًا جيدة، ومضرًا إذا ما زرعت به أفكارًا غير جيدة.

ولا بد لنا هنا من أن نوضح أن هناك فرق كبير بين المفكر والمتعلم والعارف، فالعارف والمتعلم هو الذي حاز علومًا قلت أو كثرت، وأصبح يملك معرفة ما، أما المفكر هو الذي يراجع أفكاره باستمرار والأفكار الشائعة، والأفكار المتفق على صحتها، ليبحث عن الخلل الذي خفي على غيره، وهو أيضًا يعمد دومًا لمقارنة الأفكار التي يحفظها ليستخرج أفكارًا جديدة، وهو دائم السؤال وقليلًا ما يعطي الأجوبة القاطعة، فأساتذة الجامعات هم أكثر الناس امتلاء بالمعرفة ولكن قليلًا منهم مفكرون، أي يستخدمون ما يعرفون لينتجوا أفكارًا جديدة.

لذلك قالوا قديمًا أن هناك فكر للخاصة وفكر للعامة ولا يجب الخلط ما بينهما، فعندما ذهب المعتزلة إلى العامة ينشرون مذهبهم بين الناس ثاروا

عليهم مع أن الخليفة الواعي المأمون كان يؤيدهم، وكان هذا سبب تراجعهم وانكفاء مذهبهم التنويري، وتنبه الإمام الغزالي الذي سطر آخر رسالة له اسمها (إلجام العوام عن علم الكلام)، وكأنها كانت وصيته الأخيرة.

أما في أيامنا هذه فنشهد ظاهرة الدعوة التي يحمل لواءها مجموعة من البسطاء الذين يتقمصون دور الدعاة الذين نشروا الدين في العهد الأول، ويتمثلون قول رسول الله ﷺ (بلغوا عني ولو آية) حقًا إنهم يحفظون أكثر من آية، يدعون بها الناس الذين بلغوا من العلم والمعرفة أكثر مما بلغوه هم، لذلك لا عجب أن نرى ما يواجهونه من ازدراء وتهميش، ولكنهم يفسرون ذلك بالكفر المستشري الذي يمنع الناس من الاستماع لقول الله عز وجل.

ومثل ذلك نرى هذا الامتعاض الذي ينفر منه المصلون من خطب الجمعة، من خطباء لا يفرقون بين الدرس الديني الذي يلقى على هامش صلاة الجمعة، والخطبة الواجب أن تكون دنيوية بامتياز حيث يقوم الخطيب في زمن لم يكن به إعلام، إلى إخبار الناس وتوعيتهم بما يجري من أحداث، وبما أنه يستقي معرفته من شاشة التلفزيون الذي يراها كل شخص، فإنه يحول الخطبة إلى درس ديني لأشخاص يفترض أنهم أدنى منه مستوى.

إذن أما آن لنا أن نلجم العوام عن الكلام؟ بل نتوقف عن تزويدهم بالأوهام والفتاوى الجهادية والسياسية والاقتصادية والسلوكية التي أقفلت مسام عقولهم، وخنقت قواهم وإرادتهم وجعلتهم سجناء هلوسات المخبولين.

8- قليل من الشك يوقف التهور

(قليل من الشك يصلح العقل) شعار اقترحه الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود على شباب المسلمين كمبدأ وشعار للعمل، كما أخبرنا بذلك أستاذنا الدكتور أحمد ماضي، وأستميح الأستاذين عذرًا أن أغير في العبارة وأجعلها عنوانًا لهذا المقال، وهذه مقولة لا تصدر إلا عن فيلسوف خاض في مجالات الفكر فبات على قدرة تمكنه من صياغة الحكمة العميقة المكثفة، التي تشبه الخميرة التي يمكنها أن تتكاثر إلى ما نهاية من الأفكار.

إن مبدأ الشك المنسوب إلى الفيلسوف ديكارت هو أحدى الوسائل التي يستخدمها العقل لاستيضاح الحقيقة من الزيف، فلا يمكن أن يبقى الإنسان على ما جُبل عليه، طفلًا يصدق كل شيء، ولا تساوره ريبة فيما يسمع أو يرى، ولعل من بوادر النضوج عند الأطفال أن لا تنطلي عليهم الأكاذيب البيضاء التي يتعامل بها الآباء مع طلباتهم المستحيلة.

والرسالات السماوية كلها رسالات تصديق، فكل المؤمنين بالرسالات السماوية أو غير السماوية قد آمنوا بما قيل لهم وما سمعوا من الأنبياء والمصلحين إيمانًا لا ريب فيه، لم يطلبوا براهين عقلية من الأنبياء والرسل أو الدعاة والمبشرين، أكثر مما أوضحوه لهم أو أبدوه من معجزات.

والديانة الإسلامية هي من الرسالات التي اعتمدت على التصديق بما جاء به سيدنا محمد ﷺ وما ورد في القرآن الكريم، وأصبح واضحًا على مدى العصور جميعها، أن الشك بصحة القران الكريم والأحاديث الشريفة محظور تمامًا، ذلك أنه مقطوع بصحته، ولا يجوز لأحد أن يتكلم ناقدًا أو شاكًا في آية من القرآن الكريم، أو الصحيح من الأحاديث الشريفة، إنه التقديس الذي يتوقف العقل معه عن التساؤل.

إن التقديس للقرآن الكريم والسنة النبوية، هو الذي دعم التصديق المطلق بما جاء في القرآن الكريم، مما جعله المصدر الموثوق لكل التشريعات والقوانين والتصرفات الفردية والمجتمعية، ولكي لا يختل بناء الحضارة العربية الإسلامية، فقد أقيمت على هذه القاعدة الصلبة التي لا

شك في صحتها، ولو كان ينظر للقرآن الكريم وما ورد به كما ينظر في أي كتاب على أن ما به يحتمل الصواب والخطأ، لفسد أمر الدين والدنيا.

ومن الواضح أيضًا أن علم مصطلح الحديث الذي ابتدعه المحدّثون ليميزوا به الحديث الصحيح من الحسن والضعيف من المفترى، كان نتيجة شك لدى المتلقين في صحة الحديث، وهذا الشك كان في صالح الحديث الشريف، إذ نقاه من معظم الأحاديث الكاذبة والمفتراة.

إذن فالشك هو السبيل إلى تفقد صلاحية الأفكار التي نتلقاها أو نسمعها، وليس من واجبنا أن نسلم بكل ما نسمع، إلا إذا كنّا أغبياءً أو أطفالًا، وما بلغنا الثالثة من العمر، أو أن الذي يكلمنا هو رب العزة أو من ينوب عنه في الأرض.

والإشكالية عند الذين يضيقون بمن يشك بأقوالهم وتصرفاتهم، أنهم يرون ذلك قدحًا بشخصيتهم، أو لا يملكون بديلًا، أو غير واثقين من موقفهم، وغير قادرين على الدفاع عن أفكارهم، كبعض الآباء والفقهاء والحزبيين والسياسيين.

إذن فإن الشك دليل على احتمال الخطأ، مما يقتضي مراجعة الأفكار والتوجهات والمشاريع، قبل الوقوع في المحظور، وهو بذلك ظاهرة صحية، لذلك يجب أن يبقى ملازمًا لكل نشاط إنساني وحياتي وفكري.

والإخوان المسلمون هم أحرى الناس بمراجعة أفكارهم وتصوراتهم ومشاريعهم والشك بصوابها بعد أزمة استلام الحكم في مصر وليبيا وتونس وغزة ، فـ (الكيّس من دان نفسه) وعليهم أن يتخذوا القرارات الصعبة التالية وهي:

1- الرجوع عن تقديس حسن البنا وسيد قطب واعتبار ما قالاه قد أصبح من الماضي الذي تجاوزه الزمن، فلا يوجد فكر عابر للزمان والمكان، ويصبح تقديس أفكارهما دليلًا على جمود أفكار المُحدثين.

2- سحب فكرة الدولة الإسلامية الموعودة والإعلان بأنه لا يمكن وفق الظروف الدولية الراهنة إقامة دولة إسلامية، وعلينا إقامة دولة مدنية بما تعنيه الدولة المدنية من قول، والكف عن أسلمة السياسة والاقتصاد والبنوك والتأمين والتعليم وغيرها.

3- عدم الخوض في الأممية الإسلامية، والتي تقضي أن يتكتل المسلمون في بنيان مرصوص، وأن يكونوا على رأي رجل واحد، فإن كان هذا صالحًا وضروريًا في عصر البعثة فمن المستحيل تصور مليار شخص في بنيان مرصوص، وعلى رأي رجل واحد أيضًا. وفي المقابل الكف عن اعتبار القومية مضادة للدين، وإن دعوة المسلمين ترك الرابطة القومية إنما يعني انطلاقًا في الفضاء أو السقوط ثانية في العشائرية والإقليمية والطائفية والمذهبية، إنها سلسلة مترابطة لا يجوز الإخلال بترابطها الصحيح، وهي الأسرة فالعائلة فالعشيرة فالطائفة فالمذهب فالاقليم فالقومية أو العرقية فالإسلامية أو الإنسانية.

4- التراجع عن تقسيم البشر بين فسطاطين - فسطاط الكفر وفسطاط الإيمان، فالمسلمون لا يمكنهم الانعزال عن الكفار والملحدين، فكل الأمم على اختلاف أديانها ومعتقداتها تتعاون مع بعضها في سبيل تقدم الإنسان ورفاهيته، فالمسلمون ما عادوا طائفة يتخطفهم الكفار من شعاب مكة.

5- التوقف عن تكفير المسلمين، وإشعال الخلافات المذهبية، وتشجيع الجهاديين في استباحة ما يريدون باسم الإسلام، فالصراع اليوم ليس صراع عقائد، بل صراع مصالح ومكتسبات.

6- التوقف عن الحلم باعتلاء السلطة واستلام الحكم، بحجة نصرة الإسلام، فلم يعد العصر عصر انقلابات وعصر الاستفراد بالحكم من قبل طائفة أو دين أو عائلة، وإلى ما لا نهاية من الزمن.

7- هذا الكلام موجه كله أو بعضه للسلفيين وحزب التحرير ورجال الدعوة والوهابيين وكل التنظيمات الإسلامية في هذا العالم.

9- الفقه البدوي

لا نقصد بداية بهذا المصطلح أن نعبر عن معني القدح أو السخرية، إنما نصف حالة قائمة، فقولنا فقه بدوي يعني أن هناك فقهًا مبنيًا على القضايا والمشكلات ذات الطابع البدوي، وهو موضوع يعالج المشكلات الخاصة بهذا المجتمع، وبما أن مجتمعاتنا تحولت من مجتمعات بدوية أو ريفية بالمعنى التقليدي، إلى مجتمعات حضرية، فان هذا الفقه لم يعد له أهمية عملية في مجتمعات تطورت كثيرًا عن الحالة البدائية الأولى أو البدوية.

والبداوة التي نعنيها هي ابتداء من الفترة التي انتشر فيها الإسلام إلى فترة قرن مضى، إذ كان وضع المجتمعات العربية في الأرياف والبوادي والمدن هي فترة تسودها الأمية، دون دولة مركزية تدير شئون رعاياها، والعيش بأساليب بسيطة، وبها ثقافة متواضعة وتصورات خرافية، لذلك فإن ما وضعه الفقهاء في القرنين الثاني والثالث لمجتمع ذلك الزمان لم يطرأ عليه من المستجدات الاجتماعية والتحولات ما يدفع إلى استحداث فقه جديد يتماشى مع هذه التحولات.

وفي بداية هذا القرن، بسبب تطورات العصر، بدأ كثير من المتنورين في محاولة جادة للنظر إلى القضايا المستجدة بغير النظرة التقليدية، وتصحيح المعتقدات والآراء بما يتناسب مع العصر الجديد في مصر وفي غيرها كمحمد عبده ورشيد رضا وجمال الدين الأفغاني وغيرهم، وكانت حركتهم وحركة غيرهم من التنويريين عاملًا في نزع طبيعة البداوة عن المجتمعات العربية في تغيير اللباس وما يتعلق بالمرأة والابتعاد عن الخرافات والاهتمام بالتعليم والنزوع نحو الرفاهية الاجتماعية والاستهلاك وتقبل المنتجات الغربية، ونمط الحياة الغربي.

وكان تفجر النفط في المملكة العربية السعودية ودول الخليج عاملًا له الأثر السلبي على مقياس التطور الصاعد، ذلك أن آلاف بل مئات الآلاف الذي ذهبوا يعملون في المملكة العربية السعودية والكويت والخليج، تأثروا بالحياة البدوية التي اندمجوا بها، بدلًا من أن يقوموا بتطويرها، لذلك جاؤوا مع حشود رجال الدعوة من السلفيين والوهابيين الذين غزوا البلاد العربية، وشاركوهم نشر الفكر الوهابي في بلادهم.

تزامن هذا الحدث أيضًا مع فشل المشروع القومي التحضري، الذي كان أملًا لمعظم العرب، مما أحدث فراغًا لدى الناس، مما جعل قبول مشروع الأسلمة الذي تبنته المملكة العربية السعودية مبررًا لإعادة الإسلام إلى منابعه الأولى، أي العودة إلى الفقه البدوي.

وهكذا ما كدنا أن نزيح عنا البداوة حتى غشيتنا مرة أخرى وخاصة أن مشروع الدعوة ما كان يقوم به علماء تعمقوا في الدين بشكل واع، إنما شباب لا يملكون علمًا أو فكرًا أو وعيًا يثرون به معرفة الناس الدينية، إنما جاؤوا بالجوانب الهامشية التي أغرت البسطاء من الناس الذين أعجبهم هذه الحماس والنخوة الدينية وحمى الرجوع إلى الأصول.

المجتمع السعودي الذي كان يعيش حياة بدوية صرفة، كان من الطبيعي أن تكون تعاليم الفقه تتفق مع عاداته وتقاليده وسلوكه، لذلك جاء هؤلاء الدعاة بالدين على طبق من البداوة، فبدلًا من أن يكون الدين حافزًا على التطور، إلا أنه أحبط كل الساعين إلى التطور بأن أراحهم وأرجعهم إلى حالة البداوة، وكان من نتائج هذه الظاهرة ما يلي :

أولًا : في المجال الديني

1- انتشار المظهريات المجتمعية السعودية كرموز دالة على التدين، كلباس الغطرة والدشداشة القصيرة واللحية والطاقية أي تم تديين العادات، وأصبح مفهومًا أن تربية اللحية واجبًا دينيًا اقتداء بالرسول ﷺ كأن الرسول ﷺ كان يتميز عن غيره باللحية، والدشداشة القصيرة أيضًا، علمًا أنها لباس جاهلي، تماهت مع حركة البدوي من العدو والمشي بين الأشواك وركوب الخيل والإبل.

2- أصبح التقديس لكتب الحديث وخاصة صحيح البخاري مبدأ مسلمًا به، وأصبح موازيًا للنصوص القرآنية، علمًا أن الله أعلن يوم الحج الأكبر أنه أتم إنزال القرآن كاملًا، ولا زيادة لمستزيد (اليوم أكملت لكم دينكم ...)، وأن الاعتقاد بأن الله أعطى للرسول حق تكملة القرآن بالأحاديث، هو اعتقاد آثم، وهذا جعل من الحديث قرآنًا.

3- أصبح مفهومًا إن الدين هو العبادات، وبذلك حشروا الدين في مربعه الأول، وجعلوه مقتصرًا على إقامة الشعائر وليس له يد في مناحي الحياة المختلفة.

4- برزت ظاهرة الشيوخ الشباب الذين ليسوا على الشكل التقليدي، وهؤلاء الشيوخ سلاحهم القدرة على الإلقاء، دون محتوى ديني معقول، فأصبحوا من نجوم الشاشات، إنهم لا يضيفون شيئًا للدين، إنما يسعون لمزيد من النجومية.

5- ظهور التطرف الديني أو الجهادي، الذي يهدف إلى سوق المسلمين بالعصا إلى مربع الدين الأول، فأي دين هذا الذي يؤخذ بالقوة؟ وأي دين هذا الذي يحدده شخص لا يعرف من الدين إلا الشعارات؟

ثانيًا: في مجال المرأة

في الفقه البدوي نصيب كبير للمرأة، كتبه الفقهاء بناء على ما يخدم المجتمع البدوي، الذي لا حماية له من الدولة ضد عمليات الغزو والاغتصاب، سوى أن يمعن بالعزلة، كي يحفظ زوجاته ونساءه من السبي، وصارت المرأة من بعض المتاع الذي يمكن له أن يسلب من البيت، لذلك تم التعتيم عليها، اعتقادًا أن كل ما فيها عورة، يجب أن لا يظهر منها ما يدل عليها، وكأنها إحدى الحيوانات الناطقة، لا رأي لها ولا فكر ولا شعور، يمكن ختانها لوقف شهوتها، ويمكن للبدوي أن ينكح أربعًا منها داخل الخيمة، ليس لها أن تتعلم أو تعمل أو تبدي رأيًا، لأنها ذات عقل ناقص، هذا التراث الفقهي أعيد ترسيخه مرة أخرى.

وعندما أصدر قاسم أمين كتابه عن تحرير المرأة فهم الأزهريون أن قاسم يدعو إلى نزع العفة وإلى الإباحية، مع إنه كان واضحًا في مطلبه، لكن فكرة التحضر غلبت فكرة الجمود، فانتشر تعليم للمرأة، ودخلت المعترك السياسي والمشاركة المجتمعية والثقافية والفنية، ولم يكن هذا في مصر فقط، بل في العراق وبلاد الشام والمغرب العربي، فخلعت الخمار التركي في جميع المدن العربية، ولبست الملابس الأوروبية، وارتدته أيضًا نساء القرى والأرياف التي لم تكن تلبس الخمار.

مع انهيار المشروع النهضوي، أصبح الارتداد إلى الخلف نتيجة حتمية. فكانت الموجة عاتية على المرأة، وأنجز الإسلاميون مشروعهم العظيم في إعادة لبس الخمار التركي والحجاب الماليزي، على أن الإسلام قد أمر بهما، وتقليص دور المرأة في الحياة العامة، على قاعدة كل ما في المرأة عورة.

ثالثًا : المشروع الحضاري

لم يكن في ذهن الفقهاء والأئمة الذين وضعوا الفقه، أفكارًا للتطوير والتغيير والتقدم واكتساب المعارف، إنما تطبيق ما في الشرع من حدود وقصاص وزكاة وزواج وطلاق وإرث، أي أن هدف الفقه البدوي هو إدارة الواقع وليس تطويره، ذلك أن مجتمعنا منذ ثلاثة عشر قرنًا وهو يسير على منوال واحد، فلدخل في خلد المشتغلين بالفقه استمراره إلى الأبد، فغابت عن الفقهاء فكرة التجديد والتغيير، لكن الأحوال قد تغيرت كثيرًا في القرن الأخير بشكل بدا لنا مفاجئًا، فلم يستجب له الفقهاء وعلماء الدين، لذلك أصبحت الدساتير والقوانين والتشريعات هي التي تسير أمورنا، وهنا بدأ سيد قطب ينعي هذه الجاهلية التي لا تأتمر بأمر الله، فأصبحنا هنا أمام خيارات ثلاث: إما أن نتمسك بالفقه البدوي ونحن أمام تغير هائل في حياتنا العصرية، أو نتركه ونركب العربة الأخيرة من قطار الحضارة، أو نضع فقهًا جديدًا مناسبًا للعصر الحديث، وأعتقد أن الصراع الداخلي والحروب الأهلية العربية نابعة من حيرتنا في مثلث الطرق هذه، واختلافنا في الاتجاه الذي يجب أن نسير فيه، فكل طرف يحاول بالقوة أن يجبر الآخرين كي يسيروا في نهجه.

زبدة القول أننا بحاجة إلى فقه جديد يتناسب مع هذا العصر، ذلك أن المستجدات التي تطرأ يوميًا، لا نجد لها حلًا إلا عند الغرب، إن هذا كله قد سحب البساط من تحت أرجل الإسلاميين، وبدلًا من أن يعوا ضعف إمكانياتهم الموروثة، وعدم قدرتهم على مواجهة التطورات بفكر جديد، فإنهم اعتبروا المسلمين خارجين عن طاعة الله، وأن الحاكمية ما عادت لله، بسبب أن سيد قطب ومن تبعه لم يضعوا فقهًا جديدًا لكي تكون الحاكمية لله، وبدلًا من أن يلوموا أنفسهم على هذا القصور، فإنهم لاموا الناس واتهموهم بإطاعة الطواغيت، وعليهم أن يعودوا من حيث بدأت الدعوة، وها هم الجهاديون من داعش وغيرها في حروبهم الداخلية يريدون إرجاع الناس إلى أوليات الدين، وكأن هذا الرجوع يجعلنا في قمة سامقة بين الأمم.

لذلك فعلى المنظمات والأحزاب والطوائف الدينية، أن لا يبيعونا كلامًا إنشائيًا في الدولة الإسلامية والحكم الإسلامي، فعليهم أن يضعوا فقهًا جديدًا يعالج قضايا العصر، بمعنى أن يرصفوا لنا الطريق ومعالمها، قبل أن يدعونا للسير عليها، فكل الحروب التي نكتوي بنارها الآن هو أنهم دعونا إلى مدينة فاضلة ولكن لم يشقوا لها طريقًا سالكة، فانطلق جميع من جذبتهم فكرة

هذه المدينة هائمًا، كلٌ في سرب أو طريق، وكانت كل الطرق متقاطعة أدت إلى التصادم والاقتتال الشديد الذي نشهده.

وليعلم الإسلاميون أننا في عهد التخصصات ولسنا في عهد الفقهاء والشيوخ الذين يعرفون كل شيء، وبدون رأيهم لا يكون رأي الدين، لذلك فإن دعوتي إلى إيجاد فقه جديد ملائم للعصر، هي فكرة ذهنية قابلة للتنفيذ، لم يفت عليها الزمن، ذلك أنه من المستحيل أن نجد شخصًا له هذه القدرة على أن يفهم كل شيء حق الفهم، إنما يجب أن يكون هناك مختصون في كل علم أو مجالات فرعية أخرى، ولا يتحتم أن يكون مسلمًا، وشيخًا أزهريًا، فالعلم لا يقوم على الدين، فالدين أيضًا يجب أن يكون له مختصوه، فلا يكون من اختصاصهم في السياسة والاقتصاد والتعليم وغيرها، وكما أن المهندس لا يحب أن يبدي رأيه في علم الصيدلة أو علم المحاسبة، فعلى المتدينين أن لا يتكلموا في مجال آخر كما هم يمنعون أحدًا أن يتكلم بالدين من غير المختصين من جماعة الشيوخ.

[7] حاجتنا للمنطق والعلم والعلمانية

1- ماذا فعلتم بالعلم يا مسلمون؟!

2- ما هو العلم؟

3- أقسام العلم الثلاثة

4- التفكير العلمي

5- التفكير العلمي هو الالتزام بقوانين العقل الأربعة

6- نواقض التفكير العلمي

7- الحركات الإسلامية واستخدام العلم

8- العلمانية ونشأتها

9- واقع العلمانية في العالم العربي

10- العرب والعلمانية

1- ماذا فعلتم بالعلم يا مسلمون؟

من أمد قريب كانت كلمة عالم تنصرف نحو عالم الدين، ذلك بسبب ما رسخ في أذهاننا، أن لا علم سوى علوم الدين التي تشمل القراءة والتجويد والتفسير والحديث وغيرها، وكان المختصون في ذلك هم طبقة الشيوخ، أو رجال الدين، أما فيما يختص بالعلوم الأخرى فإنها كانت مغيبة عن الذهن تمامًا، بل أن أحدًا لا يعلم إن كان هناك علمًا في الزراعة أو الصناعة أو الأرض وغيرها.

ولعل ذلك راجع إلى أن العلوم الدينية هي علوم ثابتة المصدر، وتنمو ببطء كتنويعات على الأصول، ويُحَارَبُ كل تجديد على أنه بدعة مكروهة وضلالة، ومن هنا تم على مدى العصور المتأخرة إعادة إنتاج الفكر الديني بلا جديد.

أما العلوم الطبيعية والإنسانية والفكرية والفلسفية فإن أصولها كانت من اليونان والرومان والفرس والهنود، وأن العرب لم يكن لهم عهد بهذه العلوم، وكان اطلاعهم على هذه العلوم اطلاعًا غير ممنهج، بل جهود فردية، ومع ذلك أنشأوا علمًا طبيعيًا كان له أثره في أوروبا، لكن لا صلة له بالدين، ومن هنا نشأ العداء للعلوم من قبل فقهاء وعلماء الدين، حين لم يستوعبوا وظيفة العلم في الحياة، ونستطيع أن نحلل الظاهرة في هذه النقاط.

1- صعوبة تصور العلوم الطبيعية والذهنية كالجبر والهندسة والرياضيات والتفكير الفلسفي، ذلك أنها بحاجة إلى جهد كبير في الفهم وجهد أكبر في الإبداع العلمي. كما أنها بحاجة إلى تفرغ وصرف مبالغ كبيرة للبحث والتجريب وهذا لم يكن متيسرًا في أغلب الأحيان.

2- لم تكن هذه العلوم ذات صبغة عملية، أي لم يكن وجودها ضروريًا، ومن هنا كان الإقبال عليها ضعيفًا، وتشجيعها أضعف، وبالتالي معاداتها أيسر وأهون.

3- كان العداء بسبب رغبة الفقهاء في الاستحواذ على المشهد الثقافي، إذ لم يكن مفهوم العلم واضحًا، وحورب تحت شعار من تمنطق فقد تزندق، وأن علم الكيمياء هو سحر، والحفاظ على حرمة الميت جعلتهم يرفضون التشريح ودراسة أعضاء الجسم، وما كان يجريه بعض العلماء من تجارب كان من وراء ظهر الفقهاء.

4- وتأتي النهاية على يد الإمام الغزالي في تقسيمه العلوم إلى قسمين: علوم فرض عين وهي العلوم الدينية وعلوم فرض كفاية وهي العلوم الطبيعية، وهذا يعني أن العلوم الطبيعية علوم هامشية، وتركها أولى من العمل بها.

5- وجاءت بعد الغزالي الطامة الكبرى التي أنهكت الدول العربية وهي الحروب الصليبية والاكتساح المغولي حيث لم تعد موارد للصرف على التعليم بأنواعه، فقد تم تدمير بيت الحكمة في القاهرة ودار الحكمة في بغداد وكانت جامعتان بالمعنى الحديث للجامعات اليوم.

6- إن الفقه الذي توارثناه من القرون الماضية، ورثنا معه هذا الإهمال الذي دمر العلوم، وكان الحافز لتعليم العلوم الدينية أن في تعليمها أجر من لله وأجر من الناس، بعكس العلوم الطبيعية التي لم يذكر فقيه واحد على بأنها مأجورة، فلا الله يؤجر عليها ولا الناس.

7- وبما أن العلوم الطبيعية هي لتحسين المعيشة الدنيا، فإن الحركات الصوفية التي تنزع للزهد، والاكتفاء بالقليل القليل، والعمل للآخرة وليس للدنيا، جعل من الاهتمام بهذه العلوم مضيعة للوقت الذي يجب أن يكرس للعبادة استعدادًا للآخرة.

8- وكنتيجة طبيعية كان لا بد أن تنتشر الخرافات ومعالجة المشاكل الحياتية العادية بالدعاء إلى الله، وبالسحر والتمائم والنذور والتضرع للأولياء الصالحين، والحج إلى مقاماتهم وقبورهم.

9- في مطلع القرن التاسع عشر ومع انفتاح المسلمين على الغرب بما لديهم من علوم طبيعية وحضارة وصناعة، وما قام به رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي من محاولة لبناء دولة حديثة، كان الأخذ بالعلوم الطبيعية واحدًا من أركانها، إذ افتتح رفاعة الطهطاوي دار الألسن، وهنا حدثت معارضة شديدة من علماء الأزهر، فقد رفضوا هذا التوجه نحو تعلم علوم الكفار، ولم يجدوا لذلك مبررًا، سوى الاعتقاد أن علومنا الدينية هي ما يلزمنا فقط في الدنيا والآخرة.

10- وانقسم المسلمون في هذا المجال إلى ثلاثة اتجاهات، تركيا أخذت كل ما عند الغرب وتركت ارثها الإسلامي، بينما أفغانستان تمسكت بالإرث الإسلامي ورفضت العلوم الغربية، أما مصر وبقية البلاد العربية، فقد أخذت من العلوم الغربية ولم تترك ارثها الإسلامي.

11- في مصر ظهر أحد الشيوخ الأزهريين المتنورين وهو الشيخ طنطاوي جوهري 1870-1940 وراح يدعو إلى الأخذ بالعلوم الغربية، من خلال تفسير القرآن الكريم حسب العلوم الحديثة من رياضيات وفلك وتشريح وعلوم أرض وفيزياء وكيمياء وغيرها، بشكل يثير العجب كيف تسنى له أن يحيط بكل هذه العلوم، وذلك كي يقول عبر تفسيره المسمى (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) والواقع 26 جزءًا، أن علوم الغرب هي موجودة أصلًا في القرآن الكريم.

12- هذا التفسير العلمي للقرآن يبدو أنه لم يرق للأزهريين ولا لغيرهم، فلكي تفهم التفسير العلمي أنت بحاجة أولًا إلى فهم مسبق لهذه العلوم، لذلك لم يشتهر تفسير الجوهري ولم يعرف به أحد، رغم أنه نشر كاملًا عام 1932، وربما أن مصطفى محمود قد عثر على هذا السفر العظيم، لكنه مسخ جهد طنطاوي جوهري للإقبال على اكتساب العلوم، وراح يتكلم في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ويتلو كلامه على أناس يملكون درجة دنيا من الثقافة والعلم.

13- إنه لمن السخرية أن يصبح العلم الذي نبذه الفقهاء ورجال الدين وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله، ومجالًا للتشدق بأن في القرآن علومًا احتجنا لأربعة عشر قرنًا لنفهمها، ولم يتساءل أحد لماذا قتلتم التفكير العلمي ولم تستفيدوا مما في القرآن الكريم من علوم قبل أربعة عشر قرنًا؟

14- لقد أخطأ من يعتقد أن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم طريق للهداية، وبالعلم نعرف الله، فالله لا نعرفه لا بالعقل ولا بالعلم، وإلا أصبح كل البشر مؤمنين، لأن عقولنا مصممة لفهم الطبيعة فقط، وليست قادرة على فهم ما فوق الطبيعة، نحن نؤمن بما قاله لنا الأنبياء عن الله والملائكة والجنة والنار والحساب والعقاب وغيرها، ولو كان العقل بمقدوره أن يعرف الله، وباقي الإيمانيات، لما كان ضروريًا أن يرسل الله الرسل والأنبياء، لأننا نملك عقلًا نعرف به الله، ولا ضرورة للأنبياء.

15- إن هذا التوجه الديني للعلم، هو ضار بالدين وبالعلم معًا، فالعلم هو لفهم الدنيا والدين لفهم الآخرة، ولا يمكن أن يحل أحدهما مكان الآخر.

16- من الواضح أن الفهم الخاطئ لوظيفة العلم الذي ابتدعه مصطفى محمود وتبعه كثيرون هو إضرار بتوجهنا للعلم والاستفادة منه، فالعلم ليس وسيلة للإيمان، إنما لفهم الحياة وتحسين العيش فيها.

17 - أما موقف الفقهاء من رجال العلم غير المسلمين على أنهم في النار، وإن الله لا يثيب على العلم الطبيعي، ولا على الإبداع فيه، وهذا يؤثر على توجه الشباب المسلم نحو العلم الطبيعي والإنساني، فالله يثيب على قول (سبحانك اللهم وبحمدك) ألف ألف حسنة ولا يثيب على اكتشاف معادلة رياضية أو اختراع آلة أو جهاز أو اكتشاف علاج طبي، مع أن قول الله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره)[٥] يعني أن العمل هو أي عمل خير أكان عبادة أو أي عمل يفيد البشر، وأن الجملة الشرطية من يعمل... لم تحدد هوية الفاعل، إن كان مسلمًا أو كتابيًا أو كافرًا أو ملحدًا، لذلك فالعمل الدنيوي مأجور للكافر والمسلم، كما هو الإثم محاسب عليه للمسلم والكافر معًا.

---

[٥] [الزلزلة : 7-8].

2- ما هو العلم ؟

هناك من يقول أنه لا يوجد حركة إسلامية تعارض العلم، أقول نعم، فإنسان الكهوف يريد العلم أيضًا ليكون قادرًا على تحسين عيشه، ولكن بما أنه لا يعرف معنى العلم فإنه لا يمكنه تعلمه وإنتاجه، فهو بحاجة أيضًا إلى علم وإلى تفكير علمي وإلى علمانية، وفيما يلي سأقوم بتعريف العلم، ثم أعرف في مقال تالٍ التفكير العلمي.

1- العلم: هو منتج عقلي صِرف، بمعنى أن الله لم ينزل علمًا على أحد ولا تآمر الشيطان وإبليس لينزعا العلم من أحد، ولم يلعب الشيطان في أسلوب التفكير عند أحد، فالله أعطانا العقل لكي نفكر به ونكتشف ونفهم الدنيا والحياة، ولم يرسل الشيطان لنا ليلعب معنا ويناكفنا، ولكن الله أنزل علينا ما لا يمكننا معرفته بعقولنا بواسطة أنبياء الله من البشر، لهم قدرة خاصة وطاقة لفهم ما أنزله عليهم، لأن عقولنا ليس لها القدرة على أن تعرف ما فوق الطبيعة.

2- العلم نابع من عقل له آلية معينة، إذ يعمل العقل وفق قوانين أربعة وهي السببية والغائية والهوية وعدم التناقض، فإذا ما عطلنا واحدًا منها أو أكثر فإن علمنا يكون خاطئًا بالضرورة.

3- العلم تراكمي: بمعنى أن العلم يتم وضعه من قبل البشرية في جميع أقطارها، فتقوم الشعوب بالتعلم من بعضها البعض، ثم تقوم بالتوسع في هذا العلم والإضافة إليه، وما أضافوه لا يعتبر علمًا قوميًا، بمعنى لا يوجد علم صيني أو روسي أو إسلامي أو عربي، إنما يظل علمًا بشريًا، لأن كل شعب متاح له نقله وبالتالي القدرة على استخدامه والبناء عليه، ومن هنا نقول أن العلم مشروع بشري مشترك منذ ابتداء الخليقة، وإلى ما شاء الله من الدهور، وليس حكرًا على أحد.

4- العلم قابل للاختبار والتأكد من صوابه أو خطئه، بمعني يجب عدم تقبل أي علم قبل أن نعرف كيف تم إقرار هذا العلم، وما هي الأدوات التي استخدمت، وأساليب البحث التي اتبعت، وبالتالي هل يمكننا أن نعيد التجربة مرة أخرى؟ وهل نحصل بعدها على نفس النتائج العلمية؟ وهذا يعني أن كل علم يجب أن يخضع للشك والتجربة، فإذا ما وجدنا نتائج خاطئة أو مختلفة فإن هذا العلم يكون فاسدًا أو مزيفًا أو خاطئًا، أما إذا وجدنا نفس النتيجة فنكون قد تأكدنا من صحة هذا العلم، فلو قلنا أن الماء يغلي على درجة

حرارة 100 عند سطح البحر، فإن أي واحد يستطيع أن يقيس درجة الغليان هناك، فإن وجدها أكثر من 100 أو أقل، عندها يكون هذا العلم خاطئًا.

5- العلم قابل للتكرار، بمعنى أن العلم يقوم على واقع يتكرر باستمرار ويدركه الإنسان العادي بحواسه الطبيعية أو بأجهزة يستعين بها، كأن يرى المشتري أو زحل بالتلسكوبات الهائلة أو يرى الجراثيم والفيروسات بالمجهر الإلكتروني، لذلك ليس علمًا ذاك الذي يقوم على ما أدركه شخص واحد مثل الرؤى والتنبؤات والأحلام والهلوسات والتهيؤات، والإشاعات والدعايات وغيرها، إلا إذا تكررت مشاهداتها من قبل أناس آخرين ليس بينهم صلة أو اتفاق مسبق، فنيوتن الذي استخرج قوانين الجاذبية من مشاهدته التفاحة وهي تسقط من على الشجرة، لم تكن خافية على أحد، فكل إنسان شاهد هذا المنظر أو بمقدوره أن يشاهده، أي أن نظرية نيوتن قائمة على واقع متكرر.

6- العلم قابل للتنبؤ، أي أن العلم هو حُكم سينطبق على الحالات المشابهة في المستقبل، مثال ذلك أننا إذا ما وثقنا بأن الماء لا يمكن أن ترتفع درجة حرارته إلى ما فوق ال 100 فنتنبأ إذا ما أردنا أن نبرد محرك السيارة بالماء سنكون واثقين بأن درجة حرارة محرك السيارة لن ترتفع لأكثر من 100 مئوية، ومن هنا نكون واثقين من عدم احتراق المحرك، ومن هنا نقول أن التنجيم والبخت وقراءة الكف ليس علمًا لأنه غير متكرر، فلا ينطبق على كل مواليد اليوم الواحد والبرج الواحد والخطوط الواحدة في الكف.

3- أقسام العلم الثلاثة

أ- العلوم الذهنية: وهي ما تسمى النظريات، وهي تقوم على البديهيات الذهنية، أي القوانين الصادقة بالبداهة، مثل الاثنان المساويان لثالث متساويان، وهذه النظريات ليست موجودة في الطبيعة لكي ندركها بحواسنا، إنما نستنتجها بعقولنا وأذهاننا، ففي الرياضيات لا يوجد في الطبيعة عددًا كالخمسة مثلًا، فالخمسة مفهوم ذهني نستدل عليه بأصابع الكف، وإن جدول الضرب أو القسمة أو الجذر هي تصورات ذهنية بحتة، للكم ولتكوينات الطبيعة وحركتها، وكذلك قوانين الجاذبية والحركة والتفاعلات الكيماوية وانعكاسات الضوء وانتقال الصوت وغيرها من التي اكتشفها الإنسان بعقله.

ب- العلوم الطبيعية: هي علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء، وهي تقوم على فهم ما هو موجود في هذا الكون، ابتداء بالنجوم والكواكب وانتهاء بالفيروسات والصبغيات الوراثية، وتقوم على تصنيف الموجودات الطبيعية إلى مجموعات وتحليلها وتركيبها وعلاقتها مع بعضها وفهم حركتها وتحولها وغير ذلك، لذلك فإن أي علم فيما وراء الطبيعة لا يعتبر علمًا، فالذين يتكلمون عن الجنة والنار وما يكون في يوم القيامة لا يمكن أن يكون علمًا إنما هو إيمان، وهناك فرق بين العلم والإيمان، وأيضًا فإن التنبؤ بأحداث آخر الزمان ليس علمًا، لأنه ليس قائمًا على واقع يمكن معاينته، ومثله أيضًا الحدس.

ج- العلوم الإنسانية: وهي العلوم التي تتعلق بالإنسان كفرد أو جماعة أو جنس بشري، وهي علوم تقترب من العلوم الطبيعية في صدقها، لكنها لم تصل مرحلة اليقين، لأنها تقوم على مفهوم الإنسان بما هو إنسان، أي الإنسان المشترك، ولكن في الحقيقة أن قولنا إنسان ليس كقولنا ماء أو حديد، ذلك أن كل إنسان منا يختلف عن الآخر، ومن هنا تكون الأحكام عامة تنطبق على الأكثرية وليس على الجميع، ومن هذه العلوم الإنسانية علم النفس وعلم الاجتماع والسياسة والتربية والحقوق والتشريع والديانات والتاريخ والأخلاق والقيم وغيرها، ولعل عدم الصحة المؤكدة واليقين الموثوق هو السبب في عدم قدرتنا على ضبط أو منع أو معالجة الويلات التي يكابدها البشر من حروب وهجرات وصراعات ومشاحنات وتقلبات اجتماعية وغيرها،

كما لا نستطيع أن نتنبأ بما سيحدث مستقبلًا، إذ لا تستطيع أن تتنبأ بتفكير القياديين أو الأشخاص في كيفية تأثيرهم في مجتمعاتهم سلبًا أو إيجابًا.

4- التفكير العلمي

1- التفكير العلمي هو نمط حياة وثقافة مجتمعية تكون مكتسبة في معظم الأحيان من خلال التربية الأسرية والمدرسية والمجتمعية، أي هي نمط سلوكي أكثر منه علمًا يمكن تدريسه، وتختلف الأمم في رقيها بمقدار التزامها بهذا التفكير، إن كان في مستوياته العليا الإبداعية ذات التخصص المنتج للحضارة، أو في مستوياته الحياتية الدنيا.

2- يعتمد التفكير العلمي على مراقبة الخط الواصل بين السبب والنتيجة، فالسبب يجب أن يؤدي حتمًا إلى النتيجة، والنتيجة يجب أن يكون مصدرها ذات السبب، ويجب فهم القضايا على أنها سلسلة من السبب والنتيجة، والتفكير العلمي هو فك رموز هذه السلسلة، والإبداع هو إمكان تصور سلسلة من الأسباب والنتائج التي توصل للهدف الذهني المطلوب.

3- إذا فالعلم هو منتج من منتجات التفكير العلمي، أي هو الأداة أو الطريق التي تؤدي بك إلى الفكر الصحيح والتصرف الصحيح والاستنتاج الصحيح والعلم الصحيح، فكثيرًا ما وجدنا أن بعض العلماء والمخترعين والمفكرين، على ما بينهم من بعد زماني ومكاني قد توصلوا لذات النتائج حينما اتبعوا نفس منهج التفكير العلمي.

4- وقد تكون العلاقة منبتة بين المتعلمين تعلمًا عاليًا وبين التفكير العلمي، فكثير من أساتذة الجامعات الذين حصلوا على أعلى الشهادات الجامعية، نجدهم عاجزين عن إنتاج فكرة جديدة في مجال تخصصهم، ذلك أن كل شخص باستطاعته أن يأخذ علمًا ولكنه إنتاج فكرة لا يمكن إلا لمن يمتلك منهجًا علميًا في التفكير المنتج، ومثل ذلك، حادثة شهدتها في مجلس عزاء، أن طبيبًا له رتبة عالية يقول أن الموتى يتزاورون كل ليلة خميس، نقلًا عما قاله شيخ معروف بالإذاعة.

5- إن افتقار شعوبنا إلى منهج تفكير علمي موحد هو السبب الذي يقف عائقًا لأي إصلاح أو تقدم أو تفاهم يمكن أن يكون بين شعوبنا وقبائلنا وأسرنا، أي لا يوجد نسق مشترك في التفكير، لأن التفكير العلمي ما هو إلا القوة المغناطيسية التي ترتب ذرات برادة الحديد، ويجعل عقول الناس على منهج واحد.

6- للدكتور فؤاد زكريا كتاب رائع اسمه التفكير العلمي صادر عن سلسلة عالم المعرفة رقم 3 عام 1978 والصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون في دولة الكويت، وهو كتاب يسهب في شرح هذا التفكير العلمي ب 259 صفحة ولا يمكن تلخيصه بأقل من 500 صفحة.

7- التفكير العلمي هو التفكير الذي يقودك للصواب ويبعدك عن الخطأ، وحينما يسير معظم الشعب أو المجتمع على طريق التفكير العلمي كما في المجتمعات الأوروبية والمتقدمة، فإن مستقبل هذه الشعوب سيكون مضمونًا، وأن وحدتها تكون أكثر تماسكًا وتفاهمها يكون ميسورًا، والبعض الذي يخرج عن هذا الطريق، إما أن ينبذه المجتمع أو ينبذ هو نفسه.

8- كما قلنا أن التفكير العلمي لا علاقة له بالعلم فإن دراسة العلوم لن تكون مفيدة، إذا لم يكن لديك التفكير العلمي، بمعنى أن تستعمل قوانين العقل الأربعة الأساسية، فإن افتقادنا للتفكير العلمي لا يكون سببه أننا لا نملك الثقافة العلمية إنما هو تعطيل قوانين العقل وهذا كلام لا يبدو واضحًا ونريد توضيحه، لأنه صلب الموضع.

9- بداية يجب التسليم التام بأن الله لا يمطر أفكارًا كما لا يمطر ذهبًا ولا فضة، ولا يحابي المؤمنين، وأن الأباليس والشياطين ليس لهم مقدرة على اللعب بعقولنا، وإلا فلماذا أعطى الله أفكارًا لليابانيين والصينيين البوذيين ليصبحوا أكثر تقدمًا ورقيًا؟ ولم يعط الشعوب المؤمنة الموحدة القانتة؟ ولماذا يسلط الله الجن والشياطين علينا ولا يسلطها على الكفار من اليابانيين والصينيين والكوريين والهنود؟ إن هذه التساؤلات تقودنا إلى القول أن معرفتنا للصواب وتوصلنا للحقيقة، هي من اكتشافات العقل وحده، وذهابنا للضلالة والخطأ، هو من فعل عقلنا أيضًا.

10- أن يكون العقل حرًا تمامًا في أن يبحث في أي موضوع يريد بحثًا علميًا، ولا يوجد تابوهات محرمة عليه، وأعتقد أن موضوعات مثل السياسة والجنس والدين عليها حدود شائكة، وممنوع اقتراب العقل منها، ليس لأنها موضوعات صعبة بل لأنه يحظر البحث بها، لذلك تكون مستنقعًا آسنًا، ومصدرًا لكل الويلات والمصائب والشرور، وتسمى الأفكار الدغمائية.

التفكير العلمي هو الالتزام بقوانين العقل الأربعة، وهي:

أ- السببية: وهو أن تبحث عن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء أية مشكلة، وتفعل كما يفعل ميكانيكي الآلات، حين يجد سبب العطل، فيصلحه ثم يجربه ويرى النتيجة، إذ لا يوجد سبب خارج عن الإدراك البشري، الأشباح والجن والشياطين والحسد والعين والتمائم وغيرها ليست أسبابًا حقيقية.

ب- قانون الهوية: بمعنى أنك قبل أن تتعامل مع أي شيء يجب أن تعرفه بصفاته الثابتة التي يختلف بها عن غيره، فعندما تقول (جنيًّا) وتتعامل معه، يجب أن تدرك ما هو الجنيّ، وهو إدراك يجب أن يعيه الناس جميعهم ويتفقون عليه، وكذلك لو قلت عن مفهوم الخلافة الإسلامية أو الديمقراطية أو الوطن أو الدولة، يجب أن يكون التعريف والمفهوم واضحًا تمامًا، فلختلاف التعريف يؤدي إلى اختلاف الفهم واتخاذ المواقف والقرارات وبالتالي الصدام والصراع.

ت- قانون عدم التناقض: فالعقل لا يقبل الشيء وضده، وأظن أننا في أحوال كثيرة ننقلب بين الشيء وضده، فمعبودو الجماهير من الزعماء ينقلبون في أذهان شعبهم من آلهة إلى خنازير، ومفهومنا بأن الله يثيبنا قصورًا يبنيها لنا في الجنة، لعمل بسيط، بينما يجعلنا مؤبدين في جهنم لخطأ بسيط مثله، إنه اختلال عقلي واضح، نابع عن عدم فهم الخطاب القرآني.

ث- قانون الغاية: وهي أن تكون الغاية واضحة تمام الوضوح، والسير إليها ممكنًا، وأن تكون الغاية مفيدة للفرد والمجتمع أيضًا، وأن لا تناقض بن الغاية الفردية والغاية الجماعية، وأن يكون العقل حرًا من سيطرة الشهوات والغرائز، لذلك فإن التفكير العلمي الصحيح يتوجب تحرير العقل من سيطرة الغرائز، ليكون العقل هو الذي يحدد الغايات وليست الغريزة.

5- نواقض التفكير العلمي

جريًا على مصطلح نواقض الوضوء، نتكلم عما لا يجعل من التفكير العلمي تفكيرًا علميًا، كما نتكلم عن نواقض الوضوء التي تجعل من الوضوء وضوءً فاسدًا.

وهذه بعض نواقض التفكير العلمي التي يتسع لها هذا المقال:

1- الاعتقاد بأن الأفكار هي من عند الله، وإنه هو الذي يلهمنا الصواب كما الشيطان يلهمنا الخطأ، ومعنى هذا أن العقل الذي خلقه الله لنا لا فائدة منه مثله مثل عقول الحمير، أو أن الله يقوم بمخاتلتنا ويسلط علينا الشيطان ليغالطنا، كما لو تنهى ابنك عن التدخين ثم ترسل له زميلًا يطغيه، ثم تعاقبه، وهذا عمل يجل عن الذات الإلهية ونربأ به عن فعل يقترفه السوقة من البشر، كما أن الله في علاه أعظم من أن يحابي أحدًا، ولو كان محابيًا فإنه لن يحابي كفار اليابان والصين والروس والأمريكان، على حساب مؤمني العرب والباكستانيين والأفغان الذين هم في الدرك الأسفل من البشر.

2- الاعتقاد بأن الأفكار عابرة للأزمنة، وليس لها مدة صلاحية تنتهي مع الزمن، وهذا الاعتقاد من نواقض التفكير العلمي، ذلك أن الفكرة وليدة العقل حينما يكون في صدد مواجهة التحديات الحياتية، لذلك كل فكرة رهينة الظرف التي ولدت بها، وبما أن الظروف لا متناهية العدد والنوع، فيستحيل أن تصلح فكرة لظرفين وإن تشابهتا ظاهريًا، إذ لا يوجد ظرفان في تاريخ البشرية متطابقان، ومن هنا يصبح الفكر القديم فاقدًا للصلاحية، وإن أردنا أن نستعير أفكارًا من الماضي علينا أن نقوم بترميمها كما لو نريد أن نسكن في بيت أثري قديم.

3- يجب التفريق بين القيم والأفكار، فالإسلام جاء بقيم الخير والحق والخُلُق، هذه القيم من عدل ومساواة وتآزر وعطاء هي قيم إنسانية تصلح لكل زمان ومكان، للمسلمين وغير المسلمين، وبما أنها ثابتة يجب أن يقوم عليها الفكر، ذلك أن القيم صادرة عن الضمير، بينما الفكر صادر عن العقل، العقل يمكن أن يضل ويخطئ، بينما الضمير بوصلة لا تخطئ اتجاهها.

4- التطبيق يعتمد على قدرة المطبق العقلية، ونواياه المضمرة، لذلك فإن ما نواجهه اليوم من فوضى الإسلام السياسي، هو أولًا: إنهم يطبقون حسب قدراتهم

المتواضعة وكأنهم عمر بن الخطاب، ويتكلمون في المفاهيم، كمفهوم الجهاد ومفهوم القصاص ومفهوم الدعوة، والخمار والسواك وغيرها من الأعراض التي طبقت بزمن مضى، ولا يصلح هذا التطبيق في ظرف آخر، وبنفس الكيفية. لا ننكر المبدأ ولكن نطالب بأسلوب يوافق العصر، وليس الرجوع للعصر الذي طبقت به.

5- بما أن الأفكار وضعها مفكرون وفقهاء، فهم بشر، ومهما كان إجلالنا لآبائنا ومعلمينا وشيوخنا وفقهائنا وأئمتنا، فإننا لا نستطيع أن نثبت أنهم معصومون عن الخطأ، لذلك فإن تناول تراث الأقدمين على أنه صحيح بالمطلق فهو خطأ بالمطلق، ومضاد للتفكير العلمي، المفكرون وضعوا أفكارًا نامية، تمتد وتكبر في الزمان وفي المكان بواسطة مفكري عصورهم اللاحقة، لكن من يضع فكرة عقيمة لا تنمو فلا بد إنها ناتجة عن خلل في التفكير العلمي، وحينما لا نقوم بتنمية الأفكار الحية فإننا نحكم على أفكار الأقدمين بالموت خنقًا.

6- وثقافة اسأل الشيخ لا تتفق مع الأسلوب العلمي، لأن الشيخ ليس مصدرًا للمعرفة، وخاصة في هذا العصر، حيث أن المصادر والمراجع متوفرة ومتاحة للجميع، ولا يوجد أحد مهما كان بقادر على أن يحتكر العلم، إذ يمكن لأي شخص أن يقرأ ولا يسأل، كما كان يفعل الأقدمون.

7- إن عدم التفريق بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، يقود إلى الخلط بينهما، وبالتالي الخلط بين منهجي التفكير العلمي، ذلك أن العلوم الطبيعية تخضع للتجربة والاختبار بشكل دائم، وبالتالي تكون مبرأة من الخطأ، أما العلوم الإنسانية فلا نستطيع أن نجرب أفكارنا على الإنسان، لذلك نكتفي بدراسة الحالات ومحاولة فهمها، وما نستنتجه من أفكار تكون ذاتية وغير مؤكدة الصحة، إن ما نعانيه من مصائب راجع إلى العلوم الإنسانية، التي لا تكون صحتها مؤكدة بل تقريبية، ونتعامل معها على أنها صحيحة صحة تامة، وخاصة في مجالات السياسة والتربية والاقتصاد والقانون والتشريع والعقوبات والعادات والتقاليد.

8- إن القول بأن الله هو سبب لكل شيء، هو تفكير غير علمي، فالله هو مسبب الأسباب، التفكير العلمي هو أن نعرف السبب المباشر الأول، والمسبب الثاني ثم المسبب الثالث وهكذا إلى أن نصل لمسبب الأسباب، لذلك ليس من التفكير العلمي أن نقفز عن السبب الأول والثاني والثالث لنقول إن الله هو

السبب، وندعي أن تفكيرنا علميًا، فالله لا يمرضك، ولا يحضر الجراثيم والفيروسات ويدخلها جسمك، إنما أنت الذي أدخلتها بقذارتك، كما لا يقوم بإغلاق شرايينك بالكلسترول ليوقف قلبك، وإن الله لا يغني أحدًا ولا يفقر أحدًا ولا يسعد أحدًا، إنما تفكيرك الخاطئ هو الذي يفقرك ويتعسك ويمرضك، بينما تفكيرك الصحيح هو الذي يغنيك ويشفيك ويسعدك ويسهل لك أمورك، وينقذك من مشاكل الحياة، ويجعلك تستغل الصدفة فتنجح، ثم يُفسِّرُ ذلك بالحظ، والذي يقول إن الله أغناه لا يريد أن يقول كيف فكر وكيف كسب، والذي يقول إن الله أفقره لا يريد أن يعترف بأخطائه، بل ينسب أخطاءه إلى لله.

9- إنه الله قد وضع القوانين التي تسير عليها الموجودات الطبيعية، ووظيفتنا أن نكتشف هذه السنن التي تبدو لنا مغلقات عقلية، يكتشفها المؤمنون والكفار والملحدون، والسبب أننا حينما نندهش فنقول سبحان الله، لم نستغل الدهشة لكي نبحث عن السبب، فالدهشة هي الشرارة التي تشعل التفكير، بينما الذين يؤمنون أن الله هو الذي خلق القوانين والسنن الكونية، لا يكتفون بالقول (الله أعلم) إنما يذهبون إلى اكتشاف هذه السنن والقوانين، وأعتقد بل أجزم أن قولنا بأن قولنا (الله أعلم) قد سد علينا سبل البحث العلمي، وبالتالي أوقفنا عن التقدم والرقي.

10- إن هذه النواقض التي أوردناها هي بعض من عشرات النواقض التي نمارسها ونحن مقتنعون بصحتها في حياتنا الفكرية والعملية، وهذا ما يبعدنا عن التفكير العلمي، ولعل هذه النواقض أكثر جلاء عند الجماعات الإسلامية والجماعات الشيوعية في كتاباتهم وخطبهم وأفعالهم ومشاريعهم وتصرفاتهم حيث يعتمدون على مقولات تعلموها، ويختالون بها وما دروا أنها صدئة.

6- الحركات الإسلامية واستخدام العلم

نستطيع أن نقول أن العلم بمفهومه الحديث لم يكن موجودًا قبل حملة نابليون على مصر، أي ما قبل القرن التاسع عشر، ذلك أن مناهل العلم الديني كانت تنحصر في جامعتي الأزهر والقيروان، وبالنجف في العراق، وهي جامعات تراثية دينية، لم يدرْ في ذهن مؤسسيها والمشرفين عليها والداعمين لها أن يجعلوها تدرس بجانب العلوم الدينية علومًا دنيوية، لذلك كان مفهوم العلوم الحديثة غائبًا تمامًا عن الأذهان، وكأنها غير موجودة إطلاقًا.

وبالإضافة إلى ذلك لم نجد في فقه الأئمة الأربعة ما يحث على طلب العلوم الرياضية أو الجغرافيا أو الفلك أو أي علم آخر غير العلوم الدينية، بل الاقتصار على رفد ما يجعل العبادات صحيحة، وما يبجل الصحابة والتابعين وهو مجال أُشبعَ كل الإشباع مما لا يجعل مجالًا لمستزيد.

أما في العصر الحاضر فإن أي من الحركات الإسلامية لم تتجه لما يمكن أن نقول عنه علمًا، أو مشروعًا علميًا أو مركزَ بحثٍ علمي أو معهدًا أو جامعة علمية، أو خطاب يعتمد على البحث العلمي، بل دائمًا يتخذون من خطبة الجمعة الأسلوب الأمثل، أي الأسلوب الخطابي الذي يخاطب العاطفة وليس العقل.

ونستطيع أن نبين بعض الأمور الغامضة التالية لعلم ينمو تراكميًا، أي يحتاج إلى أسس أو خميرة علمية ينمو عليها، وبما أننا تركنا العلوم من قبل الحروب الصليبية فإن ما ورثنا لن يكون الخميرة التي يمكن أن نبني عليها كما بنينا علومَ العربية من صرف ونحو وبلاغة، على ما أورثنا إياه سيبويه والفراهيدي والجاحظ.

1- بما أن العلوم هي غربيّة بالكامل لذلك فإن أي مشروع علمي يجب أن يكون معتمدًا على الغرب اعتمادًا كاملًا أو شبه كامل، وهذا ممكن جدًا مع الإرادة، وتعظيم قيمة العلم ودوره في الحياة، فكثير من شعوب الأرض كانوا أدنى منا حضاريًا، لكنها استطاعت أن تنهض باستخدامها العلم وليس الدين.

2- نستطيع أن نقول إن السبب هو الفكر الإسلامي الحديث، المنقول حرفيًا عن القديم، الذي يعطي الأولوية للعبادات، والتركيز على أن ما يحسب للإنسان هو

عمله الصالح، أما العمل الدنيوي فهو عمل غير مأجور عند الله، وبهذا يكون دراسة الفسيولوجيا مثلًا عملًا دنيويًا، لا نفع منه في الآخرة.

3- عدم الإدراك بأن العلوم هي لخدمة الإنسان في هذه الدنيا، وتحسين عيشه، ومن المفارقة المضحكة أن هؤلاء المسلمين يستخدمون هذه المنتجات العلمية من سيارة وطائرة وهاتف خلوي وأدوية وغير ذلك، ولا يتساءلون كيف توصل هؤلاء الكفار لهذه المكتسبات العلمية، هل كان بواسطة العلم أم بواسطة أخرى، بل نجد من يجيب على هذا السؤال بقوله إن الله سخر لنا الكفار لخدمتنا.

4- إن الأحزاب الدينية التي هي دائمًا أكبر الأحزاب في كل بلد عربي، لم تقم بدورها كما هي كل الأحزاب في العالم، وهي أن تكون سباقة في ترسيخ العلم بين أعضائها من خلال تعويدهم على القراءة في كتاب بدلًا من أن يستمع لشريط مسجل لواعظ مجهول، أو أن يذهب لسؤال شيخ، لا نعرف مدى صحة علمه، كما لم تقم على سبيل المثال بمشروع ترجمة لكتب علمية أجنبية تراها ضرورية للتقدم والنهضة ورفع مستوى الوعي، أو مشروع إصدار كتب تنويرية فيها أفكار جديدة تخدم المشروع الحضاري.

5- انتشار علم زائف، هو الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وهذا الموضوع أسهبنا له مقالًا خاصًا، وقلنا أن المؤمن لن يزيد إيمانه إن عرف أن القرآن قد سبق العلم الحديث، إنما هو استعمال خاطئ للعلم، فما كان العلم يومًا سبيلًا إلى معرفة الله والإيمان به، وإلا كان كل العلماء هم مؤمنين بالضرورة، كما طرحنا سؤالًا على هؤلاء المتفيهقين، لماذا لم تنطلقوا من إشارات القرآن الكريم العلمية لتشاركوا في إثراء العلوم الحديثة؟ فتفهموننا وتفهموا العالم كيف تكون السماوات سبعًا والأراضي سبعًا؟ وما هي الأسماء التي علمها الله للإنسان؟ وكيف تكون الجبال أوتادًا؟

6- فبركة أخبار عن العلماء والمفكرين الغربيين الذين أسلموا فور معرفتهم أن القرآن يحوي علومًا اكتشفت حديثًا، مما امتد بهم الأمر إلى أن يقوموا بفبركة اكتشافات ومعلومات لتتفق مع ما جاء في القرآن الكريم، فوجد أحدهم أن هناك نجم يصدر طرقات، استطاعوا أن يسمعونا إياها، وبذلك اثبتوا أن هناك نجم طارق، وأجزم أنكم واجدون الكثير مثل هذه البهلوانيات العلمية.

7- أن بناء دولة إسلامية أو غير إسلامية لا يكون بالسطو على أدوات الحكم، إنما يكون بالبحث عن مقومات الدولة الأساسية، وهذه المقومات متغيرة في الزمان والمكان، وإن ما قامت عليه الخلافة الراشدة غير ما قامت عليه دولة بني أمية، فما بالكم بالعصر الحديث؟ التي يكون أهم مقوم من مقوماتها هو امتلاك التكنولوجيا، التي هي ناتج من منتجات العلوم التي يجهلها الإسلاميون أو يقللون من شأنها.

8- يعتقد الكثيرون بأن هناك صلة بين العلم والمعتقد الديني، كأن يكون هناك طبيب مسيحي ومهندس يهودي وطيار مسلم وكأن هناك طب مسيحي وهندسة يهودية وطيران إسلامي، وأن كل صاحب دين يمارس مهنته وفقًا لمعتقده الديني. إن هذا مضر جدًا أكثر من عدم الحصول على العلم، ويدل على لوثة عقلية قابلة للعدوى.

7- العلمانية ونشأتها

العلمانية، ذاك المصطلح الغامض القابع في اللاشعور لدينا، كفوبيا مخيفة لا ندري مصدرها، هذه الفوبيا التي تقض مضجع بعض الناس من الإسلاميين، فتثير حميتهم لصون الدين وديار الإسلام من هذا الوباء الذي يهب علينا.

يمكن أن نُرجع هذا التخوف إلى سببين اثنين أولهما عدم وضوح معنى العلمانية عند مؤيديها وعند مناوئيها على السواء، والسبب الثاني هو ما ورثناه من هجاء الأزهريين لكمال أتاتورك حيث قام عنوة بسحب المجتمع التركي من تاريخه الإسلامي، أو سحب الغطاء الإسلامي والهوية الإسلامية عن المجتمع التركي باسم التوجه العلماني، وما ظلت تردده الجماعات الإسلامية منذ العشرينيات من القرن الماضي من ندب متواصل تقوم به، ولعن للعلمانية والقومية اللتين كانتا وسيلة أتاتورك لتنفيذ مآربه.

بداية يجب أن نقوم بفهم الدلالة اللغوية لمصطلح (علمانية)، فأحدهم يقول عِلمانية بكسر العين، وهي مشتقة من العلم والثانية عَلْمانية بفتح العين وهي مشتقة من العالم وكلا اللفظتين ترجمة لكلمة سيكيولارزم الفرنسية (secularesim) فالاختلاف ليس في الترجمة الحرفية بل باشتقاقها، فالمصطلح الفرنسي للكلمة يعني النزعة العلمية، لذلك ترجمت عِلمانية، أما المصطلح الإنكليزي فهو مشتق من الكلمة اللاتينية (seculum) وتعني الفئة الدنيوية المادية أو الزمنية المغايرة للفئة الروحية.

العَلمانية بفتح العين وليس بكسرها، ليست فلسفة ولا أيديولوجيا ولا مذهب اجتماعي أو ديني أو سياسي، إنما هي توجه كان لا بد منه للمجتمعات الأوروبية حينما وجدت نفسها مقيدة بسلطات دينية لا تدرك ما يجري من تطورات حدثت بعد سقوط الأندلس وما تلاها من كشوفات أثرت على المجتمع، وأن السلطات البابوية لم تعد لها القدرة على الإمساك بزمام التغيرات الحضارية، وأن الطبقة البرجوازية قد تجاوزت نظام الإقطاع، وخلقت لنفسها من العمال طبقة لها رؤاها وتفكيرها ومصالحها، وكان مرافقًا لذلك أيضًا ظهور علماء وفلاسفة في أوروبا مثل ديكارت ونيوتن وكوبرنيكس وغاليلو وغيرهم، ما فتح العقول على أشياء جديدة مفيدة جعلهم يعزفون عن معلومات الكنيسة الموروثة.

لم تولد العلمانية مرة واحدة، بل هي على فترات قرون أربعة، ولم تكن خيارًا سهلًا، بل كانت ذات كلفة عالية من الألم والتضحيات والصراعات والحروب، والتي كانت في سبيل معالجة قضايا اجتماعية مهمة، كمفهوم الحرية والعبودية والتقدم والتغيير نحو الحياة الأفضل والمساواة بين البشر، والحروب العنصرية والدينية والصراعات السياسية والتكالب الاستعماري على الاستحواذ على أراضي العالم الجديد والقديم، فكان لا بد من استخدام العقل في فض الاشتباكات الفكرية والعقائدية والتمكين للطبقة البرجوازية من تحقيق مآربها وأهدافها، وأن ما تملكه الكنيسة لم يعد صالحًا لهذه الإشكاليات المستجدة، بالإضافة إلى تجرؤ الأمراء والملوك وتمردهم على سلطة البابا الروحية والاحتماء بالقوميات، وهذه المبادئ ترجمتها الثورة الفرنسية بمبادئها الثلاث؛ عدالة، حرية، ومساواة.

من هنا نرى أن ظهور العلمانية في أوروبا لم يكن لمعاداة الدين أو الكنيسة مقصدًا بذاته، إنما هو نوع من تحديد صلاحيات الكنيسة وتحديد صلاحيات السياسيين، بحيث لا يطغى أحدها على الآخر ولا يلغيه، ذلك أن مجال السلطة الدينية هو المجال الروحي الإيماني الذي تقف حدوده عند الدعوة إلى الإيمان، أما السلطة الدنيوية فإنها بحاجة إلى إعمال العقل والتفكير وجعل الحياة ممكنة وممتعة، وهذا يتطلب كفاءات متخصصة في كل مجال، وهذا ما لم تستطع المؤسسة الدينية القيام به، لذلك فإن اعترافها بعجزها عن القيام بالعمل الدنيوي قد أخذ وقتًا طويلًا حتى استقر الوضع على ما هو عليه الآن.

إذن فإن أحدًا لا يملك القرار النافذ كي يذهب بشعب عربي أو شعب مسلم أو أمة إسلامية إلى العلمانية، فالعلمانية هي ضرورة تقتضيها المشكلات الاجتماعية والحضارية والسياسية والتقنية، التي يغدو فيها المنهج العلمي هو المنهج الأقوم في علاج كافة القضايا، ويقوم بالتخطيط والتنفيذ أناس مختصون في مجالاتهم، بالقدر الذي يكون رجال الدين مختصون بالأمور الدينية.

إن الذهاب إلى العلمانية يكون مقبولًا حينما تكون العلمانية ثقافة عامة، وتحكم تفكير وسلوك المجتمع، وآلية فكرية لحل القضايا الناشبة، ذلك أن أهداف العلمانية هي التالية:

1- إن حق المواطنة هو الأساس في الانتماء بصرف النظر عن الدين والجنس واللون.

2- الحكم يكون بواسطة الدستور، الذي يساوي بين جميع المواطنين ويكفل حرية عقائدهم.

3- إن المصلحة العامة والخاصة هي هدف التشريع وأساسه.

4- نظام الحكم مدني، يستمد شرعيته من الدستور، ويسعى لتحقيق العدالة من خلال القانون، ويلتزم بميثاق حقوق الإنسان.[٦]

---

[٦] ملاحظة : كثير من المعلومات في هذا المقال مستمد بتصرف من بحث الكاتب أيمن فايد، المنشور بمجلة أدب ونقد، عدد 159، لشهر كانون أول لعام 1998.

8- واقع العلمانية في العالم العربي

لا أدري في أي عام استمعت لمحاضرة ألقاها الدكتور فؤاد زكريا في مؤسسة شومان، حيث قال إننا نعيش الحالة التي كانت تعيشها أوروبا في القرون الوسطى، إذ كان هناك عجز تام عن إيراد أية فكرة جديدة، متبعين أقوال الأقدمين، وأورد حكاية لتكون مقاربة ومدخلًا لرؤيته للواقع الفكري في العالم العربي، فقال:

(كان هناك مجمع للعلماء الأوروبيين يجتمعون داخل خيمة كبيرة ومعهم كتبهم ومراجعهم، وخلال البحث كان عليهم أن يعرفوا عدد أسنان الحصان، فطفق كل منهم يبحث في مراجعه عن عدد أسنان الحصان، أو إن كان أرسطو قد ذكر ذلك، ولم يفطن واحد منهم أن له حصانًا مربوطًا في خارج الخيمة، يمكنه أن يخرج ويعد أسنانه).

وأراد أن يقول من هذه الحكاية التي تعبر عن الجمود الفكري أنها تنطبق على عالمنا العربي، حيث أن كسلنا الفكري وعدم قدرتنا على الذهاب إلى غابة الأفكار لنلتقط الطازج والجديد يجعلننا نخلد إلى تركة الماضي ولا نفكر إن ما زالت تلك الأفكار صالحة للاستهلاك أم فاسدة مضرة.

واستشهد على ذلك تحري هلال رمضان أو شوال، فَعِلمُ الفلك الحديث بحساباته الدقيقة يستطيع أن يعرف في أي وقت، وفوق أي خط طولي ينتقل القمر من المحاق إلى الهلال، ولكننا جريًا على الموروث نجد في رؤية مجموعة من الشيوخ العجائز أكثر صدقًا من الحسابات الفلكية، وهذه الممارسة التي تتمسك بالقديم دون تغيير أشبه بأصحابنا في القرون الوسطى مع عدد أسنان الحصان، ما هو إلا دليل على أننا لم نزل في القرون الوسطى، وأن المؤسسات الدينية لم تزل مصرة على عدم الأخذ بالعلم الحديث، وإيقاف التطور والتغير والوقوف عند مستوى تحصيلهم الديني، لا لسبب إلا أنهم لا يريدون مغامرات اللحاق بركب الحضارة الحديثة، عجزًا منهم أو حرصًا على موقعهم المسيطر وحظوتهم عند السلطات.

وهناك ظاهرة سخيفة في مظهرها عظيمة في دلالتها وهي برامج إذاعية وتلفزيونية مخصصة للإجابات البسيطة من الشيوخ، وكأن المجتمع ما زال أميًا غير قادر على القراءة، وغير قادر على أن يدرك بفطنته ما يواجهه من

مشاكل ويستعمل عقله ويقرأ في أي كتاب مختص بدلًا من هذه البرامج المتخلفة.

إن الإسلاميين يقفون بصراحة وعدائية لا تخفى ضد العلمانية لأسباب لا يعرفون مصدرها، فالأزهريون الذين وجدوا أن انهيار الدولة العثمانية كان بسبب مبادئ القومية والعلمانية التي جلبها لهم كمال أتاتورك، لذلك أصبحوا معادين للقومية والعلمانية، وكل ما هو غربي، وذلك بسبب غياب نقطة واحدة ذكرناها وهي أن العلمانية ليست تقنية علمية أو منتج صناعي يمكن أن يؤخذ جاهزًا، إنما هو مفهوم، كالأداة التي يمكن أن تستعمل بشكل خاطئ أو مفيد، أو كقطعة من قماش، يمكن لأي مجتمع أن يفصلها حسب مقاسه، فالعلمانيات التي في العالم لا تشبه بعضها بعضًا، بل تأخذ هوية وثقافة المجتمع الذي تبنّاها، فستالين مثلًا طبق علمانيته في سياق الفكر الماركسي، وهي غير العلمانية التي طبقها ماو في ضوء الفكر الشيوعي، ذلك أن الصين هي غير روسيا، وأن العلمانية التي طبقها هتلر وموسليني متوافقة مع الفكر النازي والفكر الفاشستي الذي يعلي من العنصر الجرماني والروماني، والعلمانية التي طبقها كمال أتاتورك هي نموذج آخر لفكر أتاتورك وحزبه، للحاق بالركب الأوروبي والانسلاخ عن الماضي الإسلامي، إذن فالعلمانية مفهوم قابل أن يكون إسلاميا أيضًا كما يريده الإسلاميون بكافة أحزابهم وتوجهاتهم، كما أوجدوا بنوكًا إسلامية ومدارس ومستشفيات إسلامية، يمكن أن تكون علمانية إسلامية.

وإذا ما رجعنا إلى موقف الحكومات العربية من العلمانية نجد أنها لا تشجع على إدخال العلمانية، لأنها ترى في غياب العلمانية، غيابًا للوعي الشعبي، وبما أن الدولة مرتاحة على شيوع الفكر الديني، الذي يطلب من الله ما يجب أن يطلبه من الحكومة، لذلك فإنها قد أرخت العنان لهذا الفكر أن يتغلغل عميقًا في الطبقات الاجتماعية وخاصة الدنيا منها خلال الإجراءات التالية:

1- الهبوط في التعليم المدرسي والجامعي إلى مستوى إزالة الأمية.

2- عدم الاكتراث في البحوث العلمية والفكرية وتركها للجهود الفردية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بل تشجع الرجوع للتراث والإبقاء على العادات والتقاليد، كتمسك بالوطنية.

3- عدم التشجيع على القراءة ودعم الكتّاب والمبدعين والتأليف والترجمة، بل تعمل على محاصرة المفكرين واعتقالهم كالمجرمين أو المخربين ومنع دخول الكتب وكأنها مخدرات، وفي المقابل التسهيل لرجال الدعوة الأميين لنشر أفكار مضللة وغير محققة وتسيء للدين، من خلال أشرطة ومحاضرات فيها كثير من الخرافة.

4- النص في الدستور على أن دين الدولة هو الإسلام ما عدا لبنان، وهو نص أدبي وليس علميًا، فالدولة شخصية معنوية، ليس لها دين، ذلك أن الدين للأفراد، فمثل هذا النص الذي لا معنى له، ليس إلا مداهنة تيارات الإسلامية، ذلك أن قول (الدولة إسلامية) لا يجعل المواطنين مسلمين ولا يزيد من إسلامهم.

5- تعليم الدين في المدارس والجامعات والكليات، وهذا التعليم رغم كفايته لم يكفّ هجمات رجال الدعوة والسلفيين وغيرهم عن إعادة تعليمنا ديننا، كما لم يستطع أن يحدّ من التطرف الديني.

6- هناك دائمًا وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ومجالس الإفتاء وهو تأكيد على أن الدولة إسلامية، رغم أن المهام التي تقوم به هذه الوزارة من زواج وطلاق وإرث يمكن أن تقوم به وزارة الداخلية.

7- البرامج الدينية المتعددة في الإذاعة والتلفزيون والصحافة والاحتفالات الدينية في المناسبات.

8- جميع هذه الظواهر هي ما يؤكد أن الدول العربية هي غير علمانية، ولكن لو نظرنا إلى بعض المفاهيم السائدة في معظم الدول العربية مثل الوطن والأمة والقومية والدستور والحرية والمواطنة والديمقراطية والعدالة وحقوق الفرد وخاصة للمرأة والطفل والاشتراكية والوحدة والنقابات والانتخابات والمظاهرات وغيرها تدل أن العلمانية متغلغلة في المجتمع رغمًا عن معاداة الإسلاميين، أو أنهم لا يعلمون أنها من مخرجات العلمانية.

9- ورغم وجود العلمانية الخفي أو التي لم يعترف بها أحد، فإن العلمانيون العرب ساهموا في حركة التحرر والاستقلال العربي ومشروع النهضة العربية، رغم المعيقات التي وضعها الإسلاميون، ويعود لهم الفضل في كل المكتسبات الحضارية التي تحققت.

10- إن جميع الدول العربية فيها مقادير متفاوتة من العلمانية ولعل أكثر دولتين ينحوان نحو العلمانية هما لبنان وتونس، وأكثر البلدان ابتعادًا عنها هما السعودية واليمن.

9- العرب والعلمانية

قلنا إن العلمانية ليست عقيدة أو فلسفة أو نظرية أو مشروع طبقي أو حزبي أو مؤامرة يراد بها شرًا لنا، العلمانية ضرورة بمعنى أنها لازمة في وضع يكون فيه النهوض الاجتماعي والسياسي قضية ملحة، ولقد اضطلع العرب على هذا الموضوع من خلال دراسات المتنورين والمثقفين المبتعثين إلى أوروبا، لكن لم يكن تقبلنا لها بالتفهم اللازم، ذلك أن قبول فكرة العلمانية أو رفضها يجب أن يكون من قِبَل عقل وفكر منفتحين، قادرين على التمييز بين الصواب والخطأ، وبما أن الفكر النقدي المنفتح كان ومازال مفقودًا عند غالبيتنا أو غير مفعّل، فإن قبول العلمانية أو رفضها سيكون بشكل سطحي، هو وعدمه سواء.

وكأول رصد لبعض مفاهيم العلمانية في عالمنا العربي، كانت الرسالة التي وجهها إبراهيم باشا ابن محمد علي إلى متسلم اللاذقية (محافظ) في 24 ربيع ثاني 1248هـ وفيها يقول (المسلمون والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب لا دخل له بحكم السياسة، فيلزم أن يكون كل بحاله، المؤمن يجري بحاله والعيسوي (المسيحي) كذلك، ولا أحد يتسلط على أحد)، هنا وضع إبراهيم باشا مفهوم المواطنة، التي لا تقوم على أساس ديني إنما هو إداري وسياسي، وربما أنه لم يكن يدرك مفاهيم العلمانية، فهذا يؤكد ما نذهب إليه إلى أن العلمانية ضرورة، وليس هدفًا في ذاته.

ولعل محمد على القادم من البوسنة أو البشناق، كان على علم بما يجري في أوروبا بعد الثورة الفرنسية، فابتعث من الأزهريين جماعات إلى فرنسا لينهلوا من الحضارة الأوروبية، وربما لم يكن هؤلاء البسطاء من التأهيل لينقلوا الحضارة الأوروبية بوعي ومن ضمنها العلمانية، إلا أنه يبقى الجيل الذي افتتح ميدان التحضر، وكان بقدراته المتواضعة اللبنة الأولى في بناء المرحلة الأولى في حضارتنا الحديثة.

لم يكن رفض العلمانية كوسيلة للتحضر نابعًا عن وعي بما هي العلمانية، إنما كانت هناك أسباب حالت دون تقبل العالم العربي للعلمانية يمكن فهمها من خلال السياقات التالية:

1- كانت الشعوب العربية في سبات منذ انتهاء الحروب الصليبية، إذ لا ثقافة سياسية أو مشاركة سياسية، لم يكن من السهل أن تنهض فجأة، فلا بد لها من فترة تململ وتكاسل، ورغبة في استمرار النوم، واعتبار الدعوة إلى النهوض ضربًا من الإزعاج المرفوض.

2- أما الفترة الثانية فهي التي رافقت الاحتلال البريطاني لمصر، وما تلاها من سيطرة الفرنسيين والبريطانيين على معظم الدول العربية، حيث بدأت تبني دولًا على نظم سياسية وإدارية وقوانين مدنية حديثة، فاشتبكت مع كثير من الموروث الثقافي والديني والعادات والتقاليد، مما جعل الأمور تختلط بحيث لم نعد نعرف الصالح من الطالح، فماذا يريد الاستعمار من هذه النظم الحديثة؟

3- وربما كان الاشتباك شديدًا في مسألة تحرر المرأة من القيود التي لم ترها قيودًا بل أساور رائعة لا يجدر بها أن تتخلى عنها، لذلك رفضت العلمانية حينما رفض المجتمع خلعها للخمار وتعليمها في المدارس وخروجها للعمل واعتبارها مساوية للرجل في الحقوق والواجبات، لأن هذا لا يتناسب مع مفهوم الرجل الشرقي في القوامة على النساء، وغدت مساواة المرأة بالرجل إهانة كما لو تقول له أنت كالمرأة.

4- أما مسألة الحكم المدني، فالمجتمع العربي لم يكن لديه أية ثقافة سياسية تحت الحكم العثماني، فهو يعلم يقينًا أن هناك سلطانًا في إسطنبول لا يمكن أن تصل إليه الأنظار، أو أنه مقدس فوق الشبهات وسلطته مطلقة، ولا أحد يلمس أثرًا للحكومة إلا حينما يأتي جابي الضرائب أو التحصيل دار، ومن هنا وجدوا أن الحكم المدني الذي أتى به المستعمر، ليس في إطار تصورهم للحكم العثماني، الذي يمثله خليفة لرسول الله ﷺ في استانبول، وأن هذا النظام هو نظام استعماري كافر، في سياق رفض الاستعمار يصبح رفض نظام الحكم المدني هذا مرفوضًا، والسعي إلى استرداد حكم الخلافة الإسلامي واجبًا، وبالتالي تم رفض الحكم المدني، وتم رفض العلمانية.

5- أما مبدأ المساواة العلماني بين الناس، فلم يكن في العالم العربي مصطلح المواطنة، حتى يبحث في حقوق المواطن، فبلاد المسلمين مشاع لكل المسلمين، ولا يوجد تقسيم ديني، ذلك أن تسعين في المائة من المجتمع كان إسلاميًا، ولم يشكل المسيحيون واليهود أو الطوائف الأخرى خطرًا على المسلمين، لذلك كان التعايش بين الأديان جيدًا، في القرى والمدن.

6- لكن الوطن العربي كان ذا تشكيلة عشائرية، وكانت كل عشيرة تجعل من نفسها ندًا للعشائر الأخرى، وأن الصراع مع العشائر الأخرى هو صراع بقاء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان هناك انقسام طبقي بين بدو وفلاحين وحضر، وكل طبقة ترى في الطبقتين موضوعًا للصراع، ومن هنا نجد أن الطرح العلماني للمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات طرحًا مرفوضًا أيضًا بناء على هذه المفاهيم الطبقية الموروثة.

7- ومن هنا نجد أن رفض مبادئ العلمانية كان رفضًا له مبرراته الموضوعية، ولكن حينما يطرح الإسلاميون رفض العلمانية، لا يتكئون على مثل هذه الأرضية التاريخية، إنما من مبدأ أن العلمانية هي منافية للدين، وبما أنهم بصدد إقامة دولة إسلامية، فإنهم يؤكدون أن العلمانية هي ضد الإسلام، فمتى كان الإسلام ضد الحكم المدني؟ والرفاء والتقدم المجتمعي؟ وضد العقلانية في معالجة القضايا؟ ومتى كان الإسلام ضد احترام المرأة ومساواتها بالرجال وإعطائها الحقوق؟ ومتى كان الإسلام ضد المساواة بين الأجناس والأديان (كلكم لآدم وآدم من تراب)، ومن قال أن في تشريعنا وفقهنا وثقافتنا معالجة مانعة لقضايانا الشائكة، كتنظيم المدن وإدارة الشركات، والعلاقات الدولية، وقانون الاستثمار، وقوانين المرور وتشغيل الناس وتقدير الرواتب لهم ونظام الزيادات والتقاعد وغيرها وغيرها ......، فهل لشيخ معتكف في صومعة أن يفتينا بحلول لها، مِن عِندِهِ أم من كتب الفقه والتشريع؟ كي نبقي على إسلامية الدولة مظهرًا وجوهرًا؟

ومن ناحية أخرى من قال أن العلمانية تقود للتحلل الخلقي والاجتماعي؟ ومن قال أن العلمانية ضد الأديان ومع الإلحاد؟ ومن قال أن العلمانية مؤامرة على الإسلام والمسلمين؟

[8] حاجتنا للفلسفة والمنطق

1- ضرورة التفلسف

2- المنطق فطرة

3- من تآمر على المنطق

4- مجالات المنطق

أ) المنطق الأرسطي

ب) المتطق الرمزي

ج) المنطق الرياضي

5- المنهج التجريبي

1- ضرورة التفلسف

لا أدري كيف يمكن لنا أن نجلو وجه التفلسف الذي تم تشويهه عبر قرون عشر، وطمست ملامحه التي ران عليه الكثير من السخرية والاستهزاء، والتندر به كموضوع لا يسمن ولا يغني من جوع، بسبب إنكار الفقهاء والأئمة الدينيين والشيوخ لهذا المجال، رغم أن الدين هو تفلسف، من حيث أنه رؤية شاملة للحياة البشرية في الدنيا والآخرة، إن الذين يرون التفلسف لا فائدة منه، فإن ذلك نابع من عدم قدرتهم على السمو الفكري ليروا أكثر من موضع أقدامهم، إن التفلسف ما هو إلا علو فوق هرم من المعارف والعلوم الدينية والدنيوية، والتفلسف هو إعادة فرز هذه المعرفة وترتيبها ثم بناؤها بناءً متماسكًا، فيعلو البناء لتتسع من على سطحه الرؤية وبالتالي تعلو الأمة.

في تاريخنا بدأ التفلسف بعلماء الكلام في البصرة، مصاحبًا للعلوم الدينية واللغوية، عند المعتزلة وإخوان الصفا، فكان هذا التفلسف الأولي ضروريًا لمراقبة نمو العلوم والتأكد من صحتها وفتح الطرق لها لكي تنمو وتتسع، وحينما توسعت العلوم واطلعوا على الفلسفة اليونانية وظهر الكندي كأول فيلسوف عربي ظهر بعده أشهر فيلسوف عربي وهو الفارابي كما ظهر في العدوة الأخرى (الأندلس) ابن رشد وابن طفيل وابن حزم الظاهري وابن خلدون، أما الغزالي الذي كان فيلسوفًا بطبعه فإن الفلسفة أمرضته فانتحر بها ونحر الفلسفة بكتابه تهافت الفلاسفة، ومن ذلك الوقت ماتت الفلسفة وبدأت حضارتنا بالتدهور حيث اقتصرت على العبادات، وإعادة إنتاج ما سبق إنجازه ولا جديد إلى اليوم.

خطر لي هذا الموضوع وأنا أقرأ كتاب الفارابي (آراء أهل المدينة الفاضلة) وكنت قرأت عنه ولم أقرأه فوجدت فيه ذلك الفيلسوف الذي نادرًا ما يجود به القدر، فهذا الفيلسوف المؤمن ابتدأ من معرفته بالله كقاعدة يقينية جعلها منطلقًا لتصوره الشامل للكون والحياة البشرية، وبدأ يتكلم عن الملائكة كمخلوقات روحانية علوية ثم عن الأفلاك التي اعتبرها مخلوقات لها فعلها وتأثيرها، ثم نزل إلى الأرض، وتابع ترتيب المخلوقات القميئة البسيطة حتى وصل بها الإنسان وكأن داروين قد تأثر برؤيته، وبعدها انتقل إلى المجتمع البشري، ونظرية الاستخلاف، وجعل لكل مجتمع حاكم، ووضع الشروط التي يجب أن يتمتع بها أو ببعضها كل حاكم، وتشعب بعدها

لكي يضع لكل جانب شروطًا مثلى بحيث تصبح هذه المدينة الفاضلة التي يحلم بها.

ولنضرب أيضًا مثالًا آخر وهو كارل ماركس، فقد انطلق من فكرة توزيع ثروة المجتمع توزيعًا عادلًا على الأفراد ، فقال بالملكية الجماعية، نافيًا الملكية الفردية كما هي الرأسمالية، هذا التصور هو تصور عام لما يجب أن يكون به العيش سعيدًا، وقد أفنى حياته في رسمه وتقصي تفصيلات التفصيلات في المجتمع والدولة والاقتصاد والتصنيع توزيع فائض القيمة، ووجد من بعد موته من يأخذ هذا المخطط ويطبقه في روسيا والصين وغيرها من البلدان.

وفي بريطانيا كان هناك فيلسوف اسمه جون لوك، كان معاديًا للملكية، ووضع نظامًا آخر جمهوري فيه العدل والمساواة والعقد المشروط مع الرئيس، أخذت عنه تصوره هذا كثير من الشعوب وطبقته، ومنها فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

لم أذكر هذا إلا لتوضيح ماهية الفلسفة، إنها نظرة شاملة، تصور واسع يضعه الفيلسوف، ويمكن للآخرين أن يأخذوا تفصيلاتها ويطوروها ويفصلوها على مقاسهم ، وهي أشبه بعمل المهندس الذي يخطط لمدينة سكنية، إذ يضع تصوره على ورق كهيكل أولي، ثم يرتب فيها العمارات السكنية والمباني المرافقة والخدمية والطرق والمتنزهات، وشبكة المياه والصرف الصحي وأعمدة الإنارة وتوزيع الطاقة الكهربائية، ثم يعمد إلى تفصيلاتها الدقيقة، وبعد ان ينجز المشروع نظريًا ، يترك للمهني المختص أن ينفذ حسب ما ورد في المخطط، مما يجعل منها مكانًا صالحًا للسكن ولا يتسنى هذا العمل إلا لمن خبر شروط السكن الصالح والحياة المريحة التي تكفل متطلبات البشر.

أقول للمتحفزين إلى القول بأن لدينا فلاسفة ولدينا ممن حصلوا على درجات الدكتوراه في الفلسفة، ويعملون في تدريسها للطلبة في الجامعات، وهناك الخريجون سنويًا من كليات الفلسفة، أقول إن التفلسف موهبة لا يمكن أن تتأتي بالدراسة كما لا يمكن تعلم الغناء أو الفن أو الشعر، إن معرفة العروض والنحو لا تكفي لأن تصنع شاعرًا، إن الدراسات الأكاديمية في الفلسفية شيء، والتفلسف شيء آخر، الأول هو معرفة، أما التفلسف فهو إبداع، في العلم تتكلم عن موضوع تدركه، أما التفلسف فإنك تتكلم عن شيء تكتشفه، تضع رؤية قد تسميها نظرة، تجلو بها الواقع، أو على الأقل بحث الأمور السائدة

والتأكد من صحتها أو خطئها، وأنا لا أدري لماذا نفتقر للتفلسف، رغم وجود من يتفلسفون في جزئيات الحياة، وهذا جيد فهو يجعلني أن أقول متفائلًا أنها لا بد وأن تصبح يومًا فلسفة متميزة، تتناول الكليات، بعد أن ترسّخ جذورها في الجزئيات.

لا بد أن أوكد أيضًا أن الفلسفة تجعل الإنسان سعيدًا، أنها ترفعك عن العالم، فتشرف بك عليها، فترى تفاصيلها الملتوية ومناطقها المهملة واقتظاظاتها المعتمة، بل تصعد بك أيضًا قريبًا من اللّه، وتنزل بك لترى الجراثيم والفيروسات كيف تعمل، حتى الذرة بالكتروناتها ونيوتروناتها، وقال تعالى (ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا)[٧].

---

٧ [البقرة : 269].

2- المنطق فطرة

المنطق فطرة إنسانية محضة، وليس قانونًا وضعيًا اجتهد في وضعه الفلاسفة، بل فطرة يمارسها العقل الإنساني دون أن يعي ذلك، ذلك أنه وهو مستغرق في التفكير بما حوله من مفردات الطبيعة، فإنه ينسى أن يفكر في تفكيره، ولا ندري متى راح يفكر في ذاته، وكيف يميز الصواب من الخطأ، وأظنه كان ذلك بعد أن نال قسطًا من المعرفة بالعالم الذي حوله، عندها راح يغور في داخل نفسه، بما سمي فيما بعد بالتفكير الاستبطاني.

هذا يدلنا أن الذين لم ينالوا قسطًا وافرًا من العلم والمعرفة الطبيعية، ولم يصلوا بعد إلى عتبة العلوم المنطقية، فإنهم معذورون إذ رأوه لغوًا وترفًا غير مرغوب به، فنحن واجدون كل الذين يشتغلون في الفلسفة لابد لهم أن يقفوا على هرم من المعارف الحضارية المختلفة، فالعلاقة جدلية بين التفلسف وكمية المعارف، فلا بد لكل من لديه معرفة واسعة، أن يبحث عن تصور لربطها بنظام ذهني لكي يسهل عليه تنظيمها وترتيبها وبالتالي تناولها، وهذه هي الفلسفة، تعيد ترتيب مكتسباتك المعرفية، كما يعيد البقال ترتيب بضاعته مع كل توسع لتجارته.

إن حضارتنا لم تنمُ ولم تزدهر إلا على أساليب تفكير منطقية، أأقررنا بذلك أو أنكرنا، وحينما نرجع لمنجز مفكرينا وعلمائنا وفقهائنا الكبار، سنجد أنهم يعتمدون على فطرة التفكير المنطقي، فمثلا الخليل بن أحمد الفراهيدي وهو في صدد تأليف كتاب العين، ورصد كلمات اللغة العربية المستعملة، استخدم ما يعرف في علم الرياضيات الحديث التوافيق والتباديل، في وقت لم يكن هذا معروفًا في علم الرياضيات، ولم يكن الخوارزمي قد ولد بعد، بمعنى لو أخذنا كل حرفين معًا سنجد 28×28= 784 كلمة مكونة من حرفين، ولو أردنا أن نحصي الأفعال الثلاثية ستكون 28×28× 28 =21950 كلمة مفترضة، وبهذا المنطق الرياضي قام بإحصاء كلمات اللغة العربية.

والإمام الشافعي وهو في صدد فتاواه الفقهية أراد أن يقف على قاعدة من الفكر الموثوق بصحته، فكان القرآن الكريم أولها ثم الحديث الصحيح ثم أهل العلم فالعرف فالعادة، وذكر هذا في كتاب الرسالة، وما فعله هو أصل المنطق أي أن تكون متأكدًا من صحة الأفكار التي تبني عليها أفكارك المستنتجة، وتسمى في علم المنطق: المقدمة الصادقة.

أما علماء اللغة من نحويين وبلاغيين فقد قام عملهم على الملاحظة والإحصاء والتصنيف، ثم استخراج القواعد العامة للنحو والصرف والبلاغة وغيرها من علوم العربية، وهذا هو المنهج الوصفي، وهو من المنطق.

وأبو حنيفة النعمان أيضًا كان فقهه قياسًا شرطيًا، وكان نموذج نقاشه (أرأيت لو أن كذا...؟) أي أنه يفترض المشكلة ويبحث عن نتائجها وبالتالي القياس على أشباهها وهو ما كان يفعله سقراط وأفلاطون وأرسطو، وأمكن صياغته في كتب المنطق في أبحاث الشرط والقياس.

وإلى عهد ابن خلدون كان مفهوم التاريخ على أنه مجموعة من أخبار الأولين ولا تواصل بينها ولا تأثير لبعضها على بعض، وعندما استعمل قانون السببية استنتج قوانين حركة التاريخ، وفق استقراء ما ورد في الأخبار، على قاعدة لا شيء يحدث بدون سبب، وبالتالي لا يوجد في التاريخ شيء لا يقبله العقل، والاستقراء هو من علم المنطق، وبذلك أسس لعلم الاجتماع.

أما علماء الطبيعة مثل ابن سيناء وابن الهيثم وجابر بن حيان والخوارزمي فلم يكن عملهم عشوائيًا، فابن سيناء لم يذكر دواءً أو مرضًا إلا بعد أن تأكد من فعاليته بالتجربة، وابن الهيثم في البصريات أراد أن يعرف إن كانت العين تصدر الضوء فترى الأشياء، كما نقل عن أبوقراط، أم تستقبل الضوء كما أثبت ذلك وما زال يعرف إلى اليوم، وجابر بن حيان الذي اكتشف أهم مادة وهي (زيت الزاج) أو حامض الكبريتيك، لم يكن ذلك بالصدفة إنما بالاحتمالات، والاحتمال هو منهج منطقي أيضًا.

إن الذين يربطون المنطق بالكفر والإلحاد ويرفعون شعارًا من تمنطق فقد تزندق، هم أشد كفرًا من أبي لهب وأشد جهلًا من أبي جهل، ذلك أنهم يرددون سؤالًا لا يجوز في المنطق (من خلق الله؟) ذلك أن المنطق مليء بالقضايا التي يعتبرها المناطقة كاذبة أو مضللة، ولا يأخذون بها، بل يعتبرونها من المغالطات، وما أظنهم أخذوا بهذه الفرية إلا لعجزهم عن فهم علم ذهني محض لا يتأتى لكثير من الناس، إذن نستطيع أن نقول إن قتل المنطق والتفكير المنطقي كان أهم الأدوات التي قضت على حضارتنا وجعلتها منذ سبعة قرون شجرة يابسة في صحراء، ولن يردها للحياة إلا التفكير المنطقي.

3- من تآمر على المنطق

ليس من الرأي السديد أن نحدد سببًا واحدًا، جعل من المنطق غائبًا عن أذهاننا وحياتنا العقلية، بحيث لم نعد بإمكاننا أن نفكر بصحة أفكارنا أو بخطئها، إنها معضلة ذهنية، علينا أن نعالجها بأقصى ما نستطيع من كياسة.

السفسطائيون أصحاب منطق، ولكنه منطق خاطئ، ومجتمعنا العربي تشيع به المنطق السفسطائي، فنحن قادرون بأكثر مما يجب اكتشاف أخطاء غيرنا، بل تسفيه وتشويه أفكارهم لنكون نحن المصيبين، واستعمال الأفكار الغوغائية والردح للتدليل على أن رأينا وموقفنا هو الأصح وغيرنا هو الخاطئ.

إنه منطق السفسطائيين الذين حاربهم سقراط، وقضى في معركته شهيدًا بالسم، هذه الظاهرة المرضية نعاني منها أيما معاناة، على كل الصعد، على المستوى السياسي والاجتماعي والديني والعلمي والأدبي والتربوي والثقافي، ولن تضيف استشهاداتي توضيحًا يعمق الفكرة التي نحن بصددها، لأن كثيرًا من الناس يملكون فيضًا من المشاهدات الغبية والمسيئة والمضرة، ويمكن لنا أن نضع بعض الأفكار التي تساعدنا على فهم واقعنا الحزين.

1- إن المنطق يصبح أكثر ضرورة حينما ترتقي مهمامتنا ومعارفنا في الحياة، لذلك نكون أكثر حاجة لأن تكون قراراتنا سليمة وصحيحة، ولكن بما أننا في المستوى الأدنى من الحضارة الإنسانية، فإن كل ما نحتاجه من أفكار ومعالجات، نجدها لدى الأقوام التي سبقتنا في التقدم، وها أنت ترانا حينما نريد أن نعالج مشكلة ما، فإننا نستعين بخبراء من الدول التي ترى أن المنطق هو السبيل لحل المشاكل، ومعالجة القضايا، والطريق السليم نحو الرفاء الاجتماعي، لكن الأنكى من ذلك هذه السخرية السوداء التي نقول فيها: بأنهم يخدموننا بما نمنحهم من أجور، وليس من اللائق أن نتعلم فننزل لمستوى الأجراء.

2- اعتقادنا بأن القرآن الكريم يكفينا في كل أمور حياتنا، وأنه كفانا عناء التفكير، فالله قد دبر لنا كل أمورنا (وما فرطنا في الكتاب من شيء)[٨] ولم ينتبه أحد أن مشاكلنا التي تواجهنا اليوم هي غير المشاكل التي عالجها القرآن في مجتمع الجاهلية، فما ورد من حلال وحرام لا تشكل اليوم شيئًا

[٨] [الأنعام : 38].

بجانب القضايا التي نواجهها، فما علينا إذن سوى أن نستعين بالمنطق لكي يوصلنا إلى صواب التفكير وحل القضايا كما يجب حلها.

3- إن التفكير المنطقي يكون أكثر ضرورة كلما تعقدت حياتنا وأصبحنا بحاجة ملحة للخروج منها أو تجاوزها، فشخص بدوي في خيمة في الصحراء، أو رجل في الأسكيمو، لن يكون بحاجة لمنطق كي يدير حياته البسيطة، ذلك أنه يفكر بعيشه الذي يحياه فقط، مستعينًا ببعض الأفكار والقيم التي ورثها عن أجداده، ولا يفكر في المستقبل كأن يقوم بتهجين أغنامه بسلالة أحسن، أو يجعلها تلد توائمًا، ولكن الذين يعيشون في مدن مكتظة فإن لهم قضاياهم المختلفة عن مشكلات البدوي الذي لا يجد مشكلة في الحصول على الماء أو مكان التغوط أو انقطاع الكهرباء، من هنا نجد أن وظيفة المنطق هي استخراج أفكار جديدة لحل مشكلات الحياة.

4- إن طبقة المتدينين أكانوا موظفين رسمين في وزارة الأوقاف أو هواة يمارسون الدعوة والتبشير، أو مؤيدين للجماعات الدينية، فإنهم يرفضون استخدام التفكير المنطقي، ذلك أن المنطق يرفض أية فكرة أو معلومة لا يكون متأكدًا من صحتها، لأنه بديهيًا كل فكرة خاطئة لا يمكن أن تبني عليها فكرة صحيحة أخرى، إذ لا جدال أن ما بني على خطأ سيكون بالضرورة خاطئًا، ولكننا نرى تفكير الإسلاميين قائمًا على النقل عما سبق، وإنهم لا يراجعون هذه الأفكار والفتاوى المنقولة، إن كانت صائبة أم خائبة، وأن رجل الدين أكان إمامًا كأبي حنيفة أو شيخ مسجد، فهو إنسان يمكن أن يخطئ، إن الركون إلى صحة الموروث وعدم التمحيص فيه مريح إلى حد الخدر، المشكلة أنهم يرفضون المنطق الذي يطالبهم بالوعي فيما يقرؤون، وهذا يسفه آراءهم النقلية، ومن هنا يعادون استعمال المنطق في استخراج الأحكام، لأن ذلك سيقحمهم في ثورة فقهية جديدة، هم غير قادرين عليها، وسوف تخرجهم من الحياة الفكرية، إذن فمعاداتهم للمنطق نابعة من أسباب خاصة وليست أسباب موضوعية.

5- إن عدم تدريس المنطق في المدارس هو سبب هام في معاداة المنطق، أن تدريس طلبة الصفوف العليا مادة المنطق، بشكل مبسط ومفهوم سيجعل من كثير من الطلاب يأخذون فكرة ولو بسيطة عن المنطق، لا يتعدى إزالة الأمية، إنه أفضل بكثير للطلبة الجامعيين الذين لا يعرفون شيئًا البتة عن المنطق، لذلك تكون سخرية عادل إمام من المنطق مقبولة في مدرسة المشاغبين، حيث تطلب المعلمة منهم تعريف المنطق وهم لا يعرفون شيئًا في

الحياة، فإذا لم يكن لدى الفرد معلومات وأفكار كثيرة فإن المنطق سيكون له هراء يستدعي السخرية.

6- إن نبذ المنطق هو مفيد للسياسي بقدر ما هو مفيد لرجال الدين، ذلك أنهم يستطيعون أن يسوّقوا أية مقولة وأي شعار وأي كلام ، فحينما يرفعون شعارًا مثل الأردن أولًا ، فإنه شعار فارغ، إذ لا يوجد من بين الدول من هو (أولًا)، لأن ترتيب الدول ليس مناطًا بأحد ، لأن كل دولة تتكامل مع الأخرى، حتى الذين يروجون له يتمنون لو يستطيعون الهجرة إلى الدول الأولى حقيقة، ومثلها شعار إلى الأبد يا زعيم البلد ، وأيضًا مصر للمصريين، والأردن للأردنيين وغيرها.

7- إن المنطق ليس مواد قانونية يمكن حفظها، وتقديم امتحان فيها، إنه ثقافة وسلوك، هو أن تفكر بصدق أفعالك وصواب تصرفك قبل أن تميز أقوال الآخرين وتصرفاتهم ، وأن تكون مستعدًا لمراجعة أفكارك ومواقفك، وأن تفهم كيف توصل فكرتك للغير، وأن ترى أن الصواب والخطأ مقياسه المنطق وليس الشخص الذي تحبه أو تنافقه أو ترهبه، وباختصار أن يكون لك ضمير يقظ وعقل منفتح.

8- المنطق قانون طبيعي وليس قانونًا وضعيًا، فالمنطق لم يأتِ في جيوب الاستعمار أو الشيوعيين أو المتربصين بنا أو المتآمرين على ديننا ، فكما خلق اللّه قانون انعكاس الضوء وقانون جذب المغناطيس وقانونًا لمسير الأفلاك وقانون الوراثة للكائنات الحية، فإنه خلق أيضًا قانونًا للتفكير العقلي وهو المنطق، وإن كان الإغريق هم من أخبرنا بهذا القانون، فعلينا أن نحفظ لهم فضلهم، ونسمي أرسطو بالمعلم الأول كما أسماه الفارابي، وعلينا أن نتابع الإضافات التي جرت عليه من قبل الفلاسفة المحدثين، بل نضيف إليه كما أضاف أسلافنا إلى العلوم التي اكتسبوها.

9- المنطقي كما هو القاضي أو المحامي، يمكن أن يخطئ في استخدام المواد القانونية، والمنطقي يمكن أن يستخدم المنهج الخطأ، ولكن في هذه الحالة لن يصل إلى ما يبتغيه من نتائج، فقوانين المنطق تشبه رزمة المفاتيح يدخل بواسطتها للمعرفة الجديدة، ومن الجائز استخدام المفتاح الخطأ، ولكن المنطقي يحاول تجريب المفاتيح الأخرى الملائمة ويعيد تصويب مساره، إن عدم المهارة في استخدام المنطق، ليس دليلًا على عقم المنطق.

4- مجالات المنطق

1- المنطق الأرسطي التقليدي

المنطق الأرسطي هو المنطق الذي شرحه أرسطو، وأخذته عنه كل الأمم ومنهم العرب كابن سيناء والفارابي وابن رشد، وأورد احتمالات التفكير، وبين الخاطئ منها والمصيب، وبيّن ما بينها من اختلاف، وجعلنا نعلم أن هذا الشكل المنطقي صحيح بينما الشكل الآخر خاطئ، ولكن هذا المجال من المنطق اختص بالقضايا التي تعتمد على الجملة الخبرية، أي الجملة المكونة من المبتدأ والخبر، أو كما قال الفلاسفة الموضوع والمحمول، مثلًا كل معدن يتمدد، الحديد معدن، إذن الحديد يتمدد، هذا الشكل هو أحد النماذج الصحيحة ذات المقدمة الصادقة التي تنتج قضايا صادقة، ولكن حينما نقول كل العرب مسلمون، أنا عربي إذن أنا مسلم، فهي قضية خاطئة لأن العرب ليس كلهم مسلمين، أو بالمصطلح الفلسفي (المحمول غير مستغرق بالموضوع) لذلك تكون النتيجة خاطئة.

هذا النوع الأولي يسمى المنطق الأرسطي أو المنطق الصوري مجاله قضايا ملموسة في الواقع، ولكن هناك أنواع أخرى في منطق أرسطو منها:

أ- القياس الشرطي: هو ارتباط قضيتين سلبًا وإيجابًا، كالاجتهاد والنجاح كقولنا (كل مجتهد ينجح)، وإذا ما عكسناها سلبًا تبقى صادقة (غير المجتهد لا ينجح).

ب- القياس الاقتراني: وشكله كل أ=ب وكل ب=ج إذن كل أ=ج ومثال ذلك : الكريم أخلاقي وكل أخلاقي محبوب، إذن كل كريم محبوب.

ج- القياس الناقص، والقياس التام : القياس التام هو أن تفحص العينة كاملة، وحكمك شاملًا وصادقًا، كأن تقول كل سيارات الشركة العشرين صالحة وجاهزة، وهذا يستلزم تفحصها واحدة واحدة، إذن يكون النتيجة صادقة، أما لو اشتريت عشرين كيسًا من القمح، فإنك لا تتفقد كل حبة قمح بل تأخذ عدة عينات من كل كيس ثم تقول كل القمح جيد أو غير جيد، فيكون حكمك ناقصًا لأن قولك لم يشمل كل أفراد المجموع، وكذلك لو قلنا كل هذه صناديق تفاح، هذا صندوق تفاح تالف، إذن ليس كل صناديق التفاح

تالفة، بمعنى أن المقدمة لا تكون صادقة تمامًا صدقًا كليًا، لذلك لا تعطي حكمًا صادقًا كليًا.

هناك أقسام أخرى، ولا نريد أن نحول المقال إلى درس في المنطق.

2- المنطق الرمزي

هو المنطق الذي تستبدل فيه الجمل والكلمات المعبرة عن القضايا إلى رموز وإشارات دالة، فالأرقام الحسابية ما هي إلا رموز تنوب عن كتابة الأرقام، وهذه الرموز ترتب منطقيًا كي نتأمل بها القضايا الرياضية والعمليات الحسابية، وهي مؤكدة الصحة، وفي الجبر أيضًا فإن حرف السين يعني أي شيء وكان في الأصل كما وضعه الخوارزمي (ش) وهو اختصار لكلمة (شيء) وحينما نقل الأوروبيون استعملوا رمز X ونستطيع أن نضيف إلى المنطق الرمزي إشارة النسبة المئوية (%) وإشارة الجذر التربيعي أو التكعيبى والأقواس.

كما نستعمل أيضًا الرسومات البيانية بأشكالها ودلالاتها المختلفة، ونرى في الشارع إشارات المرور، فنفهم منها ما نفهمه من الكلام، وأن المختصين بالرياضيات يتعاملون مع القضايا بواسطة الرموز التي أصبحت تنوب عن اللغة، ويمكن أن تنطبق على أكثر من موضوع أو قضية، ولو رأيت بعض الرموز التي كان يتعامل معها أينشتين لذهلت من هذه الخرابيش التي لا تعني لك شيئًا، بينما كان أينشتين يغوص بها إلى أدق القضايا وأخفاها وأصعبها.

3- المنطق الرياضي

هو تحويل الكيف إلى كم، وأول هذه التحولات هي الأرقام، وبها صار الكم معدودًا، فالكبير والطويل والثقيل والمرتفع والساخن والصلب والمستوي والكروي وغيرها من صفات الكيف، تتحول بالمنطق الرياضي إلى وحدات يمكن قياسها وبالتالي يمكن التعبير عنها بوحدات قياسية، فما عاد في المنطق الرياضي كلمة (واسع) بل سعة باللترات أو الأمتار المربعة أو المكعبة.

إن هذه الوحدات القياسية ليست موجودة في الطبيعة إنما هي من اختراع العقل البشري المنطقي، ولم يكن هذا الاختراع بلا هدف، بل من أجل زيادة فهم الطبيعة، فمن علاقة الحجم بالوزن استطعنا أن نعرف الكثافة، الكثافة تصور ذهني، وعلاقة الكثافة بدرجة الحرارة، ومثلها استطعنا أن نحدد سرعة السقوط أو الجاذبية الأرضية، ومقاومة السلك المعدني الموصل للتيار

الكهربائي، ومساحة الدائرة وحجم الكرة، وبالعدد أيضًا استطعنا أن نقيس سرعة الضوء والصوت وموجات الضوء الأحمر وما تحت الأحمر وما فوق البنفسجي.

وما كان ليتم ذلك كله إلا حسب المنطق رياضي، الذي يمكنه أن يجد العلاقة الكمية بين الأشياء، بل بالرياضيات استطاع أن يعرف أينشتاين كمية الطاقة الذرية التي تنتج عن غرامات قليلة إثر انشطار البلوتونيوم، واستطاع العالمان (آدمز ويانوش) عام1846 اكتشاف الكوكب نبتون بالحسابات الرياضية وليس بالمناظير، وتحديد موقعه ورصده، بمعنى أن المنطق الرياضي في أبنيته الصحيحة يمكن أن تكون وسيلة للتنبؤ، فالرحلات الفضائية التي تسير إلى القمر والمريخ تسير بمسار محسوب مسبقًا، فينطلق والكل متأكد من دقة المسار والسرعة.

4- المنهج التجريبي

هو وسيلة للمعرفة من خلال التجارب وليس من خلال التفكير الذهني المحض، ومعظم علومنا التي نعرفها ونستخدمها ناتجة عن التجارب المصممة مسبقًا، فلو أردنا أن نعرف ما الذي يثير شراسة القط ليفترس الفأر، فنضع أسبابًا محتملة ثم نقوم بعزلها واختبارها واحدة واحدة، كالصورة والرائحة والشكل والسرعة، فمثلًا نحضر للقط صورة فأر ونرى ردة فعله، ثم نحضر دمية فأر لنعرف تأثره بالشكل، ثم نحضر فأرًا محنطًا لنرى إن كان يرسل رائحة أو موجات وهو حي أم لا، ثم نحضر فأرًا حيًا لكنه منوم، ثم نضع فأرًا في دورق زجاجي لنعرف إن كانت تغريه حركة الفأر السريعة وإذا ما استثار لسببين، مثلًا الشكل والسرعة، فنتابع التجريب حتى نهتدي أخيرًا لسبب العداء الدموي بين القط والفأر.

وهذا مثال لتقريب الفكرة، ذلك أن كل اختبار بحاجة إلى تصميم خاص، فالأدوية لا بد أن تخضع لعشرات التجارب المحتملة كي يتم التأكد من أنها صالحة وآمنة.

لعل مشكلتنا الكبرى هو هذا المجال، واعتقادنا بأن كل موروث هو صحيح، ولا نكلف أنفسنا عناء التأكد من صحته، ولعل الأدوية العشبية هي أكبر دليل، والوصفات الشعبية فكثير هم الذين يأخذونها ولا يسألون عن مصدرها، ومثلها تفسير الأحلام وقراءة الطالع، وكثير من المأثورات التي يقال عنها صحيحة.

من خلال ما سبق نعرف أن المنطق لا ندرسه فقط، بل هو الوسيلة العلمية التي تقدم لنا الصناعات والمبتكرات والأفكار وكل شيء، وأن المنطق لا علاقة له بالدين أو الإيمان، وأنه كما أوضحنا فطرة إنسانية وضعها الله كما وضع في المرأة غريزة الأمومة لكي يضمن سلامة الطفل غير القادر على الحياة وحده، ووضع غريزة الحب بين الرجل والمرأة ليكوّنا أسرة، المنطق خلقه الله في الإنسان لكي يستعمله العقل لتدبير حياته وعيشه، فما الخطأ في أن نكتشف قوانين هذا المنطق، وتستعملها على وجهها الصحيح، وبدلًا من استعمال المنطق استعمالًا عشوائيًا أن نستعمله استعمالًا واعيًا.

إن علم المنطق كما هي كل العلوم تكون سهلة على بعض وصعبة على البعض الآخر، وكون المنطق أصعب العلوم على كثير من الناس، فهذا لا يوجب نبذه واتهام المشتغلين به بالزندقة والتجديف على العقائد الدينية.

ومن ناحية أخرى أن أهميته تكون في كيفية استعماله، فالسلاح يمكن أن يكون للدفاع عن النفس، ويمكن أن يكون أداة جريمة، وهنا لا نستطيع أن نقول إن السلاح أداة خطرة يجب منعه، ونقول للذي يدّعي القدرة على إثبات عدم وجود اللّه، تعال نتحاكم إلى قوانين المنطق، لنرى إن كان باستطاعته ذلك أم لا.

الفهرس

المقدمة 1

(1) مقدمات نظرية لابد منها 5

1- بين الدين والفكر الديني 6

2- مصداقية التوثيق الشفاهي 12

3- جدلية الفكرة ونقيضها 18

4- الإسلام حضارة أم دولة؟ 22

5- متلازمة التفكير والتغيير 26

6- الحلم المشروع بدولة الإسلام 30

7- هل لدينا وقت للحلم؟ 31

8- أثر الإسلام السياسي في الثقافة المجتمعية 33

9- نحن محكومون بالتغيير 36

(2) تفاصيل في بناء الدولة الإسلامية 41

1- الشيطان يكمن في التفاصيل 42

2- هل هي دولة إسلامية أو دولة للمسلمين؟ 42

3- هل هي دولة إسلامية في مجتمع به مسلمون؟ 43

4- هل قوة الدولة من قوة دينها؟ 44

5- الدولة الإسلامية والتكنولوجيا 49

6- الهوية الإسلامية والهوية القومية 52

7- الدولة الإسلامية وبناء الحضارة 56

8- ما بين الحزب الشيوعي والإخوان المسلمين من توافق 59

(3) حول مفهوم الخلافة أو الدولة الإسلامية 63

1- علاقة الدين بالسياسة 64

2- هل أمر الله بالخلافة أم بالإمامة؟ 66

3- الخلافة ومنشئوها 68

4- هل الخلافة ضرورة دينية أم اجتماعية؟ 70

5- الخلافة كانت وليدة الظروف 72

6- هل الخلافة اسم جنس؟ 73

7- ماذا تعني "دولة إسلامية"؟ 75

8- الدولة الإسلامية وأدبيات الحكم الإسلامي 76

(4) الإسلام والسياسة 79

1- مفاهيم مطروحة 80

أ) الدولة الإسلامية لإقامة شرع الله 80

ب) الدولة الإسلامية تستمد شرعيتها من الإسلام 80

ج) هل يحتاج الدين إلى دولة؟ 81

2- نشوء ظاهرة الإسلام السياسي 82

3- الاشتباك بين الفقه والسياسة 83

4- هل ورثنا علمًا في السياسة؟ 85

5- أمنيات ليس إلا... 87

6- إعادة تعريف الدولة الإسلامية 89

7- لعبة الشد نحو الماضي 90

(5) مشاريع الدولة الإسلامية 93

1- سيد قطب والدولة الإسلامية 94

2 – مفاهيم سيد قطب في الدولة الإسلامية 96

أ) الحاكمية 96

ب) الجاهلية 97

ت) التكفير 98

ث) الهجرة 98

3- خلافة حزب التحرير 100

4- بعض نماذج الدول الإسلامية 103

5- عوامل انهيار الاتحاد السوفيتي ومرتكزات بناء الدولة الإسلامية 105

6- نحن والتجربة الصينية 107

7- الفرصة التي ضاعت لإقامة دولة إسلامية 111

(6) تحديات الدولة الإسلامية 113

1- البنية التحتية للدولة الإسلامية 114

2- الشخصية الملهمة 117
3- كيف نحمي الشعب من الحاكم؟ 120
4- الاقتصاد والاقتصاد الإسلامي 123
5- الاقتصاد الإسلامي واقتصاد الإخوان 127
6- بنية الحزب 130
7- رواج فكر العوام وانحسار المفكرين 132
8- قليل من الشك يوقف التهور 134
9- الفقه البدوي 137
(7) حاجتنا للمنطق والعلم والعلمانية 143
1- ماذا فعلتم بالعلم يا مسلمون؟ 144
2- ما هو العلم؟ 148
3- أقسام العلم الثلاثة 150
4- التفكير العلمي 152
5- نواقض التفكير العلمي 155
6- الحركات الإسلامية واستخدام العلم 158
7- العلمانية ونشأتها 161
8- واقع العلمانية في العالم العربي 164
9- العرب والعلمانية 168
(8) حاجتنا للفلسفة والمنطق 171
1- ضرورة التفلسف 172
2- المنطق فطرة 175
3- من تآمر على المنطق 177
4- مجالات المنطق 180
1- المنطق الأرسطي التقليدي 180
2- المنطق الرمزي 181
3- المنطق الرياضي 181
4- المنهج التجريبي 183
الفهرس 185